حسين البكري

د. رشدي فكار

المفكر الاسلامي العالمي

في : حوار متواصل

حول

مشاكل العصر

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦ م

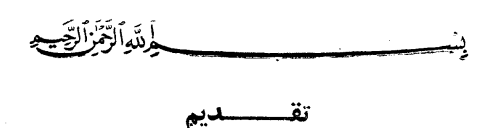
مطابع المختار الاسلامي
١٤٥ طريق المعادي الزراعي - محطة المطبعة

بسم الله الرحمن الرحيم

« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطانا »

صدق الله العظيم





تقـــــديم

في يوم من أيام شهر ابريل عام ١٩٧٧ كان لقائي الأول مع المفكر المصرى المولد والنشأة . والمغربى المهجر — الأستاذ الدكتور رشدى فكار ، وكان اللقاء لقاء عمل ، وقد كلفنى « الأهرام » بإجراء حوار معه ..

وأعترف مقدماً بأن معلوماتى عن الرجل لم تكن تتعدى بضعة سطور نشرت عنه — ولا أدرى الآن فى أية مجلة أو دورية أو صحيفة — تشير إلى ترشيحه رسمياً لجائزة « نوبل » العالمية فى الآداب .. كأول مفكر عربى يحظى بهذا التقدير العلمى الدولى .

وأذكر أنه قد ثارت مناقشات فى المحافل الأدبية تدور حول سؤال يقول : كيف يحرم أقطاب أفذاذ من أدباء مصر مثل : العقاد وطه حسين ونجيب محفوظ وغيرهم ، وغيرهم ، من جائزة نوبل ، ثم يرشح لها أستاذ مصرى مغترب .. لا يكاد يسمع عنه أحد فى المحيط الثقافى المصرى ، فضلا عن العربى ؟ !

وبطبيعة الحال ، فإن للسؤال منطقه ، بل ووجاهته .. ولكن للمرشح للجائزة « الدكتور رشدى فكار » أيضا عذره ، فإن جل مؤلفاته بالفرنسية أساسا أو بالإنجليزية ، ولا تكاد تصل إلى أسماع مثقفينا .. وإن كانت دور النشر المصرية والعربية قد أصدرت عدة كتب بالعربية له مؤخرا تلقى بالضوء على ثقافته الموسوعية ..

من أجل ذلك كان من واجبى قبل أن أغوص فى عقل الرجل لأستخرج منه ما يفيد حوارا تنشره صفحة التحقيقات بالأهرام أن أعيد تقليب صفحات

حياة الرجل الذى أدهشنى بداية أن أعلم أنه من قرية مجهولة نائية فى أقصى صعيد مصر الطيب ، تحتضن آثارا فرعونية غابرة تروى أمجاد ماض سحيق .. هى قرية الكرنك . إحدى قرى محافظة قنا .. وقد لمست فى الرجل آثار حياته بالمهجر كأستاذ بجامعة الملك محمد الخامس بالرباط « بالمغرب » على لسانه الذى اكتسى بلكنة مغربية محببة مشوبة بمصطلحات علمية عربية مستحدثة لا عهد لمثقف مصرى بها .. ولقد وقفت عندها فى البداية متحيرا لا فى فهمها ، ولكن فى كيفية طرحها على قارىء الأهرام .. هل أضعها كما هى (والعهدة عليه) أم أقوم بتحويرها وتفسيرها وإعادة صياغتها وترجمتها ؟ ..

ولقد اخترت فى النهاية أن أرويها على لسانه كما هى .. فكم من الألفاظ والتعبيرات الشائعة على لساننا اليوم وفى بطون كتبنا وأعمدة صحفنا كانت غريبة ومستهجنة ، ثم مالبثت أن شاعت وانتشرت واحتلت مكانها فى قاموسنا اللغوى المعاصر .. وبعد مضى ساعة من أول حديث مع الدكتور فكار أدركت أن للرجل مذاق خاص فى فكره ، ورؤى متغيرة جـديدة ومبتكرة تختلف وتتباين مع كثير من الأفكار التى تلوك معانيها ألسنة مفكرينا ومثقفينا .. وكان واضحا أنه قد نهل من منابع كثيرة فى الغرب اختلطت مع ثقافته الأزهرية الأولى ، ومع نشأته الإسلامية فى قرية الكرنك لتخرج مزيجا حيويا دافقـا من ثقافة الغرب والشرق .. وقد طرح الدكتور فكار نفسه أمامى (رغـم اعترافه بأنه قد اغترف طوال ٣٠ عاماً من عمره من علوم « الكفـار » على حد تعبيره ..) كمفكر إسلامى .. ولا أقول مفكر دينى ، أو فقيه إسلامى !!

ومن خلال حواراتى المتكررة بعد ذلك ولمدة ثمانى سـنوات لم أتبين فى الرجل وقوفه عند التفقه التقليدى فى أمور الشريعة وعلوم الإسـلام ، وإنما اسـتيعابه لجوهرها كمفكر إسـلامى لأنه يتبنى فى ميادين مواجهاته الساخنة مع حضارة الغرب الفكرية التى تشربها هو حتى (الثمالة) وجهة نظر الحضارة الإسلامية التى يبشر ببزوغ فجرها على الكون بأسره مخترقا متناقضات الأزمنة والأمكنة ، ومتجاوزاً ظلمات الواقع العربى الإسـلامى الراهن التى توحى للناظر بأنها تلف كل ما يحيط به من إنسان وفكر وحضارة وسياسة .

فالدكتور رشدى فكار كعالم اجتماع أحد قلائل فى عالمنا المعاصر ممن تعمقوا حتى الجذور فى أصول الماركسية ، ولكنه وبسلاح الخبرة والعلم — لا الشعارات والسياسة — يحاصر بنيانها طارحا الهديل وهو عدالة الإسلام ..

والدكتور رشدى فكار الذى عبر رحلة طويلة شاقة مع سان سيمون ، وفوريه ، وبرودون ، وسبنسر ، وماركس ، وسارتر ، وهيجل ، وغيرهم وغيرهم ، يوضح عقم تفكيرهم المادى ، وكيف انتهى إلى مجرد فقاعات تلمع ثم تترسب ، وكيف أن كل الملحدين قد آل بهم الأمر إلى الإيمان بالله صراحة أو إنهزاماً ، أو على الأقل العجز فى مواجهة باب الإلحاد المسدود ! ..

والدكتور رشدى فكار الذى عاش معظم سنوات عمره بين جنبات المدينة الغربية الأوروبية كأستاذ زائر لكثير من الجامعات الأوروبية وكمشارك فى درسات وأبحاث متعددة فى مراكز البحث الاجتماعى العلمية فى سويسرا وفرنسا لا تبهره أضواء الحضارة الأوروبية ، ويتنبأ باستيطان أزماتها ، ويرشح للقمة فى القرن القادم بين ما يرشح كتطلعات الأمة الإسلامية إذا تغلبت على متناقضاتها ، وتجاوزت تخلفها ، واستمرت انبعاثات صحوتها .. أو الأمة الصينية التى تشرئب بعنقها بمليار و ٢٠٠ ألف من البشر وبتاريخ حضارى عميق الجذور ، وقدرة رؤية على استيعاب فنون التكنولوجيا الصناعية .

والدكتور رشدى فكار لا يرى خلاصا لتخلف المسلمين والعرب ولتطاحناتهم الدامية إلا بالإسلام .

كما أنه لا يرى مستقبلا للأمة الإسلامية إلا « بالتمدرس » — إعادة الصياغة العقلية — أى بالتربية المدرسية الواعية الرشيدة ، ثم بأن يشارك علماء الأمة فى مقاليد الأمور ويتصدروا ليواجهوا تحدى العقلية الأوروبية والأمريكية الجبارة على المستوى الكونى ، أو على الأقل يجاوزها بوعى وقدرة ..

ومنذ أن نشر الأهرام حوارى الأول معه من ثمانى سنوات تفتحت شهية القراء لمزيد من الأحاديث معه .

وقد فوجئت بصحف عربية متعددة فى المغرب والمشرق تنشر النص الكامل لأحاديثى مع الدكتور فكار ، وعرف المذيعون بالإذاعتين المسموعة والمرئية طريقهم إلى الدكتور فكار إبان زيارته السنوية لمصر ..

.. ولم يعد الدكتور فكار غريباً على العقل المصرى والعربى .. وأزعم أن لى سهما فى هذا المضمار ! .

.. وفى خلال لقاء مع الدكتور فكار منذ سنة مضت فاتحته بسؤال : لماذا لا تفكر فى جمع كل الأحاديث التى أجريناها فى كتاب ؟

وحقيقة الأمر أن اتخاذ القرار النهائى كان فى حاجة إلى تفكير ..

إننى برغم مزاولتى لمهنة القلم منذ ٢٥ عاماً مضت لم أفكر مطلقا فى تأليف كتاب .. ربما لتشعب مجالات الكتابة التى أمارسها دون أن أقف عند تخصص بعينه ، وربما لضيق وقت الصحفى الذى يضيع فى ملاحقة الأخبار ، وعمل التحقيقات الصحفية ، ومتابعة العمل اليومى داخل الصحيفة ..

ولكن ثمة سبب آخر كامن فى النفس ويدور حول فكرة تختمر فى الذهن ، لا أدرى أصواب هى ، أم خطأ ؟ .. فالكتاب فى اعتقادى هو نظرية مبتكرة جديدة ، أو فكر غير مسبوق ، أو هو شىء أقرب ما يكون إلى الاختراع والاكتشاف .. فكم من كتب غيرت وجه التاريخ ، وكم من كتب غيرت حياة البشر ! .

هكذا كانت تبدو صورة الكتاب فى رأسى . ولكننى حينما شرعت فى إعداد هذا الكتاب أعترف بأننى لم أتعامل معه بصفته كتابا بالمعنى المقصود فى نظرى لصفة الكتاب ، ولكنه حوار صحفى متواصل ومتصل مع مفكر إسلامى مصرى عربى عالمى .. أى أنه عمل صحفى بحت ، وإن كان منشورا بين دفتى كتاب !

ومعظم الأحاديث المنشورة بهذا الكتاب سبق نشرها بجريدة الأهرام ، وبعضا منها نشر بمجلة القدس وجريدة النور الإسلامية ..

ولكن هذه الأحاديث المنشورة كانت كأنها الجزء « الطافى » من الجبل على سطح البحر ، لضيق المجال الصحفى عن نشر مجريات الأحاديث بأكملها أما الجزء « الغاطس » من هذه الحوارات فقد كانت مودعة بأرشيفى الخاص ، لذلك فقد لجأت إلى الأشرطة والملفات التى تحتوى على كل كلمات الدكتور فكار التى جاءت رداً على مئات من أسئلتى .. لأعيد صياغة ما نشر مع ما اختزن .. ليكون الكتاب وثيقة كاملة لفكر الرجل خلال حواراتى معه طوال ثمانى سنوات .

.. ويبقى سؤال محير .. يستنفر الدافع الأول لتسليط الضوء على الدكتور فكار وهو : إقرار ترشيحه كأول مفكر عربى لجائزة نوبل ..

وقد طرحت على الدكتور فكار منذ أول لقاء معه عام ١٩٧٧ سؤالا مشابها يتضمن نفس المعنى وكانت هذه هى إجابته بالنص :

لقد أقر الترشيح فى أكتوبر سنة ١٩٧٦ وسوف أتقدم للتحكيم فى السنوات الثلاث القادمة ، على أساس من إنتاجى المتكامل .. خاصة بعد صدور موسوعتى فى علم الإنسان فى أربعة أجزاء ، والتى حاولت فيها أن أعيد النظر فى مضامين علم الإنسان على مستوى يتجاوز المضامين الغربية ..

.. وهنا سألت الدكتور فكار :

ولكن هناك من يشكك فى ترشيحات جائزة نوبل ، خاصة بالنسبة للشخصيات العربية .. وأجاب قائلا :

أولا : يجب أن يقابل الحصول على الجائزة أو عدم الحصول عليها بروح رياضية ..

ثانيا : إنه من الخطأ أن نتصور أن الجائزة تمنح على ضوء مواقف شخصية ، كما أن القدرة على الخلق والإبداع الفكرى أو الفنى أو الفلسفى أو الأدبى لا تكفى وحدها للحصول على الجائزة ..

إن ثمة ظروف أخرى كثيراً ما تلعب دوراً فى الحصول على الجائزة

كمدى التفاوت بين مستويات المرشحين ، وكوجود عنصر يصبح بقـدرته الخلاقة نقطة الارتكاز للأكاديمية السويدية . وكذلك فإن البيئـة الفكرية العالمية قد تؤهل تياراً معيناً للجائزة على حساب تيار آخر ! .

هكذا كان رد الدكتور فكار حرفياً على سؤالى المطروح حول مصير إقرار ترشيحه لجائزة « نوبل » .. مع إرجاء التحكيم لوقت لاحق مستقبلا ..

وفى اعتقادى أن المفكر الإسلامى المتخصص فى أزمة الحضارة الغربية المادية ومدارسها لا ينبغى أن ينتظر مكافأة له من أكاديميتها العلمية ..

ومع هذا نرجىء الحكم النهائى على ذلك فى انتظار ما يؤول إليه إرجاء التحكيم والذكرى لمن يرجون وجه الله تعالى .. والعاقبة للمتقين ..

القاهرة فى سبتمبر ١٩٨٥

خميس البكرى

* * *

(١)

دكتور رشدى فكار .. رحلة حياة

فى أعماق صعيد مصر .. فى قرية الكرنك بمحافظة قنا كان الميـلاد .. هو سليل أسرة تنتمى إلى أصـل عربى . إلى قبائل الهـوارة التى نزحت من شبه الجزيرة العربيـة ، وانتشرت فى بعض مواقع بصـعيد مصر ، وفى شمال إفريقيا ..

فى سنى طفولته المبكرة .. ثمت حادثة لا يفتأ يذكرها عند الحديث عن المنبت والنشأة .. واجهته وهو فى السادسة من عمره ، فقد مرض بالدفتريا ، وتفاقم المرض باختناق شديد فى الحلقوم ، وارتفعت حرارة الحمى وطال به المرض ، ثم راح فى غيبوبة أشبه بسكرات الموت .. وكان أن أعلن والده ــ عمدة القرية ــ نبأ موته ! ..

هرع أهل القرية .. قرية الكرنك لمواساة الأب الحزين والأم الثكلى .. جاءت النسوة متشحات بالسواد يولولن وينشدن مواويل الموت كعـادة نساء صعيد مصر .. وجاء الرجال ، وعلى وجوههم ارتسمت علامات حزن صامت وقور لتقديم العزاء للوالد .. وتمت إجراءات الغسل للجثة الصغيرة المسجاة ثم إجراءات الكفن ..

وقعد « فقيه » القرية يرتل آى القرآن الكريم قبـل أن تتم إجـراءات الدفن ، وبالمصادفة البحتة لمست أصابع الشيخ الفقيه جسد الطفـل الميت فقطع ترتيله ، وهمس فى أذن أحد رجال الأسرة : شىء عجيب .. إن جسد الغلام ساخن ، والموت له برودة معلومة ! ..

وتصل هذه الكلمات إلى الأب .. فينكر ذلك .. إن الولد قطع النفس تماما منذ ساعات ، وانتشر نبأ موته فى كل أرجاء المنطقة ، وها هو البيت

مليء بالمعزين والمعزيات ، والجثة غسلت وكفنت فكيف يكون الجسد ساخنا .. وهو ميت ! .. وكيف يعلن على الناس نبأ عودة الروح بعد أن أعلن خبر الوفاة ؟ .

ويتسرب النبأ إلى الأم الثكلى الحزينة فتتعلق بقشة الأمل وهي غارقة في بحر المأساة وتهرول إلى جثة ولدها تتحسها ، وإلى وجهه تقبله وتحتضنه في صدرها بعنف ، وتضرع إلى الله وتبكي بحرقة شديدة ، وفجأة تتحرك رموش عيني الطفل وتتردد أنفاس خافتة من أنفه ، مع زفرة أنين خافتة واهنة ، فتنتفض الأم من الذهول وتطلق زغرودة مدوية لينقلب المأتم إلى فرح ، وتوزع أكواب الشربات ، وتمر الأيام ليبرأ الغلام تماماً بعد أن تنقشع آثار الدفتريا الخانقة ، وليملأ جنبات القرية لعباً ومرحاً وشقاوة .. ويقسم الأب أن يهبه لله .. للأزهر الشريف ..

« جملة اعتراضية على لسان د. رشدى فكار تعترض رحلة حياته .. فهو يتوقف ليستخلص ظاهرة ودرساً » ..

أما الظاهرة .. فهي الشهامة الصعيدية العربية التي تأبى أن تعلن نبأ عودة الحياة إلى جثة الطفل الميت ، لأن من العار عودة الرجال المعزين إلى بيوتهم قبل أن يسيروا في الجنازة ويواروا الجثة التراب ! .. إن هذه الشهامة الممتزجة بالقسوة والخشونة ، تكسر حدتها وتهذبها تماماً .. عناصر أخرى ، أبرزها العنصر النسائي .. حرارة عاطفة المرأة .. الأم التي تتشبث بالحياة .. حياة الأبناء التي تصنعها قيمة أعلى من كل القيم ..

وأما الدرس : فيلخصه د. فكار بقوله : إنني أدعو بألا يدفن ميت إلا بعد التأكد طبيا .. تأكيداً فعليا بالكشف والفحص ، لا مجرد الممارسات الإجرائية الروتينية ـ فقد لوحظ في إحدى ضواحي باريس .. عندما أرادوا إزالة إحدى المقابر من أيام الحرب العالمية الثانية ، أن أعداداً كثيرة من المقبورين في الصناديق كانوا في أوضاع تدل على أنهم كانوا أحياء أثناء الدفن ، وكانوا يحاولون عبثاً فتح الصناديق ، والخروج إلى الحياة لولا اختناقهم داخلها ! .

.. تنتهي الجملة الاعتراضية .. ويعود د. رشدى فكار ليسرد أهم

منعطفات سيرة حياته .. ويقف عند حادثة اخرى لا تقل هولا ـ صادفته وهو فى عمر السابعة عشر .. فقد جمح به حصان فوقع على الأرض ، وارتطم جسده بشدة بإحدى الصخور فلزم الفراش ، ثم تطورت الأمور ، وأصيب بحمى التيفوس ، ولم تفلح كل وسائل العلاج « الريفية » وراح فى غيبوبة ، كما حدث فى طفولته ، وكما كانت النجاة من قبل على يد شيخ هو فقيه القرية الذى جاء ليرتل القرآن الكريم ، فقد جاءت هذه المرة على يد شيخ من أولياء الله الصالحين من العالم الآخر ، فقد رحل عن عالمنا منذ مئات السنين ، وقبره يعتبر أحد معالم ومزارات القرية ، وتعلوه قبة .. وهذا الولى قطب من الأقطاب المعروفين بالصعيد واسمه « سيدى أبو عيزق » غاب الفتى عن الوعى وارتفعت حرارة الحمى ارتفاعاً شديداً ، وراح فى سبات عميق ، فرأى فيما يرى النائم ، أنه أمام هذا الولى الذى رآه يزرع الأرض بالماء والخضرة ، ثم جذبه إليه ، فتردد وجلاً ، ثم تشجع وذهب إليه يقترب منه ، وهنا اكتسى وجه سيدى أبو عيزق بابتسامة مريحة مشرقة ، وبدأ يكلم الفتى .. قال له : لقد فديناك .. ثم تمتم بالدعاء له ..

وكان أن أفاق من غيبوبته .. وروى الفتى رؤياه لأبيه !

« وهنا أيضاً يقف د. فكار ليطرح جملة اعتراضية اخرى قبل أن يمضى مع قطار العمر » ..

يقول : استجمعت كل شريط ذكريات باكورة العمر الشاقة المتواصلة المضنية وذلك فى عام ١٩٧٣ أثناء المنافسة على مقعد أكاديمية العلوم الفرنسية .. كعضو مرشح مشارك « لعلوم ما وراء البحار » .. وقد حذرنى بعض الأساتذة المساندين لى بأن الأصوات التى تساعدنى جد محدودة ، بينما منافسى تأكد فعلا من فوزه نظراً للأغلبية الساحقة من مسانديه ، وهنا حاولت محاولة أخيرة ، ومع من ؟ .. مع المساند الأكبر لمنافسى ، طلبت مقابلته ، ودار الحديث الذى يدير شريط مسيرة حياتى كلها .. وقلت له : لقد جئت إليك وأنا أعلم أنك وأنت عضو فى المجمع من كبار المساندين لمنافسى .. يا سيدى : إن منافسى هذا يبلغ من العمر ٦٩ عاما ، ولقد ولد قطعاً فى أرقى مستشفيات أوروبا ، ولم ير طوال حياته إلا كل ألوان الحياة الاجتماعية

والاقتصادية المشجعة له ، أما أنا فقد ولدت على الرمال ، وحتى يوم مولدى لم يُسجَّل بالضبط ، ثم لم أر عبْر حياتى إلاَّ كل العوائق ، ومع هذا فقد وصلت إليكم فى سن الأربعين ، فهناك إذن ٢٩ عاما توضع فى الحساب مع عوامل الإعاقة والتشجيع لى — ٢٩ عاما من الفوارق بينى وبين منافسى ، مع عوامل تشجيعه هو ، وإعاقتى أنا ..

وكانت النتيجة .. بعد هذه المقابلة مذهلة لى ، ففى الغد حينما حان وقت القرار والحكم ، أصبح هذا الأستاذ الأكاديمى الكبير أكبر مساند لى ، .. ورجحت كفتى ودخلت إلى المقعد وانتخبت بالإجماع وبالتزكية ..

وعودة إلى مسيرة الحياة .. لقد نهل رشدى فكار من مناهل الدين فى الأزهر ، ورغم ذلك إنتهى به المطاف إلى أن يكون أحد القلائل فى فهم أصول الماركسية .. كيف حدثت هذه النقلة ، وكيف اعتبر مفكرا إسلامياً رغمها ؟

يقول د. فكار فى كتابه « الماركسية والدين » : .. إن كان التخصص فى الماركسية كلفنا من العمر زهرته أعواما طوالا قاربت ربع القرن ، فالدين قد احتضننا فى طفولتنا وفتوتنا . لنكون من رجاله ، فعرفنا مجاورة الأزهر الشريف ، وممراته وحصره ، وأروقته ، وفقهائه ، وحفظنا القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم كأى طفل فى قرية مجهولة من قرى أمتنا العربية والإسلامية ، وعاصرنا أوراق الكتب الصفراء ، ومراجعتها تحت ظلال أضواء المنافذ الضيقة التى لا تسمح لدخول شعاع الشمس إلا بمقدار ، وجسدنا ملتصق بالأرض رمزا للصبر ، والإصرار .. فلسنا بغرباء على الدين ، ولا بمتطفلين على الماركسية التى عرفناها من جذورها الفكرية .. أما الدين فقد تقبلناه من منابعه بفطرة الإيمان قبل أن نواجهه بصرامة العقل الوضعى وعطاء الفلسفة الحديثة والمعاصرة النشطة .

« ولحديثه عن الماركسية والدين مقام آخر فى هذا الكتاب .. بعيداً عن سرد سيرته الذاتية التى نحن نمضى مع رحلتها الآن » ..

يقول د. فكار وهو يستعرض منعطفات حياته :

.. أثناء وجودى بباريس فى باكورة ارتباطى بهـا ، انتابنى ما ينتـاب الشباب المبهور بالحضارة الغربية الأوروبية .. نوع من التعلق بهذه الحضارة ، وخصوصاً الفرنسية منها إلى درجة أننى اعتقدت أن مكانى الحقيقى هو فرنسا ، وأننى ولدت لأعيش فى باريس ! ..

.. وبالفعل وجدت صعوبة كبيرة وحقيقيـة فى كيفيـة أن أتخلص من الارتباط بباريس .. لأن باريس هـذه ليست باريسى أنا ولكنهـا باريس الآخرين .. !

ومما زاد فى الأمر أننى مع الوقت استطعت إلى حد ما أن أندمج فى الحياة الفرنسية الاجتماعية والثقافية ، بل والحياة اليومية للفرنسى ، فلم أعد أشعر بأى اغتراب .

وفى مايو ١٩٥٦ حصلت من جامعة باريس على درجة الدكتوراه فى الفكر الاجتماعى الغربى وأثره فى الثقافة « الشرق أوسطية » ..

وفكرت أن أرحـل عن باريس .. ذهبت إلى مدينـة جنيف بسويسرا للحصول على درجة « دكتوراه دولة » أخرى .

وهنا حدثت واقعة لا أنساها أرويها لشباب الأمة .. فرغم حصولى من باريس على ثلاث درجات دبلومات عليا ، ودرجة دكتوراه جامعية ، وظللت أحاضر فى السوربون لمدة عام ، جاءنى خطاب من مجلس الجامعة ، ومجلس الكلية ، مفاده أنه مع احترامهم للشهادات الفرنسية وعلى رأسها الدكتوراه فنظراً لأننى أطالب بالحصول على درجـة دكتـوراه الدولة مع الأسـتاذية والتأهيل من جامعة جنيف ، فإنهم يطلبون منى أن أحترم قانون الجامعـة الذى ينص على أنه لا تمنح درجة « دكتوراه الدولة » مع الأستاذية إلا لمن يحصل على ليسانس من جامعة جنيف نفسها .

وبالطبع وقعت فى حيرة شديدة ودهشة أشد ، ولكن لم يقهرنى هـذا الخطاب ، فإن كان لى ما أعتز به حقيقة فهو الاعتزاز بالتواضع ، والاقتداء

بما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » .. وما ورد فى الأثر « اطلبوا العلم ولو فى الصين » .

وفعلا قبلت ، وكان غريبا أن أجلس مع طلابى لأؤدى امتحانات المعادلة .. ولكننى لم أجد أن حالتى فريدة من نوعها ، بل وجدت حالات كثيرة مثلى ، لعلماء ، وكان أحدهم أستاذاً يشغل مقعدا فى كلية الطب وجاء ليمتحن فى معادلة الليسانس لأنه يريد أن يتعمق فى تخصص آخر ويحصل فيه على درجة دكتوراه .. وقد كان .. وحصلت على درجتين للدكتوراه ودرجة أستاذية ، وثلاث دبلومات عليا ودرجتين لليسانس ..

ولقد دار بخلدى أثناء معاناة الحصول على كل هذه الدرجات العلمية قيم ومبادىء ومثل رضعتها فى وطنى مصر « وما نيل المطالب بالتمنى ، ولكن تؤخذ الدنيا غلابا » .. و « من طلب العلا سهر الليالى » .. و .. « إذا كانت الأمانى كبارا تعبت فى حملها الأجساد » .

« امتحان آخر فى الارادة .. يروى حكايته د. رشدى فكار .. يرويها للشباب خاصة » ..

فى فترة من الفترات طلب منى فى جامعة السوربون أن أؤدى اختباراً فى مادة تكميلية فى قسم الدراسات العملية عن الأدب الفرنسى .. وكان من الممكن أن أسلك طريقا سهلا بقراءة ثلاثة مراجع بالإضافة إلى بعض النصوص ، ثم مواجهة لجنة الامتحان الشفهى ـ ولكنى قررت أن أدخل تحديا صعباً بأن أحفظ أجزاء كاملة من قاموس روبير اللغوى ، وأشكر الأزهر الشريف الذى يربى فى طلابه ملكة الاستيعاب الكامل بالحفظ عن ظهر قلب ، بحفظ القرآن الكريم ..

وكان أن حفظت الجزء الأكبر من القاموس اللغوى الفرنسى ، وتقابلت مع لجنة الممتحنين ، وكان يرأسها أحد كبار مفكرى فرنسا آنذاك .. فقال لى :

.. هل لك أن تقول لنا شيئا عن الشاعر كورنيه ؟

.. قلت له : يا سيدى أنا لا أقول الشعر الميت ولكنى أقول الشعر ذا الإيقاع ..

قال : قل ما تريد ..

فأنشدت أبياتا من شعر كورنيه بنوع من التجويد .

« إننى صغير .. هذا حق ، ولكن لا تقاس قدرة الإنسان بعدد أعوام العمر » ..

قال : ندخل إلى فقه اللغة الفرنسية ..

فواجهته بالتحدى .. قلت له مجازفا : افتح قاموس روبير ، واختر أى كلمة ، وأنا أقوم بتحديد مضمونها كما وردت بالقاموس تماما .. وسرد معانيها المتعددة ومستخرجاتها ..

.. فابتسم وقال : أخشى عليك من المجازفة ! .. فقلت له : لن أخيب ظنك فى يا سيدى .. ولكن كان بداخلى وساوس .. فربما وقع اختياره على صفحة لم أحفظها .. ولكن كنت متأكداً أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا .. فقد حفظت أغلب صفحات القاموس وعددها ستمائة صفحة ، ولذلك فلن يخيب الله رجائى ..

وفتح الممتحن لحسن الحظ صفحة من الصفحات التى حفظتها عن ظهر قلب ، فأسمعته ما طيب خاطره تماماً ! .

* * *

(٢)

المؤلفات .. المنهج والغاية

مؤلفات د. رشدى فكار من كتب ودراسات تربو على الـ ١٤٠ بين مؤلف وبحث ودراسة .. وقد ذكرت فى بداية الكتاب أبرزها .. والقارىء العربى يجهل معظمها ، لأنها مكتوبة إما باللغة الفرنسية أساساً أو بالإنجليزية .. لذلك كان لابد من وقفة متأنية معه ليوضح الظروف والمنهج والغاية والأفكار التى تدور عموما فى فلكها ، كجرعة سريعة ، قبل أن يحين أوان ترجمتها إلى اللغة العربية ..

بداية يقول د. فكار معللاً غزارة مؤلفاته وتنوعها :

لابد لى من أن أعترف بأن ظروف معيشتى الصعبة فى أوروبا جعلت من دراساتى ومؤلفاتى التى نشرتها مختلف مراكز البحث العلمى والمجلات العالمية المتخصصة كانت هى مصدر عيشى الشريف ، وكان العمل فيها شاقا ومضنياً ، وكان لا يمر العام إلا وتنشر لى أربع أو خمس دراسات فى مواقع متفرقة من العالم ، وإن كان لى نصيب من الشهرة فإن السبب يرجع إلى هذه الدراسات التى شملت حتى الفكر الاجتماعى الإيطالى والروسى ، ولى دراسة عن روسيا والظروف الاجتماعية التى هيأت لثورتها ، ودراسات عن اسكندنافيا أهلتنى لأن أكون عضواً فى جمعية استرمبرج التى تضم نخبة من المفكرين هناك ، وربما كان لذلك علاقة بالتعرف علىّ من خلال دراساتى للمجتمع الإسكندنافى مقر جائزة نوبل والاحتكام فيها ، ولى دراسات عن الفكر الألمانى واليسار الهيجلى وعلاقته بالفكر الفرنسى ودراسات عن أمريكا اللاتينية ، وحركة الأرجنتين الشابة ، وانعكاسات الفكر الوضعى بالمكسيك ، ودراسات عن ارتداد الفكر الاشتراكى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ودراسة عن تجربة ألايكورى هناك لـ « كابيه » وهى أول تجربة

شيوعية فشلت فى الولايات المتحدة ، ودراسات عن ميجاويل والفكر الوضعى فى أسبانيا ، ودراسات عن أثر الفكر التقدمى فى الشرق ، وانعكاسات المدرسة السان سايمونية فى الخلافة العثمانية ، وفى مصر والجزائر والمغرب .. وبحوث فى الابستمولوجيا والإطار المفاهيمى للمعرفة ، وانتقلت جولاتى المنهجية من علوم وضعية ، إلى إطار دينى إلى فلسفة إسلامية ، إلى سوسيولوجيا اجتماعية ، إلى سيكلوجيا وسيطة ، وأول كتاب صدر لى باللغة الفرنسية ظهر عام ١٩٥٥ فى باريس عن دار النشر العالمية أوريان ميزونيف ويعالج نظرية القلق والفرج بعد الشدة لدى مفكرى الإسلام ، وكان هدفى فعلا أن أستمر فى الدراسات السيكولوجية كعالم نفسى ، ولكنى عدلت بعد أن أشبعت تطلعاتى المتواضعة فى التعامل مع الظاهرة النفسية ، وما تجسده من أهمية بالغة فى فهم أبعاد الإنسان .

وعن المؤلفات الاسلامية .. خير كتاب أعتز به الكتاب الذى نشر فى عدة طبعات فى باريس وهو كتاب « تأملات فى الإسلام » وكان له والحمد لله أثر فى إسلام بعض الشخصيات المرموقة فى الدول الإفريقية الناطقة بالفرنسية ، وأعتز بهذا ، والكتاب عبارة عن تأملات فكرية عقلانية مبسطة للغاية لطرح الإسلام من منطلق لماذا لم يعرف كما يجب فى الغرب ؟ ثم تحديد موقف الغرب من الإسلام عبر مسيرة التحدى التاريخى ، ولقد حاولت أن أحدد كل العناصر الإنسانية فى الإسلام لأطرح فى النهاية نتيجة : هى أن الإسلام هو الدين الذى لا يمكن التحفظ عليه ، لأنه لا يمكن أن يطعن فيه .. وأن الإسلام هو الفكر الروحى القادر على أن يتعامل مع فكر مادى فى إطار من الإقناع بدون مجازفات عفوية .. أى يمكن لمفكر مؤمن ملتزم بالمناهج المعاصرة الوضعية الصارمة أن يكون أكثر علمية وحجية من مفكر مادى وضعى غير مؤمن قد يؤثر تعاطفه فى مواقعه الفكرية على نتائجه ، وبرهنت فى هذا الكتاب على أن ليس ثمة عقيدة شاملة وعقيدة لا اعتراض عليها ، وعقيدة عقلانية يمكن أن يؤمن بها إنسان مؤمن سوى الإسلام .

وأوضحت أن احترامى للعلم ، لا يعنى أن أعطيه الحق فى أن يفتى ويعطى مشروعية للدين ، لأن الدين أسمى من العلم ، ولا يمكن أن

ينزل إلى مستوى المضاربات المعملية والمخبرية لأنها مضاربات تتغير بتغير الأزمنة ، وبالتالى الصحيح وإن كان ولابد هو أن يفتى العلم صلاحيته باسم الدين ، لا أن يفتى فى صلاحية الدين باسم العلم ، بمعنى أن القضية معاكسة تماماً ، والدين له الحق فى أن يتدخل ليقول للعلم : أنت علم بناء ومنقذ وصالح للإنسانية ، وبذلك أعطيك الحق أن تجتاز القرون القادمة .. أو يقول الدين للعلم : أيها العلم أنت علم التدمير ، وعلم التلوث والخديعة واستغلال الشعوب ، لذلك فلتقف عند حدك ، ولن أعطيك جواز المرور للمستقبل .

ولى دراسة عن الاسلام بين أدعيائه ودعاته .. يطرح ما يدور حول هذه المفاهيم ، وفى الواقع أن من يقرأ كل مؤلفاتى سواء الثقافية أو الاجتماعية أو السيكولوجية ، أو حتى دراساتى عن الأنثروبولوجية الاجتماعية عن ظواهر السحر والتخاطر والتنويم .. أحاول أن أربط بين التحليل العلمى ومدى تعامله مع قدرة الإسلام العقلانية الدامغة .. ينبغى ما أمكن ألا نعزل الإسلام أبداً عن ساحة المواجهة الفكرية ، ولكن بأسلوب فيه نوع من البساطة والاستيعاب ، والإقناع ، بأكثر من أسلوب التشنج والمغالاة والانفعال .

من مؤلفاتى التى أعتز بها : معجم موسوعى عالمى فى مجلدين من أربعة أجزاء ثمانمائة صفحة بالفرنسية والإنجليزية والعربية صدر لى فى باريس منذ عامين عن دار النشر العالمية جتنر وهو عن السوسيولوجيا ، والسيكولوجيا ، والأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وقد استغرق إعداد هذا المعجم الموسوعى سنوات من عمرى ، وقد حاولت فيه أن أصحح إشكالية كبرى فى علم الإنسان ، فقد تناولت تخصصات أساسية فى علم الإنسان لتحديد أغواره وبيئته وتراثه ، وهى « السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا والسيكولوجيا » وهى المحاور الرئيسية التى يرتكز عليها الإنسان فى معرفته ..

وما نلاحظه الآن فى الساحة الفكرية العالمية مضاربة على المضامين ، ويصعب على مجموعة بحث أن تتفق مع أخرى على مضمون ، وكل يكيف وجهة نظره مع ما يبتغيه من وراء المضمون ، وبالتالى لو استمر هذا المسلسل فربما نصل فى النهاية إلى اهتزاز لمضامين علم الإنسان .. لذلك لابد من أن

تكون هناك أرضية مضامين واضحة ، وقد طرحت أرضية هذه المضامين على أساس أن أحدد كل مضمون من مضامين علم الإنسان فى بيئته التى نشأ فيها وتطور ، ثم أواجهه بالبيئة الإسلامية ، لأن لى هدفا مبدئياً من هذا المعجم ، وهو محاولة تحديد المضامين بالنسبة للمفكر العربى الإسلامى .. بمعنى أن أحدد المضمون عموما فى أرضيته ومعاناته وهمومه التاريخية ، ثم أحاول أن أواجهه بالمضمون المعادل له فى حضارتنا العربية الإسلامية ، ثم أحاول أن أقوم بعملية تخريج لمضمون مشترك يجمع بين أصالة الوجدان والانتماء لأرضيتى والتعامل مع مناهج وعطاء العصر أو الحضارة السائدة فى الكون الآن ، وهى حضارة أوروبا .. والمحاولة كما يبدو شاقة جدا ولكنى اجتزتها بحمد الله وفضله ، وأعتقد أننى من الزاوية الإسلامية خرجت بنتيجة وهى أن كثيراً من المضامين الأوروبية التى أفرزتها الحضارة الغربية وهى الخاصة بعلم الإنسان من الأفضل أن تظل دائماً فى مكانها ومن الصعب تصديرها ، لأنها جاءت نتيجة لهموم معينة من الصعب أن تعمم على بقية البشر ، فمن غير المتصور أن تفرض المضامين الأوروبية على الآخرين نفس الهموم ليصلوا إلى نفس الإفرازات ، وبالتالى تدخل إلى نفس المضامين .. فهذه عملية توليف حضارى ومسخ لا أساس لها ..

.. فمثلا بالنسبة للدين ، لو احتكمنا إلى معجم المضامين الغربية سنجد أن الدين فى مفهوم الأوروبى عبارة عن مضمون نشأ مع الأديرة ، ثم مر فى عصور وسيطة مظلمة ميتافيزيقية غاصت به فى ضباب التجريد واللاملموس ثم سقط على الأرض فى العصر الحديث .. لم يستطع أن يقاوم العقلانية الغربية ، واستغنى عنه الأوروبى بفلسفة الإنسان ، بمعنى أن الدين مجرد مرحلة تاريخية عبرت .. ووجه من ناحية بالعلمانية ومن ناحية أخرى بالقوميات ، أو بالفلسفة الوضعية بمدارسها المتعددة من : وجودية ، وماركسية ، وتطورية .. المدارس التى تبحث من خلال فلسفة الإنسان ، لا من خلال فلسفة تعاليم السماء ..

هذه هى تجربة الدين لدى الغرب .. وقالوا إن الدين من خلال النسق

الكنسى ظل ألف عام يفتى فى كل شىء ، وآن الأوان لأن يفتى عقل الإنسان .. وهذه هى مضامينهم ، لأن تلك كانت همومهم ..

فماذا عن مضامينا نحن تجاه الدين ؟

ولو أردنا أن نحدد نحن مضمون الدين نجد العكس تماما هو الصحيح .. فبينما كان الدين بالنسبة لهم خلال تسلط الكنيسة عبارة عن ألف عام من الظلمات ، فإنها تساوى بالنسبة لنا ألف عام من الأنوار ..

فكيف أعمى عيناى بمضامين الغير المخالفة المعاكسة ؟ ..

إن البعض وللأسف يقوم بعملية مسخ بطبع صورة طبق الأصل من فكر الغرب ، فبما أن الغرب تنكر للدين واعتبره مجرد وثيقة تاريخية ، ومرحلة من مراحل الزمن جاءت من التيار الليبرالى أو أيديولوجية استلابية تمارسها البنية الفوقية (الماركسية) ..

إن هذه قضيتهم ، وهذه همومهم التاريخية ، أما نحن فيشهد تاريخنا أننا حينما تنكرنا للدين ، عشنا فترات أصبحنا فيها شيعا وطوائف ، وبدأ بعضنا يضرب بعضا ، أما حينما كانت راية الدين مرتفعة كانت العلوم ، وكانت الفنون ، وكان العمران الإسلامى .. فكيف تتنكر لكل هذا ! ، ونحدد للدين دورا كما حدده الغرب .. هذا مضمون الدين لديهم ، وهذا مضمون الدين لدينا فكيف نعطى مضمونا مشتركا حضاريا .. كان هذا مقصدى فى معجمى الموسوعى فى علم الإنسان .. كان علىَّ أن أستبعد الخصائص السلبية ، وأرتكز على الخصائص الإيجابية ، وبما أننى أطرح المضمون من منطلق التعامل الإسلامى ، فإننى أعطى أولوية مطلقة للدين من خلال رؤيتى ، ومع ذلك فأنا لا أنكر أبداً أن لهم رأياً آخر يعنيهم ، ولكن ليس معنى ذلك أنهم يحتكرون ويفرضون ، ونحن لا نفرض من جانبنا كذلك .. ذلك لأن عظمة الإسلام أملت علينا مبدأ الحوار وقناعاته ، ومن ثم قبول الرأى الآخر .

* * *

(٣)

الدين والأيديولوجية الماركسية والعلمانية الغربية ..

فى طفولته وصباه ، وفتوته وشبابه .. كان الأزهر الشريف ومنابعه الإسلامية الصافية هى المنهل الذى نهل منه رشدى فكار ، وفى أوروبا أنفق ربع قرن من عمره فى دراسة أصول الماركسية والفلسفات الوضعية على اختلاف ألوانها ، وأخضع عقله لصرامة المنهج العلمى فى تجرد كامل إلا الرغبة فى إكتشاف الحقيقة .. فتوصل إلى عملقة الإسلام ، وقزمية كل أفكار البشر الوضعية .. رغم انبهاره بالحضارة الأوروبية العلمية التى وطئت تراب القمر ، ولمست الكواكب الشمسية ، وحينما أعلن إعجابه بحضارة الغرب العلمية ، راقب عن كثب محاولة الغرب أن يصدر للعالم مقولة : أن علومهم الاجتماعية والفلسفية ــ أى علوم الإنسان ــ قد تفوقت أيضاً كما تفوقت علومهم العلمية التجريبية ، وبذلك قاموا بتصدير مضامين قيمهم الاجتماعية والثقافية والفلسفية إلى العالم .. فتخبطت البشرية ورزحت فى شرانق هموم ليست همومها ، وقيم ليست قيمها .. وهنا كشف د. فكار هذا الالتباس الفكرى النازح من الغرب ، وتابعه بهدف تعرية هذا التغميض المبيت ..

● كيف تواجهت هذه التوليفة الفكرية المتناقضة : الدين .. الماركسية .. العلمانية فى راس د. فكار ، وكيف أعلى راية الاسلام فى الساحة الفكرية العالمية ، ولم ينجرف مع بحر غسيل العقول الذى أطاح بعقول ادارت مقاليد الفكر فى بلادنا ووجهتها بعيدا عن الاسلام فى فلك العلمانية الأوروبية ؟ ..

يقول د. رشدى فكار : كثيرون يتساءلون .. كيف تتعمق فى الماركسية ، ولا ترتد عن الدين ؟ ، وأقول : لو أن الارتداد تم على مستوانا ، وتمكن ماركس وما حوله من إطار فلسفى نشط من أن يقنعنا

بالتخلى عن الدين لما تراجعنا عن إعلان ذلك ، ولكننا اكتشفنا أن الارتداد تم عند ماركس نفسه ، وعلى لسانه ، فبعد الرفض عاد بالدين إلى الحوار .. وعليه فالأمانة العلمية تدفعنا بكل موضوعية إلى إعلان ارتداد ماركس ، وهذا ما دفعنا إلى وضع الدراسة المعروفة عن « الارتداد الماركسى » .. وعندما يتناول مفكر إسلامى عربى واع مثل د. فكار فكر كارل ماركس فهو يتناوله كشريحة خرجت إلى العالم بنظرية اجتماعية وسياسية خطيرة لها مسارات معينة منها الرفض للدين ، لا رفضاً فلسفياً ، ولكن رفضا سياسيا لدوره فى بنيات المجتمع .. حيث وصفه ماركس بأنه دور سلبى وقف إلى جانب المستغل ، وكما يضعه فى الصدارة بين الأيديولوجيات « الاستلابية » المشكلة للبنية الفوقية للمجتمع التى تمارسها طبقة معينة كمخدر تبريرى .. طارحا بهذا قضية موقف الماركسية الأولى من الدين .. وهو الشيء الذى طبقته بحذافيره تلك الدول التى تمركست .. فروسيا الاستالينية طاردت الرهبان والقساوسة ، وهدمت الكنائس ، وأباح ستالين النقيض الآخر من الدين ، وهو الإلحاد فى التدريس .. وخلال الحرب الألمانية الروسية واجه ستالين مشكلة مصيرية غاية فى الأهمية ، وهى : أى جزاء للروسى الذى يقتل فى الحرب إذا كان لا حساب ، ولا ثواب ، ولا عقاب ؟ وأى ثواب لروسى يتأجر بروسيته ؟ ومن يدافع عن ماذا ، وعن من ؟ .

.. وإزاء هذا التخاذل الخطير تراجع ستالين فرفع الاضطهاد عن رجال الدين ، وأغلق المعركة مع الدين . وردد العبارة التى تقول : إن مسألة الدين غير مطروحة فى الأيديولوجية الماركسية .. وبرغم ذلك فإن الماركسية المعاصرة مازالت ترفض الدين ، وذلك برغم ارتداد كارل ماركس عن الإلحاد .. وهنا تكمن خطورة ما يطرحه د. فكار فى الساحة الفكرية العربية ، ويكمن فى أن ارتداد ماركس يهدم البنيان الوهمى المسمى بالماركسية ، ويخلص إلى حقيقة أساسية ، وهى أن الفكر العربى لكى يكون فى خدمة الإنسان العربى يجب أن يعيد ما لديه على مستويات ثلاثة :

المستوى الأول : مدى معرفته بأصالة تراثه ، وعطائه الإسلامى ، ولا يكتفى بتكرار رؤوس الموضوعات .

والمستوى الثـانى : البعد عن المجازفة بالشعارات المذهبية التى هى مجرد أنماط للزينة ، وتعبئة كلامية .

والمستوى الثالث : معرفة الواقع العربى المعاصر كما هو أولا — لا كما يجب أن يكون ، هكذا يعبر د. فكار عن فكره فى كتابه : الماركسية والدين ..

وعندما يتحدث د. فكار عن أزمة الحضارة .. يرى أن هذه الحضـارة حضارة الأشياء ، الإنسان فيها حيوان تجارب للحضارات كما فى المجـلد الخامس من نظرية « السـان سـيمونية والمراهنة الصـناعية » . والذى يحمل عنوان : « الصناعة وأزمة الحضارة » .

ولكن ما هو البديل حتى لا يظل إنسان كوكب الأرض حيوان تجارب للحضارات ؟ .

إن البديل كما يتصوره د. فكار يستمد مقومات حيـاته من الدين ، من تعاليم السماء بل ويذهب إلى أبعد من هذا ، إذ يرى أن الإنسان العـربى بعد حرب رمضان (١٩٧٣) أمامه فرصة تاريخية لكى يكون له نصيب فى وراثة الحضارة ، ويؤكد هذا بعض علماء العالم الذين التقى بهم د. فكار وتحدثوا إليه عن معركة نصر رمضان التى يرى هو فيها أنها معجزة حضارية بعد بناء الأهرامات لأن الإنسان المصرى والعربى غير المتقدم فى كل شىء قد تفوق على نفسه وهزم أعظم قوة عسكرية منتمية لحضارة أوروبا ..

كما أن الإنسان العربى حقق المعجزة وليس السـلاح . كمـا يرى أن الإنسان الغربى إنسان استهلاكى تسيره المصـانع . وما تنتجه من مـواد كمالية ، فى حين أن الإنسان العربى عصير حضارى متدفق بصفة دائمة ونتاج أمة هى مزيج من المادة والروح ..

وعندما يتساءل ما هو موقف الأمة العربية والاسلامية من تركة الحضارة ، يجيب بأن هذه الأمة يجب أن تشكل قوة كبرى ضاربة تؤهلها للمساهمة فى وراثة الحضارة ، وهى مطالبة بتجاوز تناقضاتها النوعيـة ، وصراعاتهـا ، وذلك بمجاوزة القوالب السياسية والانطلاق من زاوية واحدة ، هى راية الله ...

وهو عندما يصل إلى هذه النقطة يتساءل : ولم لا ؟ ؟ ألسنا خير أمـة أخرجت للنـاس ؟ .. وشراعه الفـكرى الذى يتحـدى به وسط أنواء الأيديولوجيات هو أول كتاب تفتحت عيناه عليه وهو القـرآن الكريم ، وهو الزاد الوحيد الباقى الأصيل الخالد أبدا .

والعلمانية الغربية التى تعشش فى رؤوس قمم فكرية فى عالمنا العـربى والإسلامى .. ما هى ؟ وكيف نواجهها ؟ .

يقول د. فكار : إن العلمانية لو طرحناها بموضوعية نجد أنها جاءت من الغرب كردود أفعال لما حدث هناك .. ومن هذه الزاوية كانت معطاءة ، ولا يمكن أن ينكر أحد أنها كانت معطاءة بالنسـبة للمجتمعات الغربية ، وما صاحبها ، لأنه من الصعب التمييز ووضع فوارق بين العلمانية وحـركات القومية الأوروبية الحديثة ، فهناك مسلسل تاريخى واع تم فى الغرب ، ونتائجه ما نراه الآن من تقدم علمى ، ومن تطبيقات صناعية وتكنولوجية ، وهـذا ما يؤكد أن النتيجة كانت إلى حد ما إيجابية ..

أما أن تأتى إلى القول بأن هـذه العلمانية التى وصلت وحققت هـذه النتائج فى الغرب وأسبغت عليه ثوبا براقا ، وبذلك علينا أن نرتديه هنا . نقول : لا .. كل يفصل ثوبه وفقا لمقاسه ، وهنا تأتى المشـكلة وهى : هل المجتمعات الإسلامية فى حاجة فعلا إلى تصحيح علمانى ، أم أن العلمانيـة بمعنى الوعى بحقيقة المجتمع الدنيوى لازمت الأمة الإسلامية منذ الخطوات الأولى ؟

فى راى د. فكـار : أن العلمانية التى نبحث عنها فى القرن العشرين هى أساسا مصاحبة لتطور المجتمع الإسلامى منذ البداية ..

إن الإسلام لم يَخْلُق لنا مجتمعاً مزدوجاً .. لم يخلق لنا مدنية فى السماء ومدنية فى الأرض ، مدنية الله ، ومدنية الإنسان ، وإنما خلق لنـا مجتمعاً دنيوياً .. هذا المجتمع الدنيوى ما هو إلا طريق إلى مجتمع أخروى ، وأن المجتمع الدنيوى مرتبط بالمجتمع الأخروى ، فهـذا الربط العضـوى بين

العلمانى ، أى حصر الدين وحصاره عن السيادة على الأمور الدينية ، وبين الأخروى ، وبين ما هو مجرد ، وما هو غيبى ، جعل الحضور الدنيوى فى الإسلام من أول دعواته ، فهو ليس بجديد عليه ، فلا أعتقد أننا فى حاجة إلى علمانية ، بينما أن المجتمع الإسلامى لم يترك أى أمر من أمور الدنيا ، ولم يعط للدين أى إطار احتكارى ، بل جعل كل مسلم مسئول عن وزره وكل مسلم له ما كسب وعليه ما اكتسب .

فهناك تحول للمسئولية ، ومبدأ إدانة دائم ، ولا يمكن أن يلقى به خارج إطار المجتمع ، ثم يلغى لكى يتحرك المجتمع ، فهو موجود فى المجتمع ..

.. من هذه الزاوية أعتقد أن قضية العلمانية بالمفهوم الغربى غير مطروحة بالمرة فى المجتمع الإسلامى .. إن المجتمع الإسلامى ليس فى حاجة إلى تلقى الدروس من الآخرين ، خصوصا وأنه له باع طويل فى هذا الموضوع .

● **وعن موقف الانسان المسلم المعاصر من الحاضر والمستقبل يقول د. فكار :** الإنسان فى الثمانينات من القرن العشرين لم يعد يكتفى الآن بأن ينظر إلى الأرض التى يتحرك فوقها ، ولم يعد يكتفى بأن يتطلع إلى السماء والفضاء تطلع المتسائل ، وإنما بدأ فعلا يتحرك فى الفضاء محاولا أن يفهم ما يحيط به ، وأن يكتشف ولو نسبيا سر هذا الكون ..

تساؤلات لم تطرح على ابن القرن التاسع عشر ، أو ما مضى من القرون ، فمن المعروف أن هذا الكون بعد فترة النبوة الخالدة ، وهى التى حاولت أن تعطى انطلاقاً من حوار مع السماء بمفاهيم عامة وأصيلة تعطى لهذا الإنسان طمأنينة وشعوراً بأنه ليس باليتيم فى هذا الكون وأن هناك قوة رحيمة ، قوة عطوفة ، قوة رحمانة تحاول دائماً أن ترعاه ، وبالتالى لم يعد الإنسان خصوصاً الإنسان المؤمن يهاب الكون ، لأنه يعلم أن هذا الكون رغم ما فيه من خضم ، ورغم هذا الجبروت الهائل ، فهناك الإله الذى يقبض على هذا الكون ، ويضمن مسيرة التعادل والعدل فيه ..

انتهت فترة النبوة ، والفلاسفة بدورهم طرحوا تساؤلات ما هى إلا امتداد لما حول وحى النبوة ، وهى اقتناعات كبرى ضمنت لهذا الإنسان

تعادلا نفسيا حتى فترة قريبة ، حتى عصرنا هذا نجد أن التعادل بغض النظر عن كل الأخطار والمواقف الأخرى ، التعادل النفسى مرجعه الحق فى النهاية أن الإنسان مهما كانت إرادته ، ومهما كانت عزيمته ومواجهته . هناك قوة واعية وكاملة وقادرة هى التى تحرك هذا الكون ..

جاء عصر الفضاء ، وبدأ الإنسان يتجاوز فضول التطلع والتأمل ، ولم يعد يكتفى . وإنما يقول : ولماذا ، وماذا وراء هذا الفضاء ، وما هى القدرات الكامنة والخفية التى تحرك هـذا الكون ؟؟ .. إنه الاستكشاف والفضول والتعرف على ما يمكن أن نسميه بالثقوب المظلمة فى المعرفة الغيبيـة ، أو ما يطلق عليه : نظرية الجهالة .. لم يعد الإنسان يقف عند هذا الحد ، وإنما لابد أن يرى ويعايش ويلمس كل ما يحيط به .. وبالتالى بدأت تجربة العلم تدخل إلى الميدان .. وهنا جاء تساؤل كبير : هـل ذلك لكى يكمل ما جاء به الوحى بالنسبة للرسل والأنبياء ، وما تفلسف حوله وتمنطق الحكماء ، أم أنه يشق طريقا آخر يختلف تماما ؟؟ .

طريقاً بديلا معترضا ومتجرداً على كل ما قدم فى تاريخ البشرية ؟؟

تساؤلات تطرح الآن فى القرن العشرين ، ونحن نعيش فى مخاضـات واختيارات ، بل ربما مجازفات قد تقوده فى النهاية إلى إشراق وإلى ثقـة كاملة فى عطاء الإنسان ، ولكن فى حضور الله ورعايته ، وربما كما يتخوف البعض قد تقـود المجازفة إلى خطأ فى الحسـابات يؤدى إلى كارثة لهـذا الكون .. بمعنى شهية الفكر ، وشهية التجريب ، وشهية المضاربة الهائلة على مسيرة الكون .. بدأت تأخذ مكانة الصدارة لدى فريق من الباحثين فى إطار العلم ..

وفى تصور د. فكار أن وحى الأنبياء ، وحكمة الفلاسفة وتجارب العلماء كلٌ متكامل ، وإنما الوسائل مختلفة ، فإذا كانت وسيلة النبى والرسول الخالدة هى الشفافية والتسامى والتعالى عن البحث فى الجزئيات ، وطـرح حلول شمولية عن طريق الوحى للكون لإنقاذ خلق الله وتوجيههم إلى الطريق السليم المستقيم ، حتى لا يكونوا من الضالين ، فإن الفيلسوف بحكمتـه

حاول أن يتكامل ، خصوصاً فى نطاق الفلسفة الخلاقة والأصيلة بتأملات فى هذا الكون ليؤكد من ناحية ، أن الإنسان لا يتسامى بفضله ولا بتحديه ، وإنما يتسامى بترفعه ، وبقدر ما يترفع الإنسان ، ويتخلى عن حيوانيته ، ويعطى لإطاره المشاعرى أولوية على إطاره الغرائزى ، ويسمو بمصالحه لكى تستأنس ، وتتحول إلى مبادىء أخلاقية كبرى ، ولكى تندمج فى معنويات تجعل كل إنسان حريص على الإنسان الآخر ، يعتبر هذا كله ترجمة بطريقة الفيلسوف لمسيرة النبى فى مرحلة تالية أو موازية أو سابقة ..

والعلم بدوره .. العلم المعطاء لاستمرار مسيرة الإنسان — المفروض أن يتكامل مع رسالة النبى وحكمة الفيلسوف — فلا يحاول أن يدمر البشرية باسم إصلاحها ، وحمايتها .. تحميها من مَنْ .. أمِنْ ذاتها ؟ !

هنا المشكلة .. إننا نجد أن العلم قسمان : علم يحاول التخفيف من آلام الإنسان لا بطريقة الفيلسوف وإنما بطريقة التجريب كالعلوم الطبية والمفيدة للإنسان ، ونجد أن هناك فريقا آخر من العلماء ، لا نقول : الضالين ولكن المخطئين : يستغل باسم الفضول العلمى وباسم القدرات العملاقة فى الفكر الإنسانى هذه الناحية ليضارب على الجانب المدمر فى العلم ، وهذا ما أكده اللقاء الدولى لمجموعة الحاصلين على جوائز « نوبل » بباريس أخيراً والاعتقاد السائد أن فى هذا إعادة صياغة فى مسيرة الكون .. وغاب عن هؤلاء أن القوانين العلمية فى الطبيعة أكثر انضباطا مما يتصورون ، لقد أكدت الكثير من التجارب التى تجرى أن قوانين الطبيعة رغم بساطتها فى منتهى الدقة ..

مثال على ذلك .. ما نراه الآن فى حركة عمران فى العالم .. العالم يتحرك الآن .. عمران .. عمران .. عمران . وإذا الطبيعة تقول لهم : تلوث :. تلوث .. تلوث !

العالم يقول : استشفاء ومداواة للجسد ، والعلم باسم التجارة الصيدلية لا باسم العلم الصيدلى يقول : أدوية .. أدوية .. أدوية .. لكل مرض مئات الأدوية ، والطبيعة تقول لهم : سموم .. سموم .. سموم :

ناتى لقانون آخر : الطبيعة بكل قوانينها الحكيمة الرحيمة البسـيطة التى ترتبط بقانون الله الأمثل تقول : أيها الإنسان كن واضحا فى قيمك .. كن واضحا فى مبادئك الأخلاقية .. لا تحاول أن تزايد كثيراً .. خفف من النفـاق والغش والزيف .. فإذا به يقـول : التكتيـك والاسـتراتيجية ، ويبتكر تعريفات وتعبيرات لكى يخرج على القوانين الطبيعة الخالدة التى صنعها الخالق جل جلاله ، وإذا به يكتشف أنه هو راح ضحية لغشه ومكره ودهائه ! .

* * *

(٤)

أزمة الحضارة الغربية ..
القرن العشرون قرن بلا قلب

● **د. رشدى فكار اللصيق والمتابع بكليته لما يجرى على الساحة الفكرية الأوروبية .. هل يحدد لنا ما يشغل الغرب اليوم فكريا ؟**

أمور كثيرة تشغل الغرب الآن .. هناك مثلا أزمة الفكر المادى .. وهى تلاحظ بوضوح فى الفترة الأخيرة .. لا أقول ذلك طعنا أو قدحا فى أصالة هذا الفكر .. إن كل فكر فى تصورى يعبر عن اتجاه إنسانى معين ، لكن ذلك لا يمنعنى من القول بأن الفكر المادى يعانى أزمته الحقيقية الآن كمحصلة لتعدد التيارات داخله ، وسقوط الموقف الآحادى ، وأعنى بالموقف الآحادى الموقف الواحد الذى إذا طرح قال الجميع : آمين ..

إن هناك الآن تعددا واختيارات فى إطار الفكر المادى والوضعى بصفة عامة .. كذلك فإن أزمة الفيلسوف « التو سير » تلقى بظلالها على الفكر المادى .. إن التو سير يعتبر فيلسوفاً رائداً من فلاسفة الفكر المادى الماركسى فى الغرب كما يعتبر أيديولوجيا من كبار المنظرين ، وهو بالإضافة إلى ذلك صاحب مؤلفات فى التراث الماركسى دفاعا عن ماركس ، ومادية التاريخ .. هذا الفيلسوف المادى قتل زوجته خنقاً ، مما أثار علامات استفهام كثيرة وكبيرة ..

وتفسير ذلك فى تصورى يتلخص فيما يلى :

إن المفكر ــ عندما تعلو به السن ، ويصل إلى قمة التجريب والاستيعاب كثيراً ما يجد ويدرك أن التساؤلات التى طرحها فى شبابه بشىء من المجازفة والجرأة والجبروت قد بقيت بلا إجابة !

إن افتقار هذه الإجابات تضع المفكر أمام باب مسدود !

هنا يتعرض المفكر لتأزم نفسى شديد قد يدفعه إلى الجريمة !

وهنا أيضاً ، وفى مثل هذه الحالة يختلف موقف ومصير المفكر المــادى عن موقف ومصير المفكر الروحى ..

إن المفكر المادى يواجه مصــيره بذاته مما يقوده كما قلت إلى التأزم النفسى .

أما المفكر الروحى الذى يقترب من الأفول والغروب فلا يدفعه افتقار الإجابة على تساؤلات طرحها من قبل إلى أية أزمات نفسية ، ذلك أن قناعاته الروحية التى تربط مصير هذه الدنيا بمصير أسمى وأخلد تخلق داخله تعادلا ضمنياً .. إن المواجهة لديه غير مطروحة ..

هناك مجهود بذل ، هناك اجتهاد فكرى تم .. هناك محاولات أجريت قد تكون صائبة وقد تكون خاطئة ، ولكن ليست هى البداية أو النهاية !

وفى الغرب الآن ثمة اهتمامات واضحة بالدراسات الإنسانية ، وبطرح القلق الســائد فى المجتمع البشرى ، وبطرح ما يســمى بأزمة ضمير القرن العشرين . إنهم يســمون القــرن العشرين فى أوروبا قــرنا بلا قلب ، قرنا بلا عاطفــة ، قرنا بلا انتمــاء ، ذلك أن من الصعب أن تكــون الصــناعة والتكنولوجيا انتماءات !

إن ثمة اتفاقا فى الغرب الأوروبى على أن أحــدا لا ينكر ما للحضــارة والتقدم والتكنولوجيا والصناعة من قدرة على الخلق والإبداع . ولكــن التساؤل الكبير الذى يطرح على الساحة الأوروبية الآن هو : أين الإنسان من هذا كله ؟ .. إن كل ذلك يتم على حســاب الإنســان ! الإنســان هو الضائع .. الإنسان هو الغائب .. العلم يتقدم .. التكنولوجيا تتقدم ، كل شىء ينطلق ويقلع ، والإنسان يدفع الثمن ، ويعيش فى الموجة الحــائرة ، أين الإنسان مما أبدع ومما اخترع ومما ابتكر !

لقد تأثرت بتلك التيارات الفكرية الدراسات الإنسانية فى أوروبا فبدأت الفلسفة تخفف من حدة التطلعــات التأملية ، والإشراق التجريدى لتنزل إلى

مستوى الممارسة والاحتراف ووجدت الفلسفة البراكسية أو النشيطة ، أى الفلســفة التى تحاول أن ترتبط بالملموس أو الواقع ، وأصبحت الإطــارات الفلسفية المعاصرة محصلة طبيعية لاستمرار الغثيــان والعبث والإنســان ذى البعد الواحد وكل الإطارات الفلسفية المعاصرة من سارتر إلى كامى إلى ماركوس تعبر عن الإنسان والطريق المسدود ..

لكن الماركسية فلسفة أوروبية أيضا فهــل وصلت إلى نفس الطــريق المسدود أم ظلت على بريقها القديم ؟

احب ان افرق ــ يقول د. فكار ــ بين الماركسية الفكرانية والماركســية النظومية ..

هناك ماركســية تحــاول ان تتبلور حــول الفكر ، وأخرى تتبلور حــول النظام .. الماركسية كنظام تهم الســياسيين لأنها تدخــل فى أطــار التكتيك والاستراتيجية ، والأخذ والعطاء .. اما الماركسية كفلسفة ، كمجرد اطار فكرى يحاول أن يطرح الحل الأمثل فتعانى الآن بالفعل أزمة شروح باعتراف الماركسيين أنفسهم ! ..

جارودى مثلا يرى أن الحل الوحيــد للأزمة هو تجــاوز الأزمة بطرح الحوار مع الفكر الميتافيزيقى والروحى .. لقد مد جارودى يده للكنيســة ليحاول أن يرى فقط الوفاق بين الماركسية والكنيســة ، ولم تأت التجــربة بنتيجة فى الغرب !

كذلك فإن تخلى الأحزاب الشيوعية فى إيطاليا وأسبانيا عن أساسيات الماركسية كديكتاتورية البروليتاريا والصراع الطبقى يوضــح أن هنــاك أزمة شروح تعانى منها الماركسية كفلسفة أو إطار فكرى .. إن هناك اتجاها قوياً إلى تعــدد الماركســية بدلا من آحادية الفكر الماركسى كما كان أيام ستالين .. إن مما يعمق مفهوم الأزمة التى تعانى منها الماركسية الآن كفكر أن التكنولوجيا والتصنيع ومتطلبــات الحيــاة اليوميــة على المســتوى الاســتهلاكى والتضــخم الكونى وأزمة الطــاقة كل ذلك حــول الموقف الأيديولوجى من موقف إنطلاقى إلى موقف تبريرى !

كان الأيديولوجى فى الماضى يشرع ويفكر ويقلع بتفكيره ، وعلى ضوء

ذلك الفكر كان المجتمع يحدد مسيرته ــ أما الآن فإن المجتمع هو الذى يتخذ قراره بنفسه ثم دور الأيديولوجى ليبرر هذا القرار .

إن المجتمعات الصناعية تعانى فعلا ، وليس من الخطأ أن نجسد الأزمة فى الفكر ، ولنعترف بأنها تمثل حضارة غربية ، بأنها حضارة علم ، هى حضارة تكنولوجية ، حضارة الأشياء .

وسائل تطبيق التقنيات فى الصناعة تعتمد على توزيع العمل وتقسيمه ، وعطاء الإنسان الغربى ما هو إلا انعكاس للبناء الفكرى المتمثل فى نظريات القرن التاسع عشر ، وهو بذلك لا يفعل سوى أنه يجتر ذاته ، والاندفاعة الهائلة لحضارة اليوم الغربية .. حضارة التكنولوجيا التى تقدم الأشياء على حساب الإنسان ، إنما تأخذ مجراها على حساب ثالوث القيم وهى القيم المعنوية الأثيكية السامية ، ثم القيم الطبائعية السلوكية ، أى أن الإنســان فى إطار أصالته لديه المعالم الروحية وهى كانت إطار أصالة خلال قرون طويلة من تاريخ الإنسانية ، وضمنت للإنســان تعادلا وتوازنا بشــكل ما بين غرائزه وعواطفه ومصالحه ، ثم مع التحفظ على هذا الإطار القيمى الروحى الذى كثيراً ما اعتمدت عليه القيم المعنوية فى حد ذاتها ، أى قيم تأصيل إنسانية الإنسان ، القيــم المعنوية : المثل . الشرف . الكرامة . العزة . الأصــالة . النخوة . الفروسية ، وبدورها انعكست فى الإطار الثالث للقيم ، وهى القيم الطبائعية السلوكية ، بمعنى المعاملة اليومية ..

فغيبة هذا الثالوث إلى حد ما انعكس على تفريغ الإنسان من محتــواه المميز لينزل به إلى مجرد آلة تبحث عن الإشباع والرفاهية والرخاء المتحكم ، فيما يسمى حالياً ، وبتعبير اليوم : المجتمعات الاستهلاكية . أى مجتمعــات الإشباع للحاجيات الإنسانية ، وهذا بدوره انعكس على البنيات الأسرية ، ولم يعد هناك معيار يحتكم إليه فى العلاقة بين تبادل الإشبــاع والمصــلحة وأصبح الإنسان تقاس قيمته بما يمتلك من وسائل الإشباع ، لا بما يملك من مبادىء وقيم .. وهذا نوع معين من الإندفاع الحضارى الذى تم فى غيبة الإنسان ، مع أن منطلق الإندفاع فى القرن التاسع عشر لما نراه اليوم مع جذوره السابقة المهيأة من مطلع العصر الحديث كان يهــدف إلى الإنســان ، بل

بالعكس ، من المعروف أن فلسفة الإنسان حينما طرحت فى العصر الحديث حاولت أن تنطلق مما يمكن أن نسميه بفلسفة الأرض فى مواجهة حوار السماء ، ولكن « تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن » .

الذى حدث أن هذا الإنسان الذى أعلن فى نهاية العصور الوسيطة أن مسيرته التجريدية عبر التأمل فى السماء قادته إلى اليأس ، هكذا اعتقد ، فإذا به حينما فلسف الأرض قاده هذا إلى التدمير — « جاء يكحلها عماها » — بدلا من أن يعطى بصيصا من النور أعطى الظلمات .

إننى أرى أن الفلسفة المعاصرة من وجودية إلى تطورية إلى ماركسية إلى بنيوية وظيفية تحاول أن تطرح الإنسان من خلال الإنسان ، إلا أن النتائج التى أعطتها مجتمعات القرن العشرين لا تجسد فقط أزمة هذا الإنسان الباحث عن ذاتيته ، وإنما يشعر فى كل سيره وفى كل مراحله أنه أمام بعد واحد ، ولا أفول طريق مسدود ، ولعل « هيدجرت » رائد فلاسفة القرن الـ ٢٠ الذى مات منذ سنوات قريبة خير من جسد هذا الطريق المسدود فى نظريته التى تحمل عنوان الطريق الذى لا يؤدى إلى أى مكان ، ولقد كان « هيدجرت » نزيها وصارما فى نفس الوقت فى تحديده لغاية الطريق ..

* * *

حضارة الغرب وحضارة الأمم الفتية :

إن الدول المتقدمة متقدمة فقط فى الوسائل ، بينما جوهر التقدم هو عطاء الطبيعة ، وعطاء الإنسان ، والدول الفتية تتميز بهذين العطائين .. ففيها موادها الأولية ، وكثافتها الديمجرافية « السكانية » وشبابها .. نعم لديها طبيعة معطاءة ، وإنسان يتحمل المشاق ، ويتطلع إلى مدارج الطموح ، وأبناء الدول الفتية أكثر قدرة من أبناء الدول المتقدمة لامتصاص التكنولوجيا ، وأكثر قدرة وصبراً على ممارسة البحث العلمى لأنهم يشعرون بالنقص ، وبالتالى يصرون على التفوق ، وإثبات الذات ، إن الأب المصرى حينما تسأله عن آماله بالنسبة لأولاده تجده يتمنى لهم أن يكون كل منهم دكتوراً أو مستشاراً أو مهندساً أو وزيراً ..

المجتمعات الفتية لديها جوهر التقدم ، بينما المجتمعات المتقدمة تحيا على حساب الآخرين ، على حساب الدول المتخلفة ، وتستلب من شعوبها عطاء الطبيعة وعطاء الإنسان على حد سواء ، تستولى على العقول المهاجرة ، والأيدى الماهرة ، تأخذ منها المحتوى وتصدر إليها الحاجة والضرورة والعرى ، تأخذ المادة الأولية باسم التصنيع وتصدرها لها ليدفع المستهلك .. عملية فى غاية الدهاء ، وكما يقول المثل : « رمتنى بدائها وانسلت » لماذا لا نقوم نحن بذلك ؟ لأن من يملك وسائل التقدم يمتلك الحيلة ، أو المنهج ، يمتلك التنسيق بين عطاء العقل والأرض .. هذا هو دأب الدول المتقدمة التى تمثلها الحضارة الغربية ، وأنا لا أعزل بين النظام الليبرالى والماركسى ، كلاهما غرب متسلط ، إن « ماكس فيبر » فيلسوف الليبرالية ، وكارل ماركس مؤسس الماركسية كلاهما خرج من تحت عباءة ألمانية واحدة ، وهما يمثلان حضارة غربية واحدة ..

أما الرجل الثالث المجهول فهو الصينى ، ومن الصعب على أى عالم مستقبلى النزعة أن يغفل عما ستئول إليه قوى الدول الفتية ومن بينها الصين ، وإننى أعتقد أن الأمتين المرشحتين لصنع حضارة القرن الـ ٢١ ، وهما قوى الغد : هما الصين والأمة الإسلامية . والقوى الكبرى تدرك ذلك ، وتعمل على استنزاف هذه القوى الفتية بكل سبيل ..

وأمتنا بإمكانها أن تتبوأ مكان الصدارة فى القرن الـ ٢١ إذا استطاعت أن تتجاوز متناقضاتها ، وتحتفظ بأكبر قدر ممكن من عطاء الطبيعة ، وهى تناقضات تعتمل داخل جسد فائر ، وإذا وضعت فى حسابها أن اشكاليات اليوم عبور إلى الغد ، وأنها مستهدفة من القوى الكبرى بهذه الإشكالات لكى تتوعك بمكنها أن تدرك الحقائق وتعبر .. إننى أدعو إلى الاحتفاظ بالقوى ، وتجاوز المتناقضات لتدخل الأمة العربية إلى القرن الواحد والعشرين ، وتحتل مع الصين مكان الصدارة .

ومن الإشكالات المفروضة على الإنسان العربى بهدف أن يتوعك عقليا وفكرياً ومادياً ، ولا يفكر فى غده ، الإشكال الإسرائيلى ، الذى يهدف إلى

أن ييأس الإنسان العربى من قدرته الذاتية ويهدف إلى إعاقة عبقريتـه .. يكفى أن تطرح قضية ثلاثة ملايين إسرائيلى أمام ١٢٠ مليون عربى ليصدم العقل العربى برغم أن الحقيقـة تقـول بأن الـ ٣ ملايين هؤلاء من ورائهم يقف الكون بأسره بشقيه الماركسى والليبرالى ، وكان من المفروض أن تواجه هذه الإشكالة بوعى وفراسة وقدرة على إعطائها الحيز الموضوعى ، وفى تصورى أن الأمة العربية ، أمة معاناة ــ تاريخها كله يشهد بذلك من خلال غزوات صليبية ، ومغولية .. الخ . وبالتالى فهى محصلة لهذا النوع من الإشكالات المفروضة ، وأنا مطمئن إلى أن الأمة ستتجاوزها ولكن شريطة أن لا تتم عملية تعويم داخل الرؤية العربية ، وإننى لا أخشى عليها من خارجها ، ولكن من ذات الإنسان العربى .. عليه أن يحدد رؤيته قبل أن يتعامل مع الآخرين ، بل ومع نفسه ، نعم هناك صراعات عربية متعددة ، ولكن الواجب يقتضى تجاوزها ..

* * *

(٥)

الاسلام .. ودورة الحضارة العالمية

● كيف تجاوز الاسلام اطار الدورة الاجتماعية السلالية القبلية ، ودخل فى آن واحد نطاق الدورة الثقافية بتراث الاسلام الخالد المتمثل فى القرآن العظيم ، والسيرة النبوية الخالدة ، والدورة الحضارية بعد اعتناق شعوب الأرض لتراث الاسلام الذى لم يعد حكرا على الجزيرة العربية ، بل أصبح السراج الذى يهدى البشرية بأسرها ؟

الإجابة يقدمها د. فكار خلال حديثه إلى أطباء مصر فى دار الحكمة حيث مقر نقابتهم المهنية فى يونيو ١٩٨٥ ..

الإسلام أحدث تطوراً جذرياً عميقا فى حياة عرب شبه الجزيرة العربية .. فإلى جانب العطاء الإلهى الخالد جسد بداية الدورة الثقافية .. بمعنى أن مجموعة العشائر والقبائل التى كانت تتعامل لتدافع عن معقل القبيلة والعشيرة — تجاوزت هذا الانتماء ، والالتزام إلى التزام أسمى مجسدا فى مثل عليا وقيم .. وبذلك أصبح للعرب دورة ثقافية .. ولا يمكن لدارس فى فلسفة التاريخ أن يتصور دورة ثقافية لهم فى غيبة الإسلام .. وهذه الدورة الثقافية للعرب ، أصبحت دورة حضارية ذات إشعاع ثقافى ، وأصبحت ثقافة سائدة ، بعد أن تجاوزت معقلها الأساسى وتبنتها شعوب أخرى خارج حدود أرض العرب ، ومفهوم الثقافة إذا ما اتسع ليصبح مستأنسا لخدمة المثل العليا والقيم الخالدة ، والعقيدة السامية ففى هذه الحالة كما هو بالنسبة للإسلام تصبح دورة حضارية ذات إنتماء مزدوج .. جانب روحى .. وجانب مادى ..

ويمكن أن نقول إن حروب الردة جسدت بالنسبة للعرب وللمسلمين موقف الاختيار .

إما الارتداد بالدورة الثقافيــة لتتفتت من جــديد فى شــكل دورات سلالية ، وإما أن تندفع فى شكل دورة حضارية .. وهكذا لا يمكن لدورة أن تتجاوز مرحلة إلى أخرى إلا عبر المنحنى أو المنعرج ومن خلال الأزمة إما أن تندفع أو تتراجع ..

بفضل الله تعالى حروب الردة انبثق منها الدفع إلى الدورة الحضارية ، وكان امتداد الإسلام عبر مختلف القارات .. والإسلام هو الذى مد الأرض ومد اللغة ومد التاريخ .. هذه الامتدادات الثلاثة تمت بفضل الإســلام ..

الدورة الحضارية الإسلامية غطت مساحة عريضة سكانيا ، وطويلة زمانيا لأنها غطت ما يقرب من ألف عام كحضارة سائدة .. حضارة تسامت بالإنسان .. لم تندحر بالإنسان ، وإنما تسامت به ، وغزت بكل فعاليــة وانطلاق كل امتدادات الحضارات الإنسانية ..

وكانت ثمة دورات حضارية قبل الإســلام لا يمكن إنكارها .. كانت هناك الحضارة الإغريقية واللاتينية ، أو حضارة العقلنة والمنطق ، وكانت هناك الحضارة الفارسية ، وسادت الحضارة العربية الإسلامية وأعقبتهــا الحضارة الغربية ، التى لا يمكن أن تؤخذ على أنها طفرة إعجازية نابعة من ابتكار وإعجاز ، فهى نتاج مسار يبدو طويلا لتاريخ الإنسانية أسهمت فى إقلاعها الحضارة الشرقية القديمة والحضارة الإغريقية اللاتينية ثم الحضارة العربية الإسلامية ..

والسؤال الذى يطرح الآن لدى المتخصصين هو : لو أن الحضارة العربيــة الاسلامية لم يكن لها وجود ، هل يكون هناك هــذه الحضــارة الغربيــة التى نعيشها الآن ؟ ..

لحسن الحظ .. الإجابة التى يتفق عليها الجميع باستثناء الرؤوس المنفعلة والمتطرفة والمتعصبة ذات العصــبية الفكرية أنه لولا الحضــارة العربيــة الإسلامية .. ما كانت الحضارة الغربية المعاصرة ، فهى التى استطاعت عن طريق هذا التكامل الرائع والقناعات الفكرية المتعادلة أن تعطى كل ذى حق حقه ، بينما يلاحظ أن الحضارة الإغريقية واللاتينية ، إن كانت قد أنارت فى إطار فقد أظلمت وعتمت فى إطار آخر ، وبالتالى ، فإن المأخذ الذى يؤخذ

على الأرضية الإغريقية اللاتينية للغرب أن هذه الأرضية مرت بممر مظلم ، وهو العصور وسيطة القرون .. حيث كان من الصعب على إنسان أن يفكر .. مجرد أن يمارس التفكير ، كان محرما عليه ، وإذا كان لا مفر من ذلك عليه أن يبحث له عن وسيط ليفكر له ، ونعنى بذلك النسق الكنسى الغربى ، بمعنى السيطرة الكاملة للفكر التجهيزى .. صودر الإنسان وعتم عقله حتى أتى القديس توماس الأكوينى — وهو يعتبر أول مبشر بالحضارة الغربية عند نهاية العصور الوسطى ومنطلق العصر الحديث .

وتأثر الحضارة الغربية الأوروبية بالحضارة العربية الإسلامية شىء مشهود له .. كما ذكرنا فمن المعروف أنه لولا التأثر بتعاليم العلامة العربى « ابن رشد » ما كانت العقلنة الغربية ، حيث إن العقلنة العربية الإسلامية تؤكد أن العقل لا ينفى الوحى ، وأن الوحى لا ينفى العقل ، لأن العقل فى خدمة الوحى ، ومكلف من أجله .. هذه الوصفة المبسطة للغاية التى تمثل إطارا فلسفياً عند « ابن رشد » وجدت طريقاً إلى الفكر الكنسى ، وتأثر به توماس الأكوينى — كما تأثر به كل خصوم الكنيسة .. ولم يقتصر التأثر بفلسفة « ابن رشد » الإسلامية على من تحفظوا على الكنيسة من خصومها — بل وامتدت لتغذى الكنيسة ذاتها ، ولتعقلنها فهى فى الواقع خلقت تياراً متكاملاً ، فالكنيسة لم تكتف بالتنظير ، وبدأت تتحرك مع توماس الأكوينى ومن حوله لتحتكم إلى العقل فى بعض المعانى ومن بدأوا يتحفظون على الكنيسة قالوا إن هناك بجانبنا حضارة أندلسية إسلامية مؤمنة حضارة لها إله ، وحضارة لم تقم بإلغاء العقل .. وبدأ التساؤل لديهم يطرح نفسه فى مطلع عصر النهضة الغربية ، وللأسف كثير من النصوص العربية الإسلامية انتحلت لتصبح نصوصاً لاتينية ، وحذف الاسم فقط .. حذف اسم المؤلف وانتحل بدلا منه اسماً لاتينياً وهذه الأمور بدأ تصحيحها لحسن الحظ ، الغرب نفسه بدأ يعيد النظر فى هذا الغش والتلوث الثقافى التاريخى ليعطى لكل ذى حق حقه .

الحضارة العربية الإسلامية ، إذن لم تكتف بأنها شغلت حيزاً طويلا من الزمن وحيزاً عريضاً من المكان فى بقعة الأرض من بحر الصين إلى جبال

البرانس ، وإنما كانت أساساً لحضارة الغرب المعاصرة التى من الصعب أن تعزل الإسلام عنها ، فهناك علاقة عضوية بين الإسلام وبينها ، اللهم إلا إذا تنكر الإبن لأبيه .. عندئذ تصبح حضارة لقيطة .

والحضارة الغربية مرت بمراحل ، ففى البداية بدت حضـارة التحفظ والنقد الحذر للتسلط التجريدى ، ومصادرة الإنسان ، ثم بدأت تنمو فى مراحل تالية لتصبح حضارة المدارس الفلسفية التى تتخطى مجرد النقد بتردد ووجل إلى التحفظ على بعض المواقف التى كانت امتداداً للعصور الوسيطة الأوروبية ..

ثم آلت الحضارة الغربية إلى عصر الأنوار ، وهى الفترة التى تبلور فيها الإنسان الغربى ، وأعلن التمرد وأعلن المواجهة مع ماضيه ، وأعلن التعرية لما علق به من رواسب التعتيم والظلمة ، حتى وصل إلى المدارس الوضعية فى القرن التاسع عشر ، حيث ترى فلسفة الإنسان من خلال تيارات المدرسة التطورية ، والماركسية ، والكونتية ، والسان سيمونية ، ثم تبلور علم الإنسان فى أبعاده الثلاثة الســيكولوجية ، والسوسيولوجية ، والانثروبولوجية ، وهى فى الواقع عطاء لتدعيم ثقة الإنسان بالإنسان ، وأطلق البعض فى البداية فلسفة الأرض ، فبعد أن اجتاحت الغرب قضية الميتافيزيقا ، كان لابد من تحديد المضامين حتى لا يحدث الالتباس لأن البعض ، وللأسف يعمم هذه المضامين بحسن نية أو بتكوين وتأهيل محدود العطاء على بقية الاتجاهات الإنسانية فى مختلف الحضارات بما فى ذلك الأمة الإسلامية .. وهذا خطأ ، لأن هموم الغربى من الأفضل أن ترعى على مستوى الغرب ، ولا تعمم وتصبح صورة طبق الأصل بالنسبة للآخرين ، أى أن الغرب له همومه الموضوعية التى عايشها فى مسيرته الحضارية ، وآلت هذه الهموم إلى تصفية حسابات خاصة به ، فصفى الحسابات مع ألف عام من الظلمات الوسيطة ، ومصادرة الإنسان بإعادة الثقة للإنسان العملاق الذى تجاوز أولا مصادرته ، فتحرك وأعطى لنفسه حقوقا ثم تجاوز هذه الحقوق النظـرية ليعطى بدائل تؤكد ثباته على الأرض .. هكذا يقولون ويزعمون وبدأ الانتفاخ .. انتفخ الغربى وأعجب بانتصاراته ، فإذا به أيضاً يتجاوز فى فترة لاحقة القدرات الفلسفية

بالتنظير العلمى أى أن الفلسفة وقد كانت هى الراية الكبرى ، إذا بها تفرز لنا علوما لها طابع نشط ، تبرهن وتعطى حيثيات لقدرة الإنسان ..

وأثناء هذه المواجهات والاختبارات الرهيبة بدأ الإنسان الغربى الذى كان مقهوراً يشعر أنه قادر ، وفتحت شهيته وبدأ يملى إرادته ، وقد أوضحت فى بعض دراساتى عدم العزل بين المد الاستعمارى ، وبين نشوة انتصار الغربى على ذاته ، وأصبح بالتالى قادراً على أن ينتصر فى كل المعارك ، حدث ذلك فى القرن التاسع عشر ، وازدهرت هذه النظرية ، وكاد الغرب أن يصل إلى موقع الانبهار ، والشعور بأنه أنهى كل القضايا ، ويبدو ذلك على لسان أحد مؤسسى المدرسة الوضعية حينما قال : « حضارتنا بدأت ولن تنتهى أبداً » بمعنى ورثنا حضارات الشعوب السابقة ونحن هنا لن نتحرك من مكاننا ، سنسود بحضارتنا إلى الأبد لأنها حضارة الإنسان ..

وهذا لا أقول إنه نوع من الغرور المحسوب ، ولكنه غرور المنتفخ والمنتصر فى معركة ، واعتقد أنه بانتصاره فى معركة أنه انتصر فى كل المعارك وتجاوز قزميته الأرضية ليحلق فيما لا يعنيه ، بمعنى أنه يحاول أن يتحدى حوار السماء ..

والحضارة الغربية المعاصرة هى حالياً الحضارة السائدة التى لا تنافسها حضارة أخرى فى القرن العشرين .. وهذه قضية المفروض أن تطرح بدون انفعال أو حماس لا موضوعى ، ودائماً هناك حضارة سائدة ، وحضارات مغلقة أو هامشية .. وحينما نقول الحضارة الغربية السائدة ، فإننا نقصدها بشقيها الليبرالى ، والماركسى ، لأنه من الخطأ أن نعزل الليبرالى عن الماركسى فى الانتماء الحضارى ، فالأم واحدة !

وهذه الحضارة بشقيها .. لها خصائص مميزة : توزيع العمل ، تعميق التخصص ، الارتكاز على المعرفة التكنولوجية ، التطبيق الصناعى ، الأسس العلمية .

وفى القرن العشرين تزيت الحضارة الغربية بزى الحضارة التكنولوجية ،

وتركت الفلسفة مكان الصدارة للعلوم التطبيقية .. أى للتكنولوجيا التى تقود الآن موكب الحضارة ، وتستأنس العلم والصناعة ، وحتى الفلسفة أصبحت فى خدمتها .. تابعة لها ..

والتكنولوجيا كما هو معروف تعنى التطبيق للمعارف التقنية للصناعة ، وقد تحولت لتصبح رمزاً لهذه الحضارة .. حضارة الكومبيوتر .. حضارة التحليق فى الفضاء ..

رأينا أن الحضارة الغربية لها خصائص ، ولنتساءل ما هدف هذه الحضارة .. ما هدف كل هذه العملقة الرهيبة .. هنا نصل بالقضية إلى العلاقة بين العلم والحضارة ..

إن أغلب الحضارات كانت لها أهداف .. وكمجرد مثال ، فإن الحضارة العربية الإسلامية كان لها هدف محدد وهو إنقاذ الإنسان ، وذلك حينما اتخذت من الإسلام قدرة للارتكاز والإحالة .. أى تحيل إليه كحضارة .. وإنقاذ الإنسان يشمل كل أبعاده .. إنقاذه أولا من غروره ومن سوء إستخدامه لذاته ، وإنقاذه من تسلط الجانب المادى لغرائزه على الجانب النفسى ، وإنقاذه من سلوكه البشرى ، مع الآخرين من جاره القريب إلى أبعد الجيران ، وإنقاذه من الدنيا ومتاعها وغرورها .. فهو جاء إلى الدنيا برسالة الخير والبناء من أجل القيم العليا وإسعاد الإنسان وتقعه .. **« وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض »** (١)و **« انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه »** (٢) ..

والكادح هو المجاهد الساعى إلى الخير .. وقال له الإسلام إن السعى فى الدنيا من أجل الدنيا فقط شر ، وقال له إنه حتى فى سعيه من أجل المثل العليا لا يحل له أن يصادر الإنسان ، وقال له أنت إنسان أولا عليك أن تتمتع بكامل إنسانيتك فى هذه الدنيا . ولكن بشرط ألا يتملكك الغرور وألا تدفعك النفس الأمارة بالسوء لطمس النفس المطمئنة والنفس الراضية الكامنة داخلك .. كن متعادلا ، فأنت صاحب رسالة ، وصاحب غاية .

---

(١) الرعد : ١٧ (٢) الانشقاق : ٦

وبالطبع تعرضت الحضارة العربية الإسلامية فى بعض المراحل لأهواء ونزعات بشرية حادت خلالها عن الغاية ، وكانت النتيجة أن أصابها التقلص .. وإن من ينظر بمعيار هادىء لمسيرة تاريخ هذه الحضارة العربية الإسلامية ، يجدها حينما كانت وفية لهدفها وغايتها كانت فى قمة الإشراق والعطاء ، ولكنها حينما أصبحت فى خدمة هذا أو ذاك وأصبحت فى خدمة انتماءات بشرية إذا بها تنكمش وتتقلص ، وفى لحظات الأزمات التاريخية ، كان يرتفع نـــداء التشبث بالإسلام لإنقاذ العقيدة ..

وا إسلاماه .. الإسلام دائماً بخير ، ولكن استغل ، وحاول البعض أن يحتمى فيه ، ليحقق ما له من مآرب فخسر فى كلتا الحالتين ، خسر على مائدة الدنيا والآخرة .

* * *

● اما الحضارة الغربية .. فما هى غايتها ؟

كثيراً ما أطرح هذا السؤال على قادة الفكر فى الغرب الذين يحملون راية الدفاع عنها ، وهو سؤال مصيرى ، لتأثير الغرب وحضارته الســائدة على العالم بأسره .. كما قال هيدجر : « ظلام أوروبا هو ظلام الكون » !

إن حضارة الغرب بدلا من أن ترفه الإنسان أشقته .. لقد ترفهت الأشياء .. السيارة ترفهت ، والتليفزيون ترفه وتجمل وتزين ، ويستقطب العالم بصوره وألوانه ..

أما الإنسان فلا أعتقد أنه ترفه ، وإنما أصبح يعيش الهموم الأساسية له مضافاً إليها هموم من يعكف ويسهر على ترفيه الأشياء ، يعنى يضيف إليه هم الطائرة وهم السيارة وهم التليفزيون .. وأصبح الإنسان ذو الهمين ، بل ذو الهموم ، واتسعت الهموم ، وبدأت موجة ما يعــرف حالياً بوباء المعاناة النفسية ، واجتاح الوباء أصــحاب الرفاهيــة .. إن المرفه حل مشــكلاته الموضوعية ، وبدأ يفتعل المشاكل التى لا حلول لها ، لأنها أساساً مشــاكل مفتعلة ..

الحضارة الغربية حضارة بلا قلب ، وبلا وجدان ، وبلا مشــاعر ، فهى

حضارة الإنسان فى غيبة الإنسان ، بل وتتحرك على حساب الإنسان ، ونحن نلهث وراءها كمثل المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى ..

الحضـارة الغربية جاءت لتصـفى الحسـابات مع الميتافيـزيقا ، ومع التكنولوجيا ، وانطلقت من وضع الإنسان المادى وتطوره .. والإسلام لابد وأن يعود ليوضح الأمور وليعدل الموازين .. وهذا أمر مطروح فعلا على قمة الفكر الأوروبى .

إن رائد المدرسة الوضعية أوجست كونت انبرى ليدافع عن الإسـلام ضد خصومه . وقال لهم صراحة : أنا لا أتفق معكم ، أنتم تهاجمون الإسلام الذى تجهلونه ، وأنتم غائبون عن المعرفة ..

وللأسف من يريد أن يعرف الإسلام فى أوروبا لا يجد إلا ما قام بترجمته رجال الكنيسة لحاجة فى نفس يعقوب ..

وهم يهدفون أساساً إلى تجريح الإسلام ، وهذا ما واجهه كونت فوجد صعوبة وذهب أيضاً ليتعامل مع المدرسة الاستشراقية فى تيجرى وواجـه صعوبة ، ولكنه قال : الحضارة الإسـلامية التى قدمت لنا هـذا الإبداع الفنى والعمـرانى ــ مشـيراً إلى غرناطة وقصر الحمـراء وإلى الفلاسـفة المسلمين ، وعلى رأسهم ابن سينا وابن رشد ــ ، وقال : لا يمكن أن تكون هذه الحضارة الإسلامية حضارة تعتيم ، بل هى حضارة أنوار ..

لقد علمت الإنسان أن يفكر ، وأن يتفنن ، وأن يشتغل فى العلوم ..

وقال كونت رائد المدرسة الوضعية : إن البشرية تبحث دائماً عن دين لأن الدين لا غنى عنه للإنسان .. وقال أستاذه « سان سيمون » : الدين ضرورة لبقاء الإنسـان ، كضرورة العـلم لمسـتقبله ، ويرى كونت أنه إن كان هناك دين يتمشى مع الحالة العلمية الموضوعية فهو الإسلام ، فحينما يسود العلم فسوف يبحث عن الإسلام .. وها هى العقول القادرة الآن فى الثمانينات تتساءل حول الإسلام ، وسوف يتبلور هذا الأمر بصورة أكبر مع بداية القرن الواحد والعشرين مع شـدة تأزم الإنسـان الذى ارتقى

ولكنه تحول إلى إنسان ميكانيكى . أى الإنسان الذى ضعفت فيه المشاعر ، ووهنت فيه الإبتسامة الطيبة ، وخبت لديه العواطف .. إنسان ميكانيكى ينأم بحبوب ويتقوى بحبوب ، ويهدأ بحبوب ، ويبتسم بحبوب ، ويحب بحبوب ، وينتحر بحبوب .. ووصل الأمر بأحد فلاسفة الغرب ليقول إن على الإنسان العملاق أن يستدعى الموت لا أن يذهب إليه ..

وعند هذا المنعطف الخطير الذى يهدد حضارة الغرب السائدة بالمأزق والاندحار .. يقف الإسلام المنقذ للبشرية ، وفى يده الحلول .

* * *

(٦)

الاسلام .. وتحديات العصر

● الحقيقة التى يؤكد عليها د. فكار : أن الإسلام كعقيدة وفكر .. قضية مطروحة بإلحاح الآن على الساحة الأوروبية ، بل والكونية ، كبديل للأزمة الأخلاقية الطاحنة التى يتردى فيها الإنسان المعاصر ..

والقضية التى نحن بصدد مناقشتها مع مفكرنا الإسلامى هى : كيف نطرح الإسلام على العقل الغربى بأسلوب عصرى ، بل وكيف يمكن أن نخاطب به ــ كفكر ــ إنسان الربع الحالى ن القرن العشرين ؟ .

بداية : يوضح د. فكار أن الإسلام قضية مطروحة على الساحة الكونية ، ويقول : من الخطأ أن نتصور أن الإسلام يحل بدلا من العلم أو العكس ، أو أن العقل يتوقف ليتحرك الوجدان ، أو العكس أيضاً .

والحوار لابد وأن يتطرق إلى تحديات تواجهنا فى إطار طرحنا لقضية الإسلام وهى : التحدى التاريخى أو الحضارى .. والتحدى العقلى أو التحدى العلمى .. وتحدى الواقع الملموس ، بمعنى واقع المجتمعات التى نعيش فيها ، وإلى أى حد تتجاوب العقيدة على مستوى الصلاحية مع حركة المجتمعات إلى التقدم ، وإلى مزيد من التطلع والرفاهية . فإغفال الواقع على حساب الماضى لا يقل خطأ عن إغفال الماضى على حساب الواقع ، كذلك إغفال العلم لصالح النص ، لا يقل عنه خطأ إغفال النص باسم العقل أو العلم .

ولنبدأ أولا بأول التحديات :

الإسلام فى مسيس الحاجة الآن إلى أن يطرح واقعه التاريخى من خلال

الفعل التاريخى ، لا من خلال فكر المؤرخين ، ويجب ألا نتهيب من ذلك .. لماذا ؟ .

ليست هناك المشكلة التى طرحت على الغرب بالنسبة لعقيدتهم . وهى مشكلة وضع علامات استفهام على النصوص الأساسية لحركة العقيدة ، وأعنى صياغة الكتب المقدسة .

أما بالنسبة للإسلام ـ فالحمد لله ـ وثيقتنا المقدسة ليس فيها أى نوع من هذا ، فهى مبرأة تماما من أى خلط أو شك .. وبالتالى ليست هناك أية إشكالية .. وحركة التاريخ فى أرضيتها الأولى منطلقة من أرض صلبة ، هى صحة الوقائع الأساسية ، وسلامة الوثائق التى انطلقت عنها حركة المجتمع التاريخى الذى نفذ هذه الوقائع ، وهذه الوثائق الأساسية التى تجسد لنا جوهر العقيدة الإسلامية ، وأعنى بذلك القرآن الكريم والسنة الصحيحة المشرفة ، وكل ما اتفق عليه العلم وأقصد اجتهادات الأئمة بعكس ما حدث فى المجتمعات الغربية حينما وضعت علامات استفهام كبرى على حركة الميتافيزيقا والفكر المجرد فى العصور الوسيطة الأوروبية باسم المنهج العلمى، وباسم الفلسفة الحديثة أو فلسفة الإنسان ، وهم من زاويتهم على حق لأن لديهم ما يثير فعلا هذه التساؤلات .. أما نحن فحركتنا ليست فى حاجة إلى هذا ، وبدلا من أن تتم كما حدث فى الغرب تحت شعار الظلمات ، تمت تحت شعار النور ..

هم ينطلقون من مبدأ الإدانة ، لأن العقيدة كلفتهم ربما أكثر من ألف عام من القرون الوسيطة المظلمة أخذ العقل الأوروبى فيها عطلة ، كما يقولون هم لا نحن ، وأخذ يلهو ببعض الميتافيزيقيات والمعتقدات التى لا ترتبط بواقع ملموس بينما الحقيقة ترشدنا أن تجربتنا معاكسة ، كان فيها إحياء للعقل ، وهكذا رأينا المعتزلة وإخوان الصفا ، وحتى حركات : كالقرامطة والزنج ، والديلم ، ورأينا إشراقات لابن رشد ، ومدرسته بالأندلس والمغرب ، وابتداعات فى العلوم والفنون ، إلى جانب حركة الفكر ، وبالتالى من الصعب أن نقول : إن الإسلام استبعد التاريخ ، لأنه كان بالعكس من ذلك يدعم مسيرته ، لذا سنجد أن الاحتكام إلى التاريخ سيؤكد لنا أنه

ليست لدينا أية إشكالات ، ولا نتهيب أبداً من أية مواجهة مع حركة التاريخ التى تعطى أولوية للوقائع وللفعل التاريخى على حساب ما زيف من التاريخ ، لأن تاريخنا ليس فيه زيف ..

ولكن كيف نفسر أزمات التاريخ الإسلامى ؟ ..

البعض يحاول أن يطرح مبدأ الإدانة على الإسلام ، ومازلنا حتى عصرنا هذا حينما يتوعك المسلم كبشر دائماً ما يلقى التبعة على الإســلام ، وكأن الإسلام وجد فقط ليجسد الأخطار ، بينما فى الواقع إذا ما عمقنا النظر سنجد فى مسيرة الإسلام ومجتمعاته أن الأزمة كانت دائماً أزمة البشر ، والحلول كانت دائماً حلول الإسلام .. البشر يتأزم ، والإســلام يأتى ليعطى الحــل كدواء لها ، وما من مرة استبعد كدواء إلا وتوعكت الأزمة ..

إن عقلانية الحضارة التى انطلقت فى عصر النهضة الأوروبية على أساس من رفض الأزمنة التاريخية المتراجعة ، وهى الأزمنة الوسيطة ، واعتمدت على الحركة العلمية متمثلة فى التنهيج والملاحظة والتجريب ، وعلى قــدرة النظرة الشمولية شىء ليس ببعيد عنا ، فنحن مارسنا هذا فى بعض المدارس الإسلامية ، كإخوان الصفا والمعتزلة وابن رشد وظهرت المقولة : « العقــل يكمل الوحى » بمعنى أنه لا يمكن تصور أن الإله الذى أوحى وهو الذى خلق العقل يتناقض مع ما خلق ، من هذه الزاوية نقول : إن التجربة العقلية ليست غريبة عنا .

والآن فى هذه الحقبة من القرن العشرين .. كيف يبدو احتكام المجتمعات الإسلامية إلى العقل ؟ ..

ثمة نوع مــن التهيب بالنســبة للمدافعين عن الإســلام ، أو نوع من التشفى والرغبة فى القصاص والإدانة للمعارضــين له ، وفى اعتقــادى أن القضية لو طرحت بنوع من المجازفة فلا فائدة فى هذا ولا ذاك .

المفروض أن نطرحها أولا بموضوعية .. لماذا ؟ .. لأن هناك من يرى أن قضية الدين ــ أى دين ــ قضية اعتقادية إيمانية ، وبالتالى لا داعى للمجازفات العقلية فيها ، بمعنى أن تؤمن أو لا تؤمن ، تقبل أو ترفض ، وغاب عنه أن

القرآن الكريم أرشدنا إلى أن هداية الله مرتبطة دائماً بتبرير الإنسان ، يعنى أن الإنسان لابد من جانبه أن يلتقى بالطريق ، وليس له من جانبه المجازفة فى اختيارات الله ، إن اصطفاء الله مبرر دائماً بصدق هذا الاصطفاء ، يعنى لا يصطفى جزافاً ، والأنبياء خير دليل على هذا .. هم جميعاً مارسوا المعاناة والمواجهة ، وأكدوا أن الله سبحانه وتعالى لم يخدع فى اصطفائهم — حاشا لله — .. إنهم كانوا بحق أهلا لهذه الرسالة ، وما علينا إلا أن نقف أمام رسولنا الكريم صلوات الله وتسليماته عليه . وما حدث له وهو عائد من الطائف ، وما حدث له فى أزماته الكبرى .. كيف أنه برهن بسلوكه الخالد أنه أهل لهذه الرسالة ..

من هذه الزاوية أقول إن قضية استبعاد العقل باسم التسليم لا يجوز ، وفى تصورى أن قضية إغفال العقل فيها تجاهل ، بل إغفال لكثير من الآيات القرآنية ، خصوصاً تلك التى تنتهى : بألا تعقلون ..

إن الإيمان والعقل يتكاملان ..

● **وماذا ينتظر العالم من مسلمى بداية القرن الخامس عشر الهجرى ؟**

إن البشرية الآن فى مسيس الحاجة إلى الأيديولوجية الإسلامية التى تعكس حضارة الإنسان ، لأن حضارة الغرب المعاصرة هى حضارة الأشياء ، حضارة الإنسان المتضائل إلى جانب ناطحات السحاب ، هذه الحضارة التى تعانى الأرق ، تبحث عن النهار المبتسم ، ولكن سيطول بها الانتظار لأن الابتسامة اختفت عن الوجوه ، وهم يحسدوننا عليها ، ويقولون للمسلم المبتسم : إن هذه الابتسامة غابت عنا زمنا طويلا .

ولكن كيف نقدم هذه الأيديولوجية الاسلامية كمنقذ لانسان الغرب المتهالك فى بأساء نظرياته اللاانسانية ؟ ..

لابد أن يتكامل الفكر الإسلامى فى أرضيته قبل طرحه على العالم ، والقضية التى تواجهنا الآن هى مشكلة توحيد ما مزق ، ويا للأسف ، لأننا على ما يبدو بصدد تمزيق ما وحد !!

والحقيقة أنها عملية تمزيق مفتعلة تحدث بلا مبرر عقلى ، إن الفكر الإسلامى فى حاجة قبل أن يطرح عطاءه ويواجه الآخرين إلى أن يتحاور ويتفاهم مع جزئياته ، وخصوصياته .. لماذا ؟ بكل صراحة لأن الغير كثيراً تشفى فينا .. فأنا كرجل مسلم حينما أنظر إلى الإسلام فى الأزمنة المتعاقبة عليه ، لا أرى إلا إسلاما واحدا ، ولكنى حينما أقرأ للمستشرقين أجد نفسى أمام أنواع متعددة من الإسلام ، حتى أن البعض منهم كتب عن الإسلام الإيرانى والتركى ، بل والعثمانى ، والفاطمى ، والأندلسى ، بمعنى أنه بدأت عملية افتعال مسميات ، وعملية التعدد والتنوع فى حيز واحد .

كيف حدث هذا ؟ .. لأن العصر الذى نعيش فيه مهد وشجع هؤلاء على أن يطرحوا البدائل الممزقة ، أما المؤرخ المنصف فقد يتكلم فى مضمار حديثه عن الإسلام ، عن البيئات والأزمنة المختلفة ، ولكنه لا يتكلم عن الإسلام المتعدد ..

وقد شجع المستشرقين المغرضين على كتاباتهم ظهور القوميات الحديثة داخل الأمة الإسلامية ، ونشأة الدويلات ، فنظروا إلى مراحل التاريخ على أنها ليست مراحل متكاملة ، وإنما جزئيات متقطعة ، وكل جزئية فى نظرهم تعنى إسلاماً معيناً ..

كما شجع على ذلك ما نراه الآن بالنسبة للاتجاهات الإسلامية (المشخصنة) أى التى تعتمد على الأشخاص بينما إذا كانت لدينا اتجاهات إسلامية فكرية ومدرسية ما أعطيت الفرصة لأنصار التعدد أن يعددوا !

وعن مكانة العالم الإسلامى فى القرن الخامس عشر الهجرى يقول د. رشدى فكار : إن مائدة الكبار العمالقة لن تخلى من أمامها حضارة الغرب التكنولوجية المعاصرة ، إلا إذا حدثت هزات كونية لحرب هيدروجينية مثلا ، ولكن وبناء على قدرة التطور فى حد ذاته لن تكون الوحيدة سيدة المائدة لأنها ليست الوحيدة فى الكون التى تستحوذ على كل عطاء التقدم ، فهناك دولا تمتلك الآن « رأس الرمح » وهى التكنولوجيا ، كاليابان التى دخلت معها ، والصين التى ستدخل معها ، وحينما ننظر إلى

العالم الإسلامى نجد أنه وإن لم يملك « رأس الرمح » وهى التكنولوجيا فهو يمتلك الطاقة ، ويمتلك العطاء البشرى والمادى ، وأعتقد أن هذه المائدة سيكون فى جزء منها نصيب للأمة الإسلامية ، وهى التى تفتقد التكنولوچيا والقوة المادية تزخر بقوى البشر العضلية .

ستكون هناك ضوضاء كونية من هؤلاء لاقتسام جزء من المائدة إلى جوار العمالقة الجدد ..

والأمة الإسلامية بطاقاتها وفكرها وعضلاتها أتمنى لهـا أن تكون من العمالقة لا من أصحاب الضوضاء !

* * *

(٧)

علماء الغرب ينجذبون الى الاسلام

● علماء الغرب يسعون الى الاسلام ، وينجذبون اليه .. شاعر المانيا الشهير جوته لم تبهره فقط اضواء الاسلام ، ولكنه اعتنق الدين الحنيف ، واثبت الباحثون ذلك بعد تحليل مؤلفاته .. وهذا هو فيلسوف الشيوعية الأوروبية وعميد الشيوعيين الفرنسيين روجيه جارودى يشهر اسلامه ويسمى نفسه رجاء جارودى ، ويتزوج من فلسطينية مسلمة ، ويكرس قلمه وعقله للدعوة للاسلام .. وهذا موريس بوكاى الذى اعلن اسلامه بعد اجراء مقارناته بين الأديان .. وغيرهم ، وغيرهم كثيرون ..

تقودنى هذه الظاهرة الى سؤال اطرحه على الدكتور رشدى فكار :

بمناسبة الحديث عن علماء الغرب وطموحات العلم اللامحدودة ..

كيف يمكن أن تتحقق عالمية الاسلام ؟ .. واعقبت السؤال الكبير بعدة محاور تتفرع منه أو تقود اليه ..

١ ــ إن الطريق المسدود الذى سارت عبر دروبه العتيقة فلسفات الغرب والشرق .. ألهب العقول بحثا عن البديل السالك فى رحاب الحقيقة الكلية والهناء الدنيوى والأخروى على حد سواء ..

٢ ــ إن الصحوة الإسلامية التى تنبعث الآن فى قلوب وعقول مليار من البشر المسلمين مستندة إلى ركائز فكرية وحضارية وروحية ترسبت عبر أربعة عشر قرنا .. تقلب مائدة الاستشراق الغربى الأسود ، ومخططات الغزو الفكرى والتبشير رأسا على عقب ، وتلفت الأنظار بشدة إلى أصالة الفكر الإسلامى وخلوده ، وعدم قابليته للاندثار .

٣ ــ إن اتجاه قمم الفكر الغربى للأخذ بمنهج الإسلام العلمى فى الطبيعة والكيمياء ، والطب والفلسفة فى مطالع النهضة الأوروبية له ما يقابله الآن فى عصرنا الراهن من اتجاه سريع الإيقاع لا لمجرد التأثر بالفكر الإسلامى ،

ولكنه يندفع بقوة نحو اعتناق العقيدة الإسلامية ذاتها وتمثل ذلك فى إسلام عمالقة الفكر الأوروبى .. مما طرح على الساحة العالمية الفكرية الإسـلامية كبديل منطقى لإفلاس الفلسفات الوضعية .

.. **ولكن الظاهرة التى تحير الصديق قبل العدو ــ كيف تتحقق عالميـة الاسلام فى ظل تأزم المسلمين .** الواضح الآن فى استمرار تخلفهم الاقتصادى والاجتماعى وشقاقهم وتناحرهم الذى وصل إلى حد الاقتتـال والتـدمير والتمزق ..

.. كان هذا هو السؤال ومحاوره .. **فماذا يقول الدكتور رشدى فكار ؟**

بداية ، وبطريق وضع النتائج قبل المقدمات بدأ الحديث : فى تصـورى المتواضع أن العودة إلى الحق لا تكون إلا برسالة الحـق ، ولن يعـود الإنسان المعاصر أبدا عن طريق هذه الحبوب المخدرة التى يقدمهـا له فكر كسيح ، أو الحلول المؤقتة والقائمـة على الغش والتحـايل .. وأرى أن الإسلام برغم تأزم حال المسلمين ، سيظل الرصيد لإنقـاذ الكون بأسره لا لانقاذ قبيلة أو شعب أو قارة وحسب ، وسيكون الإسلام هو المنقذ من هذا المأزق لا عن طريق اختراع أجهزة جديدة ، صواريخ ، طائرات ، قنابل ، وإنما عن طريق إعادة الإنسان المستنب إلى صوابه ..

ودخولا فى عمق الإجابة على السؤال المطـروح .. كيف تتحقق عالميـة الإسلام ، ينطلق الدكتور رشدى فكار فى أرضيته كعالم إجتـماع ونفس فيقول : إن عالمية الإسلام تتحقق من نظرية (ابستمولوجية نشوئية) تقود إلى أن السلوك قادر على تغيـير التطـور لا العكس ، بمعنى أن الأولوية للسلوك ، وأن كليهما يؤثر ويتأثر بالآخر ، وإذا نظرنا إلى السلوك السـائد فى الحضارة المادية رأسمالية كانت أم ماركسية نجده متطبعاً بتطبع استهلاكى ، وبقدر ما نوغل السير فى هـذا التطور بقدر ما نقتـرب من الـكارثة .. إذن نحـن فى حاجة إلى صـدمة جذرية عن طـريق سـلوك آخـر روحى لا مادى ولن يكون إلا البديل .. ولا أعتقد أن الإسلام سيقول لأبناء القرن الحادى والعشرين سأعطيكم طائرة أسرع وسـيارة أفضل ، وقطارا أكثر

راحة ، ورفاهية ، وثلاجة أجمل وأكبر ، وطـرقا أنعم وأنظف .. لا ، ولكن سيقول لهم سأعطيكم إنسانا أكثر توازنا وأكثر اعتدالا ، وأكثر براً وإحسانا وعدالة للآخرين .. الإنسان الذى يرتبط بمبادئه ، ويهاب ويخشى خالقه ..

الإنسان الذى يخدم الإنسان ، ويعمل لإسعاد الانســان لا الارتقــاء بناطحات السحاب والشوارع ، واستنزاف كل الخيرات فى إطار التحــايل والمكر والدهاء ، والكيد بدعوى صياغة وبناء الإنسان ليبنى كل ما دمر .. وإن الأزمة فى اعتقادى ستقود العالم إلى الإســلام ..

إن حال المسلمين المتأزم لن يعوق دون الوصول للإسلام لأن الإسلام لن يتجه إلى العالم الغربى والشرقى الغارق فى المشكلات ، ولكنهــم هم وبمحض اختيارهم سوف يتجهون إلى الإسلام كطوق نجاة لا منقذ سواه ، لأن السؤال الذى يطرح نفسه بعد كل هذه الأزمات المستحكمة هو ماذا نفعل ؟ وحتما سوف يقلب الإنسان فى الأوراق ، ولن تصل بهم هذه الأوراق إلى نتيجة ، وأخيراً سيقولون : ولماذا لا نتصــفح أوراق هــذا الدين .. الإسلام .. إن رواد الفكر وعمداء الفلســفة فى القرن العشرون يلتقون فى فى أن هناك مأزقا حضاريا جاء نتيجة لأن إنســان هــذا العصر ، وإنســان الحيرة ، إنسان القلق ، إنسان الاكتئاب .. إنسان لا يشــبع فى اســتهلاكه ويبحث دائماً عن الرفاهية وعن الرخاء .. إن ثمة اجماعا على ذلك من هايدجر وكيارس ، وسارتر ، وماركس ، على ذلك ، تلوث قيم وبيئة ، وفى العلاقات الإنسانية ، والعلاقات الأسرية — إن الإنسان — إنسان الحيرة والتلذذ بأمور يفتعلها ، وقد يصطنعها ، وقد أجاد هايدجر عميد فلاسفة القرن العشرون فى وصف حال هذا العصر حينما قال : « إنه عصر يبدو كقصر شامخ فى منظر كئيب . سادته يعانون من الأرق والملل والقلق ، وخدامه يقاسون من المرض والجهل والجوع .

❋ ❋ ❋

(٨)

نهـــاية العمالقـــة

(سان سيمون .. أوجست كونت .. ماركس .. سـبنسر .. سارتر)

● سان سيمون .. أوجست كونت .. كارل ماركس .. هربرت سبنسر .. سارتر ..

كيف مضى قطار الشك بهؤلاء العمالقة من فلاسفة الفكر الاوروبى فى القرنين التاسع عشر والعشرون ، خلال رحلاتهم الذهنية المضـــنية التى استنزفت سنوات الأعمار ، ورحيق العقول .. تمردوا فيها على الاله ، وامتدت ايديهم بمعاول مؤلفاتهم لهدم صروح الايمان ورموزه الدينية ؟

كيف حاول هؤلاء العمالقة اكتشاف القوانين التى تتحكم فى الكون لمعـرفة اسراره ، وظنوا أنهم قادرون على فك طلاسمها .. ثم قادتهم حركة الالتفاف الهائلة ، التى صنعوها بأيديهم الى دائرة مفرغة .. عادوا مع دورانهـا الى نقطة البدء ، حيث ينحنى جبروت العقل امام أسرار اللانهائيـة ، فاعتـرفوا جميعاً أما بعجزهم عن التحدى والمواجهة ، أو بالايمـان الضـبابى المقنع أو الواضح بلا اقنعة ..

.. على هذه الأسئلة نقدم الإجابات فى دراسة للدكتور رشدى فكار ، وأعيد تلخيصها مراراً بالفرنسية بعنوان : « نهـاية العمالقة » .. وهـذا موجز لها ..

فى رحلة العمر الفكرية كان هناك تطلع إلى العمالقة كقدوة وكمثال بالنسبة لإنسان باحث عن الحقيقة ، ولا أدرى من أين أبدأ ، هل أبدأ من علامـة استفهام بعد قراءتى لأفكار متعددة وفى اتجاهات متعددة لحضارة الغـرب إنطلاقا من الفكر الوجودى ، والماركسى والتطورى ، إننى أطرح عـلامة الاستفهام إنطلاقا من استفهام فرض على نتيجة للتراكم المعرفى بعد الاحتكاك

بحضارة الغرب الحديثة ، هذا الاحتكاك الذى تم بعقل كانت ركيزته التصميم الإيمانى الفكرى لابن القرية الذى أتيح له أن يتعامل مع نوعية هذا الإيمان ويدعمه ببحوث عبر تراث المسلمين ، وذلك فى الفترة الأولى من العمر .. ثم جاء هذا الاحتكاك ليشكل نوعا من المواجهة المقنعة لما هو كامن فى الذاكرة ، وما هو مثار حول الإنسان .. كان الاستفهام .. وكان علىّ أن أنهيه إما بالهروب من الإجابة أو من تلفيق الإجابة ، أو من اندفاع .. كل هذا دار بالخلد ، ولكن كان القرار فى النهاية هو : لنتعامل مع العمالقة ، ولنأت البيوت من أبوابها .. لم نتعامل من منطلق الخطوط ، ومن منطلق التعرف الجذرى ، وإنما لكى يكون التعامل استيعابيا ، ومن البداية ، وكان هناك توقف مؤقت لأبحاث متعددة لأصفى الحسابات فى هذا القضية وبصفة نهائية ، وكانت نتيجة هذه المواجهة التى فرضت فى حينها دراسة حملت عنوان « نهاية العمالقة » هذه الدراسة كانت فى الواقع ، وكما يقول المثل العربى : « الشعرة التى قصمت ظهر البعير » .

● من هم هؤلاء العمالقة ، وكيف سارت الرحلة معهم ؟

سان سيمون – مواجهة مع العقيدة :

.. كان التعامل مع « سان سيمون » أحد فلاسفة القرن التاسع عشر ، الذى له اسهامات متعددة عن الأنسقة الصناعية وتعاليم الصناع ، وفلسفة القرن التاسع عشر والمسيحية الجديدة ، أما « سبنسر » فيتميز عن بقية العمالقة فى مواجهة العقيدة لأنه كان يتصدى لجوهرها ولظهورها وأصولها . وليس لمجرد معرفته كيف استمرت ؟

وسان سيمون كأحد امتدادات المعرفيين رأى الدين من منظور الاحتكاك الكنسى .. أى الكنيسة المحتكرة التى تتكلم باسم الله ، وهى بذلك من الصعب أن تمس لغيبة المصدر .. فبهذا حينما تعامل « سان سيمون » مع الدين كانت الغاية الأساسية هى تحديد هذا الطور المهتز والمتداخل للدين ، خصوصا وأنه ارتكز على روح المواجهة ، لأن الثورة الصناعية ، والتقدم العلمى ، وإن طالتا أو كثرتا فسوف تطرحان قضية الإيمان بدين .. لأن التقدم العلمى ، وثورته الصناعية ليس بدين .

انتهى هذا العملاق إلى أن الهدف فى النهاية هو كيف يمكن للدين أن يتعامل مع العلم ، بمعنى أن هناك إلهاً يتمثل فى قوة الطبيعة ، وهذا ما وصل إليه « آينشتين » ، فهو يقول بأن هناك إلهاً يدير الكون دون تدخل ، فهو يحجم دور الوسطاء ، وهذا الاتجاه الدينى هو رد فعل لفكر القرون الوسطى ..

و « سان سيمون » كان فى أعماقه « ديستى » النزعة بمعنى أنه لم يستبعد مطلقاً الدين وإله الطبيعة ، وإنما قال : إن على العلم الجديد أن يحدد العلاقة بين الدين وبين العلم ، باعتبار أن العلم ضرورة لمستقبل إنسان والدين ضرورة لماضيه ، لذلك فهو أول من انحنى فى النهاية بعد أن كان أول من هاجم فى شبابه النسق الكنسى لاستغلاله لمصادرة الإنسان .. عاد فى النهاية ليعلن أن الدين والعلم كلاهما ضرورى لسعادة الإنسان ، والمجتمع ، فكان أول عملاق انحنى بهدوء إلى قدرة العقيدة وأصالتها فى الإنسان .

* * *

● **أوجست كونت .. لماذا استمرارية الدين ؟**

وجاء العملاق الثانى ، وهو « أوجست كونت » ، وكان كاتبا « لسان سيمون » ، ومنه تلقى الأفكار الكبرى ، وعلى يديه تتلمذ ، وهو بلاشك تلحق به المدرسة الوضعية الأم كعميد لها .. هو أيضاً حاول أن يطرح الدين كعملاق ، ولكنه طرح الدين كتطور واستمرارية .. أى لماذا الدين ، ولماذا يستمر ؟ .. هو يرى أن الإنسان فى الواقع لجأ إلى مضمون الدين ، أو إلى علّية الدين أمام عجزه عن تعريف بعض الظواهر ، فحاول أن يلقى بالتعليل على المجهول ، فكان المجهول الأول هو الدين الوثنى ، بمعنى صنم العشيرة أو القبيلة .. فكان الدين فى بداية منطلقه عشائرى وقبلى ، ثم بعد هذا تطور مع الذكاء ليصل إلى العقيدة المتعددة أو الإشراك ، ومع النمو الديمجرافى (السكانى) والانتشار فى بقاع الأرض ، أخذ مفهوم دفن الموتى مغزاه ، فأصبح القبر مركز إيحاء الاستقرار ، وهكذا جاء الاستقرار بدلا من التشتت وبدأ النمو ، فهو يرى أن الاستقرار جاء من تعدد الآلهة ، ومع الامتداد أصبح هناك أكثر من إله لأنه كما زعموا لا يمكن أن يجىء فى

كل مكان .. وأخذ هذا التعدد فى تصنيف الكواكب والنجوم وفق مراتب متنوعة ، ردحا من الزمن حتى تطور ذكاء الإنسان إلى أن هناك إله الآلهة ، وقاد ذلك إلى الوحدانية ، بمعنى أن الإله كان فى البداية فيتشى أى محلى ، ثم أصبح وطنياً ، ثم أصبح عالميا وبعد أن كان الإله ملموساً ، تجرد بعض الشىء فأصبح فى النهاية مجرداً تماماً وغيبيا ، وقال : إن ثمة مغالاة ، كانت فى غيبة الإله ، وأدت إلى الميتافيزيقا .. فما الميتافيزيقا إلا الدفعة الهائلة لفترة نبوة بلا أنبياء ، فبدأت القضية تصبح ميتافيزيقيات تماما ومغالاة فيها . ومع المغالاة كان التأزم فسقط الإنسان على الأرض ليبحث عن ذلك .. إذن هذه هى مراحله ، وحاول إذن أن يطرح الدين بهذا المفهوم الوضعى البحت دون البحث فى تأملات أخرى ، وبدوره سقط ، وقد لوحظ كما هو معروف أنه تأزم فى نهاية عمره ليطرح دينا وضعياً للحالة الوضعية متمثلا فى الكائن الأعظم وهو الإنسانية ..

وإن هذا الإنسان الذى سقط على الأرض لابد له من دين وضعى يتمشى مع قدراته العقلية والعلمية ، والصناعية ، وبدأ يقلب يميناً وشمالا وكان رائعاً أن يرشح فى النهاية دين الإسلام كدين وضعى للحالة الوضعية ، وقال إنه لا يمكن لدين أن يتمشى مع الحالة الوضعية إلا الإسلام لأنه دين عار عن الحماقات ، يتميز ببساطته وعقلنته ، وبقدرته على إشباع رغبة البحث عن الإله ، ولكن هل نقول عن « أوجست كونت » بعد موقفه هذا إنه سقوط عملاق .. إنه صحوة واستنارة وهدى عملاق ..

* * *

● **كارل ماركس .. مرتد عن الالحاد :**

كارل ماركس أيضا من العمالقة الذين ارتدوا عن الإلحاد ، وتراجع نسبيا فى عداوته وهو من البداية لم يتخذ نفس الطريق ، وإنما استطاع أن يوقف مسيرة الأديان فى المجتمع ، ومن يلاحظ أن أيديولوجيته المادية ألفها تحت تأثير أوروبا .. طرح الدين بأكثر من أيديولوجية ، وركز عليه ، والواقع أنه وقف من الدين موقف تحية ، وقال : لا يعنينى جوهر الدين ، وإنما يعنينى

دوره فى بنية المجتمع ، فهو يحاسب الدين على دوره الإجتماعى فى الاستغلال وتحذير الكادحين بمقولته الشائعة : « الدين مخـدر الشـعوب » ، قلب بلا قلب ، وروح بلا روح .

والمقصود من الدين الاستغلال الكهنوتى الطبقى لأوضـاع وأحـلام الكادحين ، وكارل ماركس فى مراسلاته مع البابا ، ومع زعيم ثورة الفلاحين وضح موقفه المؤيد للدين المؤثر اجتماعياً ، ففى رسالته المشهورة للبابا قال : « أيها البابا المقدس ، إن الإله الذى أوحى إليك بالوقوف ضـد العـائلة المقدسة ، ومع الكادحين إنما هو إله يستحق التقدير » ..

وقوله : إننى ما كنت أبداً منكراً للإله ، وإنما داعيا لتحرر الإنسان !

* * *

● **سبنسر .. اعتراف بالفشل :**

« سبنسر » يتميز عن هؤلاء العمالقـة جميعاً بأنه تعامل مع الدين من خلال جوهريته ، وإنما تصدى له من جذوره وأصوله على حد زعمه ، ثم جاءت أزمته الصحية ، وبعد أن جاء الطبيب وسمعه يقول لأخته : لقد انتهى ، فقال لأخته بعد أن فتح عينيه : لقد سمعت ما قال ، ولقد قررت ألا أموت ، وكان فى سن السابعة والثلاثين تقريباً ، وفعلا قدر له الله أن يقترب من الثانية والثمانين ويتجاوزها بقليل ، ومعروف أن « سبنسر » طرح أولا السؤال : ما هو قانون الكون الأساسى ؟ .. ثم صمم على اكتشافه ، ولم يقم بأى عمل وظيفى ، وأنفق على هذا الاكتشاف سنوات عمره الطويلة ، وحينما استدعته الملكة « فيكتوريا » لتكافئه على أبحاثه وتلحقه بوظيفـة علميـة مرموقة ــ رئيساً للجامعة ــ قال لها : جئت إليك أيتها الملكة لأشـكرك ، وفى نفس الوقت لأقدم لك استقالتى عن المنصب الذى لم أتقلده ! ثم واصل تفـرغه لوضـع قانون الكون .. بمحاولته دمج الموضـوعات السـيكولوجية فى البيولوجيا ..

هـذا العملاق قال : إن الدين حدث نتيجة لظاهرة نفسـية بحتـة ،

فالذى أدى إلى الدين هو الخوف .. الخوف من الأحياء أدى إلى السياسة ، والخوف من الأموات أدى إلى الدين .

وبدأ يطـرح تسـاؤلات فيـما زعم أنه اهتزازات نفسـية ومخاوف الشـياطين وغـيرهم ، وصـمم بعـد أبحاث مكثـفة على أنـه بذلك قـد صـفى القضية تماماً ، وأن العقـل المتطـور المنتمى لا يمـكن أن يتأثر بهذه المخاوف .. « سبنسر » كان متحاملا على نفسه فى أيامه الأخيرة ، كان مصمما على اكتشاف قانون الخوف .. ويقول د. رشدى فكار : وكان علىّ أن أتابع سبنسر حتى اللحظة الأخيرة وقد اكتشفت أنه دخل قبره واقفا .. لقد تعامل « سبنسر » مع الموت بنفس اللغة التى تعـامل بهـا معه رجال التصوف ، لقد نظر فى الكون فى أواخر أيامه ، وأعلن انبهاره به ، ولكنه عجز عن معرفة الدنيا ، ولهذا أعلن أنه عجز عن اكتشـاف قانون الكون ، وأعلن أنه انهزم ، ودعا إلى التساكن بين العلم والدين فى النهاية معلنا بذلك هزيمته ضمنياً ، ونهاية تحدى عملاق .

ويقول الدكتور رشدى فكار : إن هذا الموقف ، بلاشك أتمنى لكل عالم أن يتخذه .. لأنه من العسير على النفس بعد طول عناء أن تعترف بالعجز والفشل ..

* * *

● **وسارتر عاد الى الدين :**

وساتر فى نهاية المطاف لم يختلف كثيرا عن موقف باقى العمالقة حينـما أعلن أن فلسفته الكبرى قادته إلى هزيمة نكراء ، ومن هنا كان تقدير فرنسا لهذا العملاق ، وقبل موته طلب من رفيقة حياته « سيمون دى بوڤوار » أن تأتى له بقس ، ورغم دهشتها الشـديدة واسـتنكارها قالت له : سآت لك بالكاردينال ، فرد عليها بقوله : لا . لا أريد كاردينالا ، إنه غشاش للإله ، وإنما أريد قسا متواضعاً من قرية متواضعة مغمورة ، وجاء القس واعترف له بهزيمته .

.. ويتساءل الدكتور رشدى فكار : لماذا هذا الاصرار السطحى لا العمقى لمواقف غير قائمة على أسس .. اننا نكتشف أن الفكر العملاق أجاب اما بقضية

الايمان او اجابة اخرى .. إن كل مفكرى الكون كان لهم نصيب من الإيمان ، لهذا أضع دائماً الفاصل بين مجرد الإيمان ، وبين قناعة الإيمان .. فالإيمان من المستحيل أن ينكر عن أحد مادام فى الكون ، ولم يكتشف غموضه وأسراره وإلا ما كان عاقلا .. فلابد للعاقل أن يفكر وأن يعقل ، ويدرك أن هناك إيمان .. ولكن الفئة الأخرى وقفت موقفا صريحا من الإيمان ، بمعنى أنه ليس مجرد فكرة وإنما هو كائن داخل الإنسان ، لا لأنه متخوف ، ولكن لأنه واع وحامل للأمانة ..

.. وما أجمل القرآن الكريم حينما يقول : **« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » (١) ..**

فالقرآن العظيم جعل مرحلة المجادلة تكون بعد علم ، فجعل العلم لأن وسائله تدريجية ، وحينما يتعمق به العلم يصل إلى الهدى .. الهدى الذى يكتشف بعده أنه إنسان مهتد ، وصل إلى قمة القمم فى الحوار ، وبذلك يكون من أصحاب الكتاب المنير ..

.. وروعة التحدى الاعجازى الخالد فى القرآن الكريم تتجلى أيضا فى هذه **الآية : « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان اصابه خير اطمأن به ، وإن اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين » (٢) ..**

وكخلاصة لهذا الحوار مع العمالقة فإن هذا الإنسان عليه أن يتروى ، وبقدر ما يصل إلى قمة العلم ، فهو يؤمن **« وقل رب زدنى علما » (٣) ..** وأتساءل أيضا : كيف يغفلون عن هذه الآية الكريمة وهى واضحة الدلالة : **« سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » (٤) ..** و **« فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم » (٥) ..** (صدق الله العظيم) ..

* * *

(١) الحج : ٨
(٢) الحج : ١١
(٣) طه : ١١٤
(٤) الأعراف : ١٤٦
(٥) النجم : ٢٩ ، ٣٠

(٩)

انسان ربع القرن العشرين الأخير وتطلعاته العلمية المثيرة

هل هناك حدود للعلم ، لا ينبغى عليه أن يتخطاها ؟

وهل يصـــل العلم بجموحه الى نقطة الاقتراب من الدين أم الى نقطـة اللاعودة ؟

كان هذا السؤال مثارا لتفجير عدة حوارات مع الدكتور رشدى فكار ـ نبدأ بأولها :

المبحث الأول

المحاولة العلمية لاقتحام مجهول الموت

● فى منتصف الثمانينات من هذا العصر .. يطالعنا الإنسان المعجزة .. الإنسان الذى ضارب فى كل الموائد ، وخسر فى كل الموائد أيضاً ..

اليوم بلاشك ، ومنذ بداية ربع القرن الأخير .. بدأت تطلعات الإنسان المفكر ، الإنسان الباحث .. الإنسان الذى يحاول أن يتحدى المستحيل ، تتجه به ليس فقط إلى أن يقف فى طموحاته عند حد ما يجرى فى الحيـــاة ، وإنما أيضاً ، بدأ يزعم أنه سيقتحم الفرصة الأخيرة من المجهول ، وهى ماذا بعد الموت ؟ ..

لا شك فى أن هذا الاتجاه .. مغامرة .. وهى مغامرة تكتسى بالطموح إلى التعامل مع المستحيل ، كما تكتسى بالهروب إلى الأمام ، والخروج .. خروج الإنسان من الإنسان .. فالإنسان حالياً وهو يعانى من عدم قدرته على أن يساير موكب الحياة يحاول أن يتجاوز الحياة ، فيبحث فيما بعد الحيـــاة ،

والآن ما هى نتائج هذه المحاولات الفكرية ، أو هذه التأملات التى تتسم بطابع التجريب ، وتحتمى بعلمية المخبر والمعمل ، لا بمجرد المضاربة الذهنية التجريدية ، الفلسفية .

فى منتصف السبعينات تألفت مجموعة من الباحثين الأمريكيين فى الطب العصبى ، وأيضاً فى الفلسفة وأشرف على هذه المجموعة عالم كبير هو البروفيسور « ريمون موديه » ، وأستاذة قديرة هى الدكتورة « اليزابيث هوث » وأخرجوا كتابا كان له دوى عالمى هو « الحياة بعد الحياة » ، وقد شجعهم النجاح العالمى فى مواصلة دراساتهم ليخرجوا كتابا ثانيا بعنوان « أضواء على الحياة بعد الحياة » ، وترجم الكتابان إلى لغات العالم .. وهذه الدراسات التى حاولت التجسس على غرفة المجهول .. مجهول الموت ، نالت التشجيع والتقدير فى الأوساط العلمية ، ولكنها قوبلت بالتحفظ والنفور ، بل وبالاحتجاج فى أوساط أخرى ، خصوصاً من قبل الكنيسة ، وبعض المتشبثين بمبدأ : من تدخل فيما لا يعنيه لقى ما لا يرضيه .

ماذا فعلت هذه المجموعة من الباحثين ؟

قامت برصد ١٧٠ حالة لمرضى ماتوا موتا إكلينيكيا (الموت الإكلينيكى هو المرحلة التى تسبق موت المخ التى عندها يدخل الميت فى مرحلة ثانية هى الموت البيولوجى .. النهائى) وفترة الموت الإكلينيكى تتميز بالسكون التام ، وقد تستمر إلى نصف ساعة ، ومع توقف الحياة تماماً يظل الجسم محتفظاً بحيويته ، وبقائه المتكامل المتجانس ..

المهم أن حالات الموتى (إكلينيكيا) التى أجريت عليها هذه التجارب كانت لأناس من مختلف مراحل العمر والثقافات والمهن ، ومن الرجال والنساء ، وكانوا من ولايات متفرقة متباعدة من أمريكا ، وقام الإخصائيون باستنطاق هؤلاء الذين قدر لهم أن يعودوا إلى الحياة إما بالتدخل الطبى السريع أو بالمصادفة ..

وكان السؤال الموجه الى كل حالة منهم هو : هل تتذكر ما وقع لك خلال هذه الفترة ــ فترة الموت المؤقت الاكلينيكى ؟ ..

.. وحاول الأخصائيون أن يركزوا من خلال الإجابات على القاسم المشترك الأعظم فى رواياتهم ، أى ما اتفقوا جميعاً على الشعور به ، واستبعدوا الاستثناءات .. أى الأمور التى شعر بها البعض ، ولم يشعر بها البعض الآخر :

ما هى الأقاويل التى اتفقوا عليها جميعاً ، وبلا استثناء ؟

سمعوا أصوات صلصلة ، ورعد واهتزاز رهيب وأصوات مزعجة ..

ثم ألقى بكل منهم فى ممر مظلم طويل ، انتهى فى نهاية المطاف باللقاء بمن ماتوا من الأصدقاء والأقارب الذين كانوا ينتظرونهم فى آخر الممر ويرحبون بهم ، ويشجعونهم على الحضور ..

واتفقوا جميعاً على حدوث انفصال تام عن الجسد بحيث يرى الشخص جسده من عل ، بكامل جزئياته ، وأعطى بعض المستجوبين تفاصيل محددة لما يدور خلف أسرتهم ، وهم فى حالة الغيبوبة الكاملة ، وأعطوا بعض الإيماءات التى صدرت عن الممرضات وبحركات وتعرفات من وقائع خفية من المستحيل على الشخص أن يراها ، وهو فى موقعه فى السرير ، وحددوا حركات بعض الأطباء التى قاموا بها فى حالة الإنعاش ، وكرروا بعض الكلمات التى قالوها فيما بينهم بأصوات هادئة ، حتى لا يسمعها من يحيط بهم بمعنى اللغة الرمزية بين الأطباء ، برغم أن بعض هؤلاء المستجوبين لم يكن لهم تكوين طبى ..

ومن الأمور المتفق عليها أيضاً بين المستجوبين عملية عدم الرغبة فى العودة إلى الجسد ..

.. اما عن الاستثناءات فقد لاحظ بعض المستجوبين ممن كانوا يتمتعون فى حياتهم بسلوك قويم وطيب خيوطاً من النور تساعد على الاسترخاء والهدوء والرغبة فى التطلع والاستزادة من هذا النور ..

اما عن الكتاب الثانى .. لفريق العلماء الذين يرأسهم « ريمون مودى » « أضواء على الحياة بعد الحياة » .. فهو يربط بين معطيات الكتاب الأول

وبين دراسات « يونج » عميد علماء النفس المعاصرين ، وتجربته الشخصية فى مواجهة الموت الإكلينيكى ، « ويونج » هو رائد لمدرسة التحليل النفسى ــ الذى لا يركز كما هو الحال عند فرويد عن الغريزة ــ وإنما يوســـعه ويربطه باللاشعور الجمعى ، أو الترسيب للاشعور الجمعى عبر الحضارات ، بمعنى أنه حاول أن يوسع قضية التحليل النفسى ..

المهم أن « يونج » عندما أصيب بأزمة قلبية وراح فى غيبوبته ، وروى نفس حكايات الأصوات المزعجة والصلصلة والاهتزازات الشريدة ، والممر المظلم ، ولقاء الأقارب الذين ماتوا ، والانفصال الروحى عن الجسد .

ويقول الدكتور رشدى فكار : حينما نتحدث عن موضوع علمى يستند إلى شهادة أحد عمداء علم النفس « يونج » ، و ١٧٠ حالة ويقوده خبرة علماء أمريكا فى الجهاز العصبى والفلسفة ، فنحن لسنا أمام قضية شعوذة وتهريج ، وإنما أمام قضية تستحق منا وقفة ، لأنهم باحثون معمليون ، يحاولون أن يتعاملوا مع المستحيل .

* * *

● **لماذا هذه البحوث أصلا ؟**

هذه البحوث إن دلت على شىء فإنما تدل على أن هذا الإنسان .. إنسان القلق الأصيل ، الذى يطلق عليه الآن إنسان نهاية القرن العشرين ، إنســان القلق الأصيل ، أو إنسان التعامل مع المستحيل ، يعنى هذا الإنسان الذى تجاوز حدوده ، ولم يعد يرضى بأن يمشى على الأرض ، وقرر أن يتحرك فى الفضاء ، بالطائرات ، ثم تجاوز هذا التحرك فى الهواء ليمشى خارج الأرض .. يمشى على القمر ، هو إنسان فعلا متمرد على ذاته ، هو الإنسان الذى لا يريد أن يقبع حيث قدر له أن يقبع فى البقاء على كوكب الأرض ..

إنسان يمكن أن نسميه بالإنسان العملاق ، وهو فى نفس الوقت إنسان التفجير والتمرد وافتقاد الوزن ..

من هذه الزاوية يمكن أن نربط هذه البحوث بتطلعات الإنسان الذى ضارب أولا على رفاهيته ورخائه ، حتى تحقق له الرخاء الشامل ، والاسترخاء الكامل ، وبرغم ذلك أثقلت عليه الهموم بداخله لافتقاره إلى إطار الأصالة ..

لماذا كل هذا .. لماذا يحلم ؟ .. إن الإنسان القديم ، والوسيط ، وإنسان بداية العصر الحديث ، هو إنسان هموم تحيط به من كل جانب ، إنسان التعامل مع المشكلات الملموسة ، إنسان يجد صعوبة فى الحياة اليومية ، فى تعامله مع الأمراض ، وصعوبة فى التعامل مع المناخ والبيئة وأعاصير الجـو ..

أما الإنسان المعاصر فقد تجاوز هذه المشاكل بوسائل التدفئة والتبريد والسيارات والطائرات والصواريخ ، والإعجاز الطبى فى مواجهة الأمراض والحوادث بالعمليات الجراحية الخارقة ، وعمليات إعادة الصياغة بالتجميل ؛ ونقل الجلد والأعضاء ، ومعرفة القوانين البيولوجية والفسيولوجية .

إنسان استطاع فعلا أن يتحكم فيما يحيط به نسبياً ولكن تحكمه هـذا جعله يغفل جانباً هاماً وهو أن الإنسان القادر فى داخله ، الإنسان المتطلع المتسائل أبداً ــ لماذا كل هذا ومن أجل أى شىء أحيا .. أنا أحيا فعلا حياة مرفهة وهادئة حياة استرخاء وتمتع ولكن لماذا ؟

ثمة فراغ زمنى وخواء نفسى ومكانى ، بدون الإيمان كأنهم يقولون : **« ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا »** (١) .. أى أنهم يكملون مسلسل الدهريين ..

أما رسالة الأنبياء الأكرمين فنظرتهم إلى الحياة تقول : إن الحياة الدنيا بلاء وابتلاء .. ابتلاء بالشر وبالخير ، والإنسان مختبر من ربه ، وعليه أن ينجح فى هذا الاختبار .. فهناك إذن نهاية كبرى لهذا الإنسان ، وهى أعطيت

---

(١) المؤمنون : ٣٧

له بحوار السماء ، وأنه إن شقى أو سعد فى حياته فهو يعلم أنه مسافر ، وأنه عابر طريق ، وأن حياته كما صورها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كأنما جلس تحت شجرة ثم تركها وانصرف .

أما هؤلاء الدهريون الجدد فإن همومهم تنحصر فى أن هذا الإنسان لا يريد أن ينصرف ، كل منهم متمسك بالحياة ، وكل يريد أن يبقى فيها ، وكل يريد أن يتمتع بكل دقيقة منها ، وبالتالى افتقدت هذه الغاية الهائلة ، وهى أن الحياة ، بلاء .. والأخطر أن هذا الإنسان الدهرى يحاول أن يجعل من الحياة عبارة عن شقة مفروشة أبدية ! ..

ولهذا بدأت التساؤلات ، لماذا الموت ، وماذا بعد الموت ؟ لأنهم لا يريدون أن يرحلوا ، والمصيبة ــ وشر المصائب ما يضحك ــ أن همومهم فى عدم الرحيل مع خواء الإيمان فى نفوسهم يجعل الكثيرون منهم يتعجلون الرحيل دون وعى منهم ، وفى إطار من الاكتئاب النفسى الذى يرزحون فيه ، يتعمدون الانتحار للتخلف من علامات الاستفهام التى لا إجابة لها إلا فى حوار السماء . حيث يعود الإنسان راضياً مطمئناً قابلا لهذه الحياة كما أرادها الله .. ونلاحظ الآن موجة عالمية للعودة إلى الروحانيات .. ولاشك فى أن الإسلام يقود هذه المسيرة إلى الروحانيات لا عن طريق الدعاية والتبشير ، وإنما عن طريق التأمل والصلاحية وتقديم الإجابات الشافية لكل الأسئلة المعلقة الحائرة ..

إن الإسلام باعتراف الخصوم قبل الأصدقاء يشق طريقه وأصبح له قدرة لا يمكن إغفالها فى ساحة الكون الفكرية ، الإسلام نشط وحى وموجود ، وهناك فى الآونة الأخيرة تطلعات بوذية لاسترجاع الروحانيات ، وهناك تطلعات موضوعية للمسيحية ، ثم تيارات مسيحية تحاول أن تخفض من حدة الغموض فى العقيدة المسيحية ، وتحاول أن تعقلنها بروح العصر ، وهى بالطبع قضية ليست سهلة ، ولكنها جديرة بأن يشار إليها ..

حتى اليهودية تحاول بدورها أن تقود مسيرة الاتجاه للروحانيات فى مشارف القرن الحادى والعشرين ، بمعنى أن تستقبل الإنسان الجديد المندفع للإيمان فى غرفة الانتظار الكونية .

نأخـذ مجـرد مثال : دراسة « هارفى » .. التى تحمـل عنـوان : « أباطيل سقراط » ، وهى بالطبع إلى جانب ما فيها من شروح وتفصيلات تتجه أساساً إلى فكرة يروج لها اليهود الأمريكيون الآن ، وهى أن اليهودية ترتكز على الاتجاه البروتستانتى ، يمكنها أن تقود الكون ، هذه هى خلاصة نظرية هارفى ، وهى تمثل الإبراهيمية الأساسية ، وديانة سيدنا إبراهيم ، وإنها الجذور الأولى .. وبالطبع لهـا الطابع السـياسى المقنن ، وتوضـح الضغوط التى تمارسها اليهودية الآن فى العالم ، وتحاول وهى الأقلية ، أن تتصدر وأن تقود غالبية الكون هذه ..

وفى هذا تطرف ومغالاة وتحميل للأمور بأكثر مما تتحمل .. كيف يمكن أن تتحول البروتستانتية ، وهى من أقدر الاتجاهات المسيحية المعتدلة المرنة المعقلنة .. كيف تسمح لنفسها أن تكون جسر عبور تعبر عليها اليهودية لتقود العالم ؟ ! .

أعتقد ــ يقول الدكتور رشدى فكار : إن نظرية هارفى فى أباطيل سقراط : وهو الكتاب الضخم الذى يقع فى ٨٠٠ صفحة جواز مرور لتقود اليهودية أمريكا البروتستانتية المسيحية ، ثم تقود العالم ..

* * *

المبحث الثاني

الكمبيوتر .. واستئناس المستحيل

استمراراً لحديثه حول الإجابة على سؤال عن حدود آفاق وطموحات العلم وهل لها من نهاية ؟ .. يواصل الدكتور رشدى فكار الحوار :

.. فضولية الإنسان الذى اطمأن لتفجير طاقاته الذهنية جعلته يحاول أن يستغل هذه الطاقات التى استطاعت أن تقدم لنا الكومبيوتر ، وأن تفجر لنا الذرة ، وأن تعبر الغشاء الخارجى للأرض وتخترق حجب الفضاء ، وتخطو بنا هذه الخطوات العملاقة إلى القمر ، بل ونمشى على صخوره .. وجعلته فضوليته يتساءل : وماذا وراء الكون ؟ .. تفتحت شهيته المعرفية إلى ما لا نهاية .. وفى أحد المؤتمرات العلمية العالمية التى انعقدت فى باريس ، وحضرتها مشاركاً ، طرحت على بساط البحث قضية الإنسان ومستقبل العلم ، ولاحظت فى هذا المؤتمر أن ثمة اتجاه إلى حد ما يطرح رأيا بأن للطموحات حدود ، ويخشى أن هذه الطموحات تتجاوز الإطار المشروع إلى اللامشروع ، وتتحول إلى نزوات ، وإلى تفريغ للمردودية المادية للأرض فى بحوث ستصل بنا فى النهاية إلى نقطة البداية ..

ولاحظت أن ثمة اتجاه ثانى معاكس لهذا الرأى يقول : نحن فى منطلق عصر جديد هو عصر الكومبيوتر الذى سيقودنا إلى استئناس المستحيل — بمعنى أن ما يبدو مستحيلا سيصبح ممكنا وجائزاً ثم مستأنساً .. ويقول أصحاب هذا الاتجاه إن الكومبيوتر فى الثمانينات حالياً يسهل ويختزل كل ضروب الحياة ، فى العلاقات العامة ، وفى المسافات ، وفى تراكم المعلومات ، وفى إعطاء نتائج ، وقرارات فورية لقضايا معقدة للغاية ، كانت تحتاج لسنين للوصول إليها .. وغداً — وغداً لناظره قريب — سيدخل الكومبيوتر الأسرة وسيصبح لكل إنسان كومبيوتر ، وسيصبح الكومبيوتر هو العقل البديل ، وبالتالى يمكن للعقل أن يستأنس المستحيل لأن الكومبيوتر سيكون

بالنسبة له إطار أصالة ، يغنيه عن التردد ويحميه من التلكؤ والجبن ، ماذا سيقدم لنا الإنسان الكومبيوتر ؟ ..

سوف يستغنى تماما عن المجهودات التى يبذلها إنسان اليوم ، ويصبح هذا الإنسان هو المنظم للكومبيوتر القادر على أن يستغل قدراته فى أن يتعامل مع ما بعد الكومبيوتر ، يعنى يستطيع أن يقفز فوق الكومبيوتر ليكتشف كومبيوتر أعقد وأكثر قدرة ، أى ليختزل المختزل ، ومجموعة من الباحثين الفرنسيين ترى أن الكومبيوتر سوف يقلب الأمور رأساً على عقب ، وأن كثيراً من الطموحات التى يعطى لها أهمية حالياً سوف تصبح ثانوية فى المستقبل القريب ، وتتداعى أمامه بالتالى طموحات جديدة تتمشى مع القدرة المتنامية للكومبيوتر .. الذى يحضر له الأكل مع الإنسان الآلى المبرمج ، الذى ينظم له الغرفة ، ويساعده أيضاً على النوم ، بل يساهم فى تفكيره . وسيقف الإنسان عند رؤوس الموضوعات فقط ولا يشغل ذهنه بتفصيلات الجزئيات ، وبذلك سوف يصبح لديه الفراغ الهائل الذى يستغله فى إطار الخلق والإبداع والابتكار .

وفى مواجهة هذا الرأى الذى يشيد بدور الكومبيوتر كمعين لتطور الإنسان وتقدمه يتساءل الدكتور رشدى فكار : ولماذا لا تبدو قضية الكومبيوتر معاكسة لهذا التصور ؟ ..

إنه قد يكون سببا فى خسارة الإنسان لا ربحه ، ومدعاة لإزعاجه ، بل ولتبليد حسه وفكره .. بمعنى أن هذا الإنسان الذى يكابد ويفكر ويشعر ويتأمل ، ويتعاطف ويتفانى . بدوره سيقلد الكومبيوتر بعد أن قلده الكومبيوتر فيفتقد العواطف والمشاعر والمعاناة .. والمعاناة من المنطلق فى اعتقادى أن نراها بمعيارية سلبية ، فهى كثيراً ما تكون وراء الخلق والإبداع ، خصوصاً فى الفن والفلسفة ، أى تدفعه إلى أن يتأمل لأنه يعانى ، لأنه يشعر بنفسه وبالآخرين . أما إنسان الكومبيوتر المقلد له ، فلن يتأمل أو يشعر بالآخرين ، ذلك لأن الكومبيوتر قفل عليه الدائرة ، وحوله إلى إنسان الأرقام والحسابات المضمونة المحكمة ..

* * *

المبحث الثالث

انسان الحيرة .. ونظرية الذكاء الكونى

يتواصل الحوار مع د. رشدى فكار عن تجاوزات العلم وحدوده فيقدم صورة متشائمة ترسمها مجموعة من قادة المسئولين عن التقدم التكنولوجى والبحث العلمى التطبيقى فى منظمة الأومايثى ، وهى أرقى مؤسسة جامعية فى الولايات المتحدة الأمريكية بمعهد ماسوشوتى التكنولوجى ، وهذه المنظمة فى الواقع لا تضم مجموعة واحدة ، بل تضم مجموعة أولى هى مجموعة « فورستر » ، ومجموعة ثانية هى مجموعة « ميدوس » ومجموعة « فورستر » تضم ١٥ عالما أكاديميا يعملون تحت إشرافه ، وقد أخرجت نظريته بعنوان « ديناميات العالم » ، « وميدوس » بدوره قام بتصحيح النموذج الذى أطلق عليه النموذج الثانى وأجرى تصميماً آخر أسماه النموذج الثالث ، وعرف أيضاً بعنوان شهير شهير هو : « نظرية حدود التنمية » ، وللعلم هذه المجموعة الفكرية لا تعتمد على مجرد التحليق الفكرى ، وإنما هى مجموعات علمية تكنولوجية ترتكز على الجداول الرياضية ، والكومبيوتر .

ما هى بالتحديد أبحاثهم ومعطياتهم العلمية ونتائجها ؟

لقد قام الباحثون والعلماء والأكاديميون بحصر شامل لإمكانات الكون فى السنوات القادمة وتطوره الديمقراطى وتطوره التكنولوجى والعلمى وطموحاته ، وأدخلت هذه المعلومات فى الكومبيوتر فماذا قالت مجموعة « فورستر » ومجموعة « ميدوس » ؟ لقد التقيا فى أنهما أعطيا نهاية تقريبية لديناميات العالم أو حدود التنمية فى بداية القرن الثانى والعشرين ، حيث تنتهى حدود التنمية ، ويصل العالم إلى الاختناق ، وقالوا إن هناك منطقة تهوية مدتها ١٢٠ عاماً قبل كارثة الاختناق ، أى أنهم وصلوا إلى الطريق

المسدود الذى تحدث عنه الفلاسفة ولكن بالبحث الرياضى العلمى التطبيقى .. وقالوا فى تبرير ذلك إن السبب يرجع إلى أسلوب إنسان العصر الذى يعمل على الاستيلاء بالاستهلاك ومحاولة امتصاص خيرات الكون بطريقة واعية أو غير واعية بنوع من الترف أو التلهى بالاستهلاك .. هذا مع وجود التناقضات الحادة .. هناك بشر لا يجد ما يأكله ، وبشر آخر يلقى بكل شىء ويأخذ أقصى ما يستطيع ، ثم يتحول كل ما يتبقى إلى سواقط ونفايات .. هذه الصورة تؤكد لنا إلى أى مدى وصلت الحيرة الحقيقية لمستقبل البشرية ! .

ولكن ماذا عن الحلول التى قدموها لهذه الحيرة ، وهذا الطريق المسدود ؟

.. بالنسبة لـ « فورستر » فهو يقول إن هناك حلولا تهدىء أو تخدر .. حلولا تخديرية ، وقدم بالفعل حلولا تبدو خرافية مستحيلة ، مثل إلغاء الصناعة نهائيا ، ونادى بأن يعتزل الإنسان الصناعة بعد أن وصل إلى قمة مجده فيها .. قال إن الحل الجذرى هو فى الاعتزال الصناعى أو الوصول إلى التدنى الكافى ، والإنهيار بتعميم التلوث ، وانخفاض المستوى الصحى فى المناطق المختلفة ، ومحاولة تطبيق نظرية البقاء للأصلح ، أو الانتقاء العنصرى عن طريق مفهوم أن على غير القادر على أن يحيا فى ظل التلوث أن يرحل ، وهؤلاء بالطبع هم الضعفاء من غير القادرين أو المستضعفين ، وهنا تبدو قضية سوء النية فى تعميم التلوث لكى يخفف من الدفع الهائل للنمو السكانى « الديمجرافى » على مستوى الفئات المستضعفة غير القادرة على مواجهة هذا التلوث ، وهذا طبعاً حل لا أخلاقى ، وعودة إلى العنصرية الجوبونية ..

.. وهناك حل آخر لا أخلاقى تلمس ظواهره الآن فعلا ، وهو مطبق نسبيا .. حل الاستنزاف الواعى المحسوب عن طريق الحروب المحلية وتشجيعها ، أو حل عن طريق عدم مواجهة الكوارث الطبيعية بمعنى دع الكوارث تعمل عملها ، وهذا ملاحظ فى أزمة الجفاف فى المناطق الإفريقية المنكوبة به .. فقد حدث نوع من الرضا الغنمى عن الكوارث الطبيعية ، ومنطقهم يقول : بشرط حوالينا لا علينا !

● الذكاء الكونى :

وثمة نظرية تسود الآن فى الغرب ، وتمثل انقلاباً فكرياً مجتاحاً لا يقوى على صده أحد ، وهى تبرهن على أن حدود العلم اللانهائيـة هى العـودة للإيمان برغم رحلة تبجحه وعناده وحيرته وقلقه .. وهى نظرية الفضـاء الكونى ، أو الذكاء الكونى ، وهى من وضع « فريد هويل » وهو مؤسس وعميد معهـد التنظير الفضـائى ، ومن أعظم علمـاء الفلك بجامعـة « كمبريدج » ، وهو بريطانى الجنسية ، وقد استدعته ملكة بريطانيا مؤخرا ومنحته أرفع ألقاب النبلاء ..

وهذه النظرية تهز الآن كل الأوساط العلمية لأنها لم تكتف بطرح اجتهاد جديد فى إطار نظريات الفضاء ، وإنما وضعت كل النظريات السابقة بما فيها النسبية لأينشتين والفضائية لساجان والوجودية السارترية ، ونظرية البنج بونج ، ونظرية التبخر المعروفة لدى الفلكيين وعلماء الفلك ونظرية الثقوب السوداء ..

لقد صفى « فريد هويل » حساباته مع الجميع ، حتى دارون دحض تماماً نظريته فى التطور والارتقاء الطبيعى والعنصرى .

والمهم أن « فريد هويل » هذا ليس فيلسوفاً ، وإنما هو عالم فضـاء ، رياضى ، وقد أكد ببحوثه العلمية وخصوصاً من يقرأ نظريتـه بعمق ــ أن الأجرام السماوية والشهب التى سقطت على الأرض ، حينما تم تحليلها ، وجد عليها كائنات ملتصقة بها أذكى وأقدر من كائنات الأرض ، وهذا يعنى أن ثمة حيوات أخرى مؤكدة لا مجرد فرضية فى الكون ، بمعنى أن هناك ذكاء كونياً متدرجا وبالطبع تقود فى النهاية إلى الألوهية ، وبذلك صـفى « هويل » حسـاباته مع أخطر نظرية سـادت فى السبعينات حتى يومنـا هذا ، وهى نظرية الصدفة والضرورة ، فالمعروف أن العلماء « الأذكياء » فى علم الأحياء وعلم الحياة والعـديد من العلوم الفيزيائيـة كثيراً ما يلقون أفكارهم التى لا يجدون تفسيراً لها على الشماعة ، التى هى بمثابة قميص عثـمان ، فيلحقـوها بالصـدفة والضرورة ، التى أصبحت إطاراً تنظـيريا بلا حدود ..

إذن لا صدفة بالاكتشاف الجديد ، ولا ضرورة ، والحياة فى هذا الكون تسير بتوجيه إلهى ، والذى قلب نظرية النشوء والارتقاء أنها كانت تتصور أن الحياة نشأت وتطورت على الأرض بالصدفة ، والآن أثبتت الشهب الساقطة ومعها بقايا الكائنات الفضائية الأكثر ذكاء وتطورا من الإنسان خارج نطاق الكرة الأرضية سقوط دارون فى بئر غبائه ، بعد أن فتن بنظريته علمــاء ومفكرين يرددون نظريته كالببغاوات ، بأن الإنسان من أصل القرد ، ولا وجود لسيدنا آدم « أبو البشر » ـ حاشــا لله ـ والعجب العجاب أن الشــق الماركسى الملحد لم يرد على « فريد هويل » بكلمة ، ولا الشق البرجوازى الغربى الملحد أيضاً قوى على الرد .. والمهم أن مجلة « البــارى ماتش » الفرنسية العالمية أفردت لنظرية الذكاء الكونى ١٧ صفحة برغم حساسيات الثقافة الفرنسية تجاه الانجليز عموماً وثقافتهم الإنجلوساكسونية ، وقد كان بمقدور الفرنسيين أن يلتزموا الصــمت احتراماً لعلمائهــم من مجمــوعة « باستير » ومجموعة الضرورة والصدفة لـ « جاك مينور » ولكنهم انحنوا لحقائق العلم الدامغة التى تؤكد وجود الخالق جل وعلا ..

* * *

● العلماء انتجوا خلية ضفدع :

.. تجربة علمية أخرى توضح فضول الإنسان الذى لا يقف عند حد .. والتجربة بدأت بسؤال : ما هو المدى الذى يمكن أن يصل إليه العالم فى معمله ؟ .. وحول هذا السؤال اجتمع فى مدينة لوزان بسويسرا ٢٠ عالما فى شتى التخصصات العلمية والإنسانية فى لقاء دام أسبوعا ،وبعد مناقشات مستفيضة قالوا كلمتهم : نعم للتحدى العلمى ، ولكن لا داعى للمجازفات غير المحسوبة ، وبدأت تدور القضية حول التجارب العلمية التى يجريها بعض علماء البيولوجيا « الأنجلوساكسون » والتى تهدف إلى تخليق أو تصنيع الخلايا ، ومحاولة توليف خلايا بشرية وحيوانية من أجل صنع إنســان أو حيوان من غير وسيلة التلقيح الجنسى ، إما فى صورة طبق الأصل أو فى صورة جديدة لم يعهدها الكون ..

وقد وصلت هذه التجارب المعملية البيولوجية إلى حد الإعجاز العلمى

حينما نجحت بعد ولادة طفل الأنابيب إلى تصنيع خلية ضفدع دون تلقيح ، ووصل بها الفضول إلى دمج خلية إنسان بخلية فأر ، مما كان نتيجته أن التهمت خلية الفأر خلية الإنسان وشجع ذلك العلماء إلى محاولة إنتاج الفأر الإنسان ! .. وكان لابد من وقفة للعلماء ليتأملوا مسيرة التطور العلمى ومدى حدوده ، قبل أن ينفلت الزمام مع تحدى قوانين الطبيعة ، وقبل أن تخرج من بين جدران المعمل كائنات وحشية مشوهة تعيد إلى الأزهان أسطورة « فرانكشتين » ! .

ولعل مما زاد من تأزم الموقف أن بعض العلماء أغلقوا معاملهم وأحدهم وهو أمريكى انتحر فى معمله ، وذلك نتيجة لفقدان توازنهم النفسى بين طموحاتهم العلمية الخارقة للطبيعة ، والرعب الذى داخل نفوسهم مما سيؤول إليه حال الإنسانية حينما ينفلت الزمام .

ويقول الدكتور رشدى فكار : إن هناك عدة تيارات برزت فى هذا اللقاء الذى ضم علماء الطبيعة والعلوم الإنسانية الذى يدور حول التحدى العلمى أو التنبؤ العلمى بالنسبة للقرن القادم ، فقد برز اتجاه يشجع مسيرة علم البيولوجيا على اطلاقها ، وترك الحبل على الغارب لقضية الدراسات الطلائعية فى ميدان علم الأجنة كما يحلو للبعض تسميته ، ودفع الطموحات بغير حدود ويقول العلماء من أنصار هذا التيار إن معجزات العلم فى القرن الحادى والعشرين لو أطلع عليها أبناء نهاية القرن العشرون لاعتبروها من الخوارق مستحيلة الحدوث ، وخصوصاً فى مجال الأجنة ، وهم يتنبأون بأنه على مطالع القرن القادم سيكون على ظهر الأرض مالا يقل عن ١٠٠ إنسان من صنع الإنسان !

.. وثمة فئة أخرى أعطت ثقلها مع المضاربة والمجازفة « المحسوبة » لميدان هندسة الأجنة وتصنيع الخلايا باعتبار أن ركب العلم لا يتوقف ، وأنه لا يمكن للعلم أن يصيب إلا إذا أخطأ ..

.. وهناك اتجاه آخر وهو الذى كنت من أنصاره ـــ يقول الدكتور رشدى

فكار ــ اتخذ موقفا ــ لاأقول مخالفاً ، أو موافقاً ــ ولكنه يبدى التحفظ على أى مسيرة تتحرك ضد قوانين الطبيعة .. بمعنى أن علينا أن نجتهد فى إطار علوم الأجنة والبيولوجيا بصفة عامة ، ولكن مع مباركة قوانين الطبيعة ، وقلنا لا للاجتهاد الذى يقوم بتفجير هذا القانون المقدس الطبيعى الكونى الدقيق ، وذلك بدافع الإيمان العميق لأن الله سبحانه وتعالى خلق كل شىء وقدره بقدر ، وعلينا أن نحتاط فى مجال المجازفة بالقوانين الصارمة التى أنزلها الله تعالى .. ومنا من كان يرى أن هناك أموراً أهم من تجارب هندسة الأجنة فبدلا من أن نجتهد فى صنع إنسان جديد علينا أن نرفع عن الإنسان الموجود مشكلاته وتخلفه وأمراضه ..

كانوا يميلون إلى ابراز معاناة الإنسان الموجود ويرون ألا داعى هناك لأن تتعرض لأمور تدخل فى باب الفضول والكماليات ، ومن ناحية أخرى فإن العلم ــ وهذا ما أقوله بصوت واضح ــ إنه بقدر ما استطاع أن يعطى ثقة هائلة للعلماء فيما يفعلون ويقدمون للبشرية من ميزات خارقة ونتائج عملاقة، بقدر ما أقنع فئة أخرى من العلماء أيضاً بأن هذا التقدم العلمى أكد إلى جانب ماهو مؤكد الإيمان بخالق هذا الكون ، وأتذكر كلمة من أحد العلماء « إن الخالق لم يقدم لنا قمة الكمال فيما خلق فقط ، ولكنه قدم إلينا قمة الجمال أيضاً فيما خلق » .

ويستدرك الدكتور رشدى فكار ليقول: وليس معنى هذا أنه لم يكن هناك بعض الماديين الملحدين من علماء البيولوجيا الذين يقولون : أعطوا الثقة للمعمل ، لأنه سينتصر أخيراً فى قضية تخليق الإنسان ، وزعموا أن الإنسان سيخلق صورة منه ، وهو ما يزال على قيد الحياة ، بل ووصلوا إلى رأى يقول : بأنهم بالتالى سوف يتجاوزون الموت ..

.. وعن أطروحته العلمية داخل هذا اللقاء العالمى المثير يستطرد الدكتور رشدى فكار ليقول :

لقد دافعت ــ من واقع تخصصاتى الاجتماعية ــ عن الإنسان من حيث شموليته لا تجزئته بعيداً عن محيطه الاجتماعى ، بمعنى أننا لا يمكن أن

نعالج أغوار الإنسان بمعزل عن بيئته الاجتماعية التى تؤثر فيها وتتأثر بها ، ولم أقف عند حد دراسة الإنسان فى شموله فقط ، وإنما حاولت أن أربط هذا الشمول بمقوماته الروحية ، وتعامله مع الكون كقوانين طبيعية ، بمعنى أن الإنسان لابد له حتى يعى بإنسانيته أن لا يكتفى فقط بالنظر فى حياته اليومية الاستهلاكية ، وإنما عليه أن ينظر فيما حوله فى هذا العالم ليتأمل أين وضعه فى هذا الكون وما يحيط به من جبال ووديان ، ونجوم وحركة كونية هائلة ، فربما هذا يعيد إليه توزانه فى بعض لحظات الأزمة ، وهذا التـأمل الكونى إلى ما وراء الكون إلى الخالق المدبر لهذا الكون ..

.. **اما عن تجارب طفل الأنابيب ..** فقد أشـاروا إليها عرضا فى بداية اللقاء كمنطلق لنجاح علم هندسة الأجنة ، ولكن كان رأيى الذى أعلنته أن ذلك ليس بابتكار ولا بخلق جديد ، ولكنه إعادة صياغة لشىء معروف ، ويحدث كل لحظة فى عالمنا خصوصا فى عالم البحار فى مجال الأسـماك التى تبيض البيض ويتم تلقيحه خارج الرحم ، بل إننا نعـلم أن بعض المخـلوقات يتم تكاثرها بالانفصال والتكاثر بدون التلقيح الجنسى ..

وعموماً فقد اتفق المجموع من العلماء على : نعم للتحدى العلمى ولكن مع جانب من التواضع ، بمعنى : لا داعى للمجازفات غـير المحسوبة ، حتى لا يفلت عيار العلم فيما لا طائل من ورائه ..

❋ ❋ ❋

(١٠)

أمتنا .. ألى أين ؟

● حاليا تطرح قضية الأمة العربية الاسلامية .. أمتنا الى أين ؟
مفتاح للحوار قدمته للدكتور رشدى فكار .. وينطلق فى الاجابة ..

.. نلاحظ ان المواقف تختلف ، بين متفائل ، ومتشائم ، ومتردد فى الحكم ..

المتشائمون : وهم أكثرية يذهبون فى تشاؤمهم إلى حد الغوص فى التاريخ والمقارنة بين ما حدث فى الأندلس ، وما هو حادث الآن فى هذا العصر .. نهاية الأندلس وعملية التقليص ، ولا أقول الانتكاسة ، التقليص للمد الإسلامى والعربى ، حتى سقوط غرناطة بعد مقاومة استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان كآخر حصن عربى بجزيرة أيبريا .. ولكن لنتوقف قليلا .. لقد كان لنا بعد الأندلس أرضا ، أما الآن ، فأين نذهب ؟ .. لو سقطت غرناطة مرة أخرى فليس لنا بديل ! .. المتشائم إذن يعطى مقارنة على مستوى الضياع بينما المتفائل ينظر إلى هذه الأمور كلها على أنها طبيعية .. فالمفروض أن الأمة لابد وأن تواجه العثرات ، ولكل جواد كبوة ؛ ولابد من الكبوات بل ولابد من الانتكاسات ، كالطفل حينما ينمو فى مراحل طفولته ، لابد حتى يتعلم المشى من أن يقع وأن ينقلب ، وأن ينجرح .. الخ .

فهذه أمور منتظرة لمجتمعات عربية إسلامية خرجت من الاستعمار بجسد جريح ، ويحاول أن يستعيد صياغته فى دور النقاهة ليقلع إلى مرحلة جديدة مغايرة .. أما المتردد فى الحكم ، فيحاول أن يحكم بمستوى ظرف أو مستوى موسمى ، يعنى يمكن له أن يعطى حكما فى الصباح ثم تتغير الأحداث بعد الظهر فيعطى حكما آخر ، بمعنى ليس له طبيعة استمرارية تاريخية ، أو استمرارية مستقبلية ، فهو لا يرى التاريخ ولا يرى المستقبل ، وإنما يرى الحاضر ، ويحاول دائما أن يعطى أهمية لطبيعة تعقد العلاقات وفى ذهنه

المثل القائل « اشتدى يا أزمة تنفرجى » ، لأن الشيء يطرح نقيضه للضرورة والالتزام مادام هناك كينونة .. مادام هناك ماهية لابد وأن يكون لها نقيض ، فإذا كانت هناك أزمة فلابد لها من انفراج مهما طال الزمن ، فإذا لم تنفرج اليوم فربما تنفرج غداً ، أو بعد غد ..

.. الشيء المؤكد أننا فعلا فى أزمة ، والاختلاف فى تقويم أبعاد هذه الأزمة .. هل هى أزمة عضوية ، قد تؤدى إلى تدمير كلى أو جزئى لكيان الأمة ، أم أزمة وظيفية ، حيث تتوعك فى عطائها الوظيفى ، ويكفى أن تعاد صياغته على مستوى معين فتنطلق الأمة فى إطار موضوعى .

* * *

المبحث الأول

مســـئولية الأزمـــة

● هذا يدفعنا الى تحديد : هل ألازمة تلاحظ على مستوى فئة محدودة من امتنا ، وهى المسئولة عن هذه الأزمة ، أم انها تلاحظ على مستوى الفئات برمتها ..

فمن الممكن أن نبسط القضية فى فئتين :

هناك الجماهير العريضة ، وهى تمثل الذخيرة أو الكنز وقدرة الدفع ، وقدرة العطاء ، بل والمستودع الحقيقى للفعل وردوده بالنسبة للأمة ..

وهناك فئة القيادات .. قيادات الأمة على مســتوى القرار ، والفئــة المثقفة ، أو « الانتليجينسيا » وهم المفكر والعقل المفكر للأمة ..

هل الجميع فى أزمة ؟ .. هنا نجد اختلافاً ، هناك من يجسد الخطيئة فى القيادة ، ويعتقد أن الأزمة نتيجة لأزمة القيادات التى هى ليست على مستوى الخطورة والمسئولية التاريخية لهذا العصر .. عصر المخاضات والمواجهات الحضارية مع خصم عنيد وشرس ، لا يريد فقط أن يعيش إلى جانب الدار ، بل ويستحوذ على الدار ..

وهناك من يطرح الأزمة على مستوى جماهيرى خصــوصاً هؤلاء من يتبنون القضايا الاحصائية والتحاليل العلاقاتية ، أو البنيوية الوظيفيــة .. فيقولون : ماذا ننتظر من أمة أغلبيتها جاهلة ، أمية ، فقيرة ، وشعوب فقيرة ، وتعانى من أمراض التخلف ، والأمراض الصحية ، والاجتماعية ، بمعنى أن الجسد ذاته يعانى من تطور غير سليم على مستوى بيولوجى ، فهو يعانى من الطفيليات ، ومن الميكروبات .. إلخ ..

وغالى البعض ليزعم أننا نعيش فى إطار غير الكون ، وأننا فقط بلينــا بهذه الأمور ، وهى نظرة عنصرية تضاف إلى هذه الرؤية المظلمة المعتمة .

وهم يطرحون الأزمة على مستوى جماهير غائبة لا بوعيهــا وحسب ،

وإنما أيضاً بجسدها لأن الجسد متعب ، وغير قادر على الإنتاج ، والعقل غير قادر على العطاء لأنه عقل أمى .. العطاء إذن غير موجود .. عمومية الفقـر على مستوى الغالبية ..

كيف يمكن تصور قيادة بلا سفينة ، أو كيف يمكن تصور ربان طائرة بلا طائرة .. الطائرة فى حد ذاتها غير قادرة على الإقلاع ـــ لابد من أن تقلع لتكون لديها قوة الدفع الهائلة ..

وهناك من يميل إلى تجسيد الخطيئة وتحمل الفكر لوزرها ، إن الفكر العربى المعاصر فكر متوعك ، وغير قادر على الاســـتيعاب ، وليس فقط استيعاب الأرضيات التاريخيـــة ، بل وغير قادر على اســـتيعاب حاضره ولا استيعاب مستقبله ،ولا استيعاب ما يجرى حوله ، فهو فكر انفعالى ، فكر ارتجالى ، فكر ينتظر الفعل حتى يقوم بدور ردود الفعل ، إن الفئة المثقفة أو المفكرة فى العالم العربى ، هى فكر بلا فكر بمعنى فكر بلا أرضـــية الفكر ، أى أنها خليط عجيب من بقايا الفكر الإنجليزى والفرنسى .. مزيج غريب من انعكاسات لفكر الحضارة الغربية مع بعض العناوين التى تنتمى إلى الدار ، يعنى هو فكر باطنه لا عـلاقة له بظاهره ، وجوهـــره أغلبـــه مســـتورد من الحضـــارات المعاصرة ، وبالتالى يسقط فى حبائل التبعية لها . كل هذه الأمور مطروحة وباصرار .. أمتنا إلى أين ؟

فى تصورى الشخصى ، بناء على معرفتى المتواضعة ، وانتمائى لأرضيتى التاريخية ، ومعرفتى بما يجرى فى هذا العصر على مستوى علوم الإنسان ، والعطاء الحضارى ..

أولا : أستبعد أحادية الإدانة ، يعنى أن الشـــعوب التى تحـــاول أن تجسد الخطيئة فى إطار انفرادى هى شعوب غير قادرة على مواجهة ما تعانى منه ، وقد واجه الشعب الألمانى المشكلة فيما بعد الحرب العالمية الثانية ، حاولوا أن يبحثوا من خلال فلاسفتهم عن الإدانة ، وقد عمموا مبدأ الإدانة ، بحيث لا تتجسد فى شخص ألمانيا ، وإنما تنسحب على كل فرد من أفـــراد الأمة الألمانية ، حتى تستطيع الأمة أن تعى بالمسئولية ، وتشعر أن كل فرد فيها له نصيب من هذه المسئولية ، يعنى ليس من حق إنسان أن يقول للآخر

أنت المدان ، وأنا البرىء ، كل واحد لعب دوراً ، إما بعدم مشاركته ، وإما بعدم حركته ، بسكونه ، أو بتملقه أو بظرفيته ، أو بموسميته ، أو بموافقتــه ، أو بخوفه وتردده ، أو بالتجائه إلى التطرف والمغالاة فى الحكم والعنف مما أفسد عليه أى قدرة .. من هذه الزاوية ربما قضية انفرادية الإدانة ، أو أحادية الإدانة ، لا أميل إليها كثيراً ، بل أرى أن كل فئات الأمة آن لها الآوان أن تتحمل المسئولية .. ولكن هل هناك تدرج فى الإدانة ؟ يعنى أن هناك من يتحمل شطراً أكبر من الإدانة ؟ بالضرورة أقول : نعم ..

هناك فارق بين من يوعى ومن يعد ، بين من ينفذ القرار ، وبين من يتخذ القرار ، وهنا يمكن أن تتبنى حتى المبدأ القانونى .. هناك مبدأ المســئولية الكاملة ، والمســئولية المخصصة ، أو المســئولية المخففة .. إذا ما أردنا أن نصنف الفئات حسب الإدانة ، وحسب الشعور بالمسئولية ، ومع احترامى لمن لهم رأى يختلف مع رأيى ، فإن الفئة المفكرة تتحمــل الدرجــة الأولى من الإدانة ، ثم تليها فئة القيادة ، ثم فى النهاية الجماهير التى أضعها على مستوى المشــاركة فى المســئولية دون أن أحملهــا القــدر الأكــبر من الإدانة : **« ربنا ولا تحملنــا ما لا طاقة لنــا به »** (1) .. لأن ثمة مغالاة فى أن ندينهــا بشىء شاركت فقط فى تنفيذه .. وإذن المسئولية الفكرية تتصدر ، والقيادة لأنها هى أداة الأمة ، وهى فى موقع القرار . وقرارها مرتبط بالمحيط والمجال الفكرى لتتحرك فيه ، فهى تنعكس على البيئة الفكرية التى تتحــرك على رأســها وتعكســها ، فإذا كانت المــرآة التى تنعكس عليهــا هــــذه القيادات غير واضحة فى عطائهــا الفــكرى ، فكيف تنعكس بوضــوح ؟ .. من الصعب طبعاً .. لهذا فى تصورى : « آن الآوان لأن نقول لنخفف قليلا من فكرنا الموسمى الذى يصعب على القيادة فى ضوئه إتخاذ القرار ، وبالتالى ينتظر القرار ردود الأفعال على مستوى الفكر أولا ، والقرار الذى تتخذه القيادة يراه عقل الأمة ، فإذا كان دوره هو التبرير أو الصمت ، أو التفجير ، فإن القرار يكون بمثابة الحكم بلا حيثيات ..

❊ ❊ ❊

---

(1) البقرة : ٢٨٦

المبحث الثانى

الحرية .. واتخاذ القرار

● **ولكن كيف يعمل مفكرو الأمة وعقلها للتهيئة لاتخاذ القرار فى غياب الحـــرية ؟**

.. هو سؤال كبير ، ولكن قضية الحرية بدورها من الصعب أن تؤخذ على مستوى انفرادى ، وفى اعتقادى أن الحرية قبل أن تكون قرارا فهى بيئة ، هى مجال قائم على الثقة وعلى تبادل لا يتبنى مبدأ الإلغاء ، لأنه فى حـد ذاته مبطل للحـــرية ، أعنى بذلك لو أن الإنسان يكتفى بأن يقول : هـــذا لا يعنينى ، فهو فى حقيقة أمره قد اتخذ قراره ضد الحرية ، لأن قوله : هذا لا يعنينى .. هو إلغاء . لأن الآخـر يقــول له : وأنا بدورى لا يعنينى .. مطلقا ، أو يقول لمتخذ القرار : بما أنك قـــررت قـــرارك فى غيبتى فهـــذا لا يعنينى .. فكلاهما له مسئولية الإدانة فى الإلغاء .. هذا ألغاه بعدم قبوله نهائيا لرأى الآخرين ، كأن الحرية منه وإليه ، والآخر لأنه لا يعترف بالقرار أصلا الذى لم يشارك فيه .. ومن هذه الزاوية ، فى تصورى أيضاً الحرية بدورها المفروض أن تناقش فى جو قائم على الرزانة .. والحرية لا تلقن ، هى عبارة عن مجال وعن إطار متكامل لحياة داخلية أو باطنيـــة ليس فقط بالنسبة لكل إنسان ، وإنما للمجال الاجتماعى برمته ، بمعنى أننى لا أتصور الحرية إطار نجاة أو تقنين أو إطار قيمى ، بقدر ما هى إطار ممارسة ، فقـــد يكون لك طفلين فى بيتك ، وتعطى لطفل الحرية وتعطى للطفل الآخر نفس الحرية ، فتجد أن طفلا منهما لعبت الحرية لصالحه ، وطفلا آخر لم تلعب لصالحه مطلقا ، لأن المجال الذى تحركت فيه الحرية معه مجال علاقات .. وإذن الحرية لا نراها على مستوى طرف واحد ، وإنما على مستوى طرفين ، وهنا نعود إلى « جان جاك روسو » وإلى قضية التعاقد .. الحرية لابد أن تكون فيها أطراف متعددة ، وكل طرف يعى بدوره فى هذه الحـــرية ، ولا

ينتظر من الآخر أنه هو فقط يتحمل القضية .. ونعود إلى الموضوع ، وإلى السؤال : أمتنا إلى أين ؟ .

آن الآوان لأن نقول : ما هو النموذج الذى يتبناه الإنسان العربى ؟

هذه قضية مبدئية وتتطلب قبل أن نضارب بنوع من المجازفة والمغامرة ، ونفتعل أحداثاً على أنها فى النهاية برغم أننا مازلنا فى نقطة البداية .. أعتقد أن هذا خطأ حان الوقت لتصحيحه ، بمعنى أن ما نعانى منه هنا ربما أبدأ به للتصحيح .. ولست متفائلا كما أننى لست متشائماً ، ولكننى أتساءل وأقول ماذا تساوى بضع سنوات من تاريخ أمة عملاقة .. هل يمكن لبضع سنوات أن تعيق قرونا من الأزمنة .. ولماذا لا نقول بأن بضع سنوات أخرى قادرة على أن تصحح هذه البدع السلبية والمتوعكة ؟؟

إذن .. ليستعيد العربى والمسلم عموماً أنفاسه أولا ، ويستعيد رؤياه ولا يصاب بهوس مما يراه حالياً ، ويعتقد أن القضية قد انتهت ، وأنه أمام الأندلس الختامية ، وأن مصيرنا أن سيلقى بنا فى القلب الجنائزى بإفريقيا وهوامش آسيا .

.. أبدا .. هذا لن يحدث ولكن شريطة أن نبدأ ونعطى أهمية المجالات .. مجال الزمن ، مجال العلاقات ، مجال الفكر .. أنا أعتقد أن الخصم يجرنا الآن لاتخاذ قرارات فورية ، وعلينا ألا نتسرع فنقبل أو نتهور فنرفض .. نقول له دعنا نفكر .. لأننا نحن فى بداية الصراع لا فى نهايته .. أعطنى الفرصة لأحضر نفسى .. ، نرى حتى فى مباريات المصارعة بين الرياضيين ، تعطى الفرصة للتدريب .. دعنى أتدرب .. لا تحاول أن تسرقنى فى غيبة الزمن وتحكم علىّ انطلاقاً من جيل عانى أولا من المواجهات مع الاستعمار وخرج بجسده ملىء بالجروح ، وعانى من استيلاء فكر المستعمر ، ومن تسلط الاحتكار الكونى على خيراته ..

لا تطلب منى .. من هذا الجيل أن يفعل المستحيل .. أعطنى الفرصة

لأتوجه معك ، مع الفريق الآتى لأحضر له فريقاً آخر ، بمعنى : لنجعل هذا الجيل هو جيل البداية وجيل النهاية .. هذا جيل عاش التجربة وانتكس فيها ، ولو كان قد اعترف بأنه انتكس لحقق بعض الأمور الإيجابية ، ولكنه انتكاس وأزمة جيل لا تعنى أزمة كل الأجيال .

وهذا الجيل المتأزم ، أطالبه حالياً بألا يغالى فى هلعه من أزمته حتى لا يضيع على الأجيال القادمة قدرة التفكير ويشل حركة التاريخ — إنه يعانى من أزمة ، نعم .. ولكن فليحاول ما أمكن أن يضيق من الخسارات ما أمكن ، ويدخل إلى قبره مع أقل قدر ممكن منها ، وأكبر قدر ممكن من التحفظ وعدم الاندفاع والمغالاة ليعطى الفرصة لأجيال قادمة قادرة ..

ولا أقول لهذا الجيل : لقد انتهت مسرحيتك ، لا .. ولكننى أقول له : دع ولو فرصة للأجيال القادمة ولا تملى أزمة الحاضر على مسيرة المستقبل ، بمعنى ألا يظل هو دائماً الجيل الذى يطلب منه تساؤلات عن كل التاريخ ، فهو يجيب عن تساؤلات التاريخ الماضى والحاضر والمستقبل ، هو جيل عاش وتوعك ، وأكد أنه ربما لأسباب متعددة ، لا بالإدانة الأحادية أو الفردية كما أوضحنا توعك .. لأسباب متعددة لكثرة المعارك ولكثرة الطعنات التى وجهت لجسده أصيب بنوع من الدوار ، وأصبح فعلا مع بعض استثناءات ، فى لحظات يجد صعوبة فى استيعاب الصدمات التى توجه إليه بشراسة وبعنف — أطالب فقط بالمهدئات ، وبألا يحاول كما قلت أن يوقف عجلة التاريخ معه ، بمعنى أنه ليس مخولا لأن يعطى التزامات هو لم يكن مسئولا عن معطياتها فى المستقبل ، حتى لا أطالبه من الناحية الخلقية بأن يفر من المعركة .. هذا قدره أن يصمد ، ولكن لا أطالبه بأكثر من هذا .. بأن يصمد ولا يتراجع حتى يعطى الراية لجيل جديد .. وأنا كمواطن معتز بهذه الأمة متأكد أن البطون مادامت تلقى بأطفالها ، ومادامت حركة التمدرس الشاملة تأخذ مجراها ، وهذه الأمواج الهادرة تتجه إلى قاعات العلم والدرس ، فإن القضية من الصعب أن تغلق ، وربما يعتقد الخصم أنه بتطويقه لجيل ، يطوق كل الأجيال ، إنه استطاع ولو نسبياً خنق قدرة المجازفة المحسوبة لديه ، وحالياً يحاول أن يحاصره .. إذا ما استعملنا بعض الألفاظ الاستراتيجية ،

حتى يبعد عنه أى قدرة مجازفة محسوبة ، لا مجازفة مغـامرة ، يعنى أن الأمة لتصل إلى شىء لابد من أن تضحى بشىء .. والخصم يحاول أن يخوفه من التضحية ، عملية ترهيق فكرى هائلة ، عملية إرهاق ذهنى ، وهنا تأتى التساؤلات الكبرى : إن لم نستطع أن نفعل كل شىء فلنفعل شيئاً .. أن نفعل كل شىء هو التلاحم الجسدى لأمة تقف على قدميها ، بأن تلتحم فى مواجهة مع خصمها بكل ثقلها ، الآن نجد صعوبة ، نظراً للبعد الهائل فى التقدم التكنولوجى .. قديماً حينما كان جسد الفارس يلتحم بجسد فارس فى معارك سابقة فى التاريخ .. هنا القضية كان فيها نوع من الروح الرياضية ، أما الآن فثمة نوع من المكر التكنولوجى ، أو الجبن المحسوب ، إنسـان هو فى الحقيقة جبان ، ولكنه يتمتع بقدرة مكر تكنولوجى هائلة ، أى قدرة ذكاء وتحكم فى الآلة ..

.. إذن .. أمام تعذر إمكانية التلاحم الجسدى أو التلاحم العضلى تبقى القدرة الذهنية ..

وأنا أطالب الآن وأستسمح من يخالفنى فى الرأى ، أطالب الذهن العربى المفكر بأن يحاول أن يعمق ويعطى لنا تجاوزاً ذهنياً ، تجاوزا فى ذكاء للفكر للتخفيف من حدة الأزمة الخانقة عن طريق إعطاء فرص حلول ، لا أقـول حلولا نهائية ، أو حلولا لشل الأجيال القـادمة ، وإنما حلول التجـاوز للخنق ..

وأكرر : هناك رغبة هائلة الآن لخنق هذه الأمة تماماً ، وأنا أطالب الذهنية العربية الواعية أن تتعامل مع هذه القدرة الفكرية الذهنية الهائلة التى وراء الخنق لكى تفلت من مشنقة الخنق .. على العقول أن تتحرك الآن .. لأن هناك ترويضاً ذهنياً مروعا فى الهزيع الأخـير من القرن العشرين .. عملقة ذهنية .. ولكنى أحمد الله الآن ودون أن أعطى أسماءاً هناك ذهنيات لبعض القيادات العربية المعاصرة قادرة حقيقة ، فلنعطها الفرصة لكى تتحرك ، لكى تواجه ذهنيات فى قمة الفكر والدهاء ، وتخفف من حدة الصدمات الكبرى التى تهدف فى النهاية إلى شل حركة هذه الأمة وتجزئتها والتهامها جزئية بعد أخرى ..

إذن المعركة الآن فعلا معركة ذهنية ومعركة فكر خلاق ، العقلية العربية عليها الآن أن تفكر لأنهـا أمام مجازفات ، وأمام مخاضات كبرى . وذلك لمحاولة كشف مبررات الخصم بطريقة موضـوعية ، وعدم توسـيع موجة التعتيم ، وموجة لا أقول الكذب الأبيض ، وإنما لنواجه العدو عن طريق مواجهتنا لأنفسنا ، لأن العدو يعلم جيداً أننا غير قادرين على أن نواجـه أنفسنا .. لنجعله يدرك أننا فى هذه الفترة قررنا فعلا أن ندخل المواجهة ، واعترفنا بأمور كثيرة ، لا اعترافا بالخصم ، وإنمـا اعترفنا بأخطـاء كثيرة لدينا ، حتى تأتى الأجيال القادمة لتصحح لنا هذه الأخطاء ، لا ليصححها هو لنا .

* * *

المبحث الثالث

مفهوم البطـــولات

ومن هــذه الزاوية افضــل فعلا أن نخفف من موجة البطـولات للأمة العربية .. البطولات الوهمية ..

وإذا كانت ثمة بطولات ، فهى فى استعادة ما فقد دون أن نفقد ما تبقى لنا ، ولكن لا داعى لأن تتحول البطولة إلى أنشودة غنائية ، فيتحول الكل إلى أبطال ، وفى النهاية نبحث عن الأبطال الحقيقيين فلا نجد ..

● عند هذه المقولات الساخنة ، اقاطع الدكتور رشدى فكار بسؤال : برغم أنكم تعمدتم عدم اعطاء أسماء ، فانى أكاد أقرأ أسماء معينة ، كأنى بكم تقدرون فلانا وفلانا ، وتلعنون علانا وعلانا ؟

.. لا .. لا إن الحديث عن الأمم يتجاوز الأشخاص .. وأريد أن أقول كخلاصة ، لقد آن الآوان لتنطلق هذه الأمة للمصالحة مع النفس ، قبـــل الآخرين ، ولكى تقول هذه الأمة إلى أين ؟ عليها أولا أن تحدد أين تقف قبل أن تفكر فى أن تتحرك .. تحدد موقعها ، وتحدد الأرضية التى تتحرك منها ، وحينما تحدد نقطة الانطلاق تصل بعد هذه الحركة الواعية ..

.. ولكن إلى أين أسير ، وليس لدى وسائل لهذا السير ؟

.. أرجو ألا يدخل ذلك فى مجال الكذب الأبيض .. ! ، الكذب الأبيض جميل ، ولكن من الصعب على أمة أن تحول تاريخها كله إلى أكاذيب .. إن هناك أبسط الأمور لم تتفق عليها ، بل ولا على أدنى منها ! ..

وحينما أقول أمتنا ، أعنى أمتنا كتاريخ ، كأمة مفتعلة فى القرن العشرين .. وإنما أمتنا بمعنى أربعة عشر قرنا .

هذه أمتنا ، لأن الذين يفتعلون أمما فى القرن العشرين ، ويعتبرونهـا

أمتنا تحت شتى المسميات ، نقول لهم : أضعتم أنفسكم وأضعتمونا .. أمتنا تساوى أمة تلمس على مستوى التاريخ .. حينما أقول أمتنا : أعنى التى انتشرت فى الأندلس ثم تقلصت ، وأمتنا التى وصلت إلى بحر الصين ، وأمتنا التى ضربت فى أعماق آسيا حتى اقتربت من القطب الشمالى ، وفى أعماق إفريقيا حتى لامست خط الاستواء .. أمة خالدة لها تاريخ قادر ، أما حينما أفتعل أمة جديدة سأفقد الأمة الأم ، والأمة التى أفتعلها لا أساس لها لأنها ستموت حينما تنتهى تعبيراتى ومسمياتى ، كأننى أدخل بها إلى القبر لأنها لا أساس لها .. لذا أطالب بمزيد من الالتحام بهذه الأمة بقضيتها التاريخية ، وأطالب بمزيد من تعميق المعاناه التاريخية ، بمعنى نتفهمها ، ونعرف من أين جاءت العورات والثغرات التى حدثت ، لأن أموراً كثيرة نعيشها فى القرن العشرين ، ربما بطريقة أخرى لم تكن هى هى ، ولكنها « عيشت » أيضاً لما نراه الآن من شعوبية فى هذه الأمة ، ونوع معين من النعرات القبلية ، ومن الحزازات ، هذه أمور ليست بجديدة ، وكانت فى فترات طويلة من تاريخ هذه الأمة سببا فى توعكها لخمسين أو لمائة عام ، فالمفروض أن نلتحم بالأمة ونعمق فلسفة تاريخها ، ثم نتحرك على أرضيتها ، وفاءاً لها ، لا من أجل شيء آخر ، هنا أعتقد سيكون لدينا على الأقل إطار تربوى مبسط لهذه الأمة ، وأقول للطرف الآخر : مهلا ، إن التاريخ لم يبدأ بالأمس وبالتالى لن ينتهى غدا ، أقول لأعداء وخصوم هذه الأمة هذا الكلام ، فماذا تعنى أزمة أمة فى ثلاثين عاماً أمام مسيرة تاريخية ، امتدت أربعة عشر قرناً ، أحاول فقط تقليص هذه الأمة فى أضيق إطار ، وألخصها وأعطى أملا للأجيال القادمة ، وأحذرها بألا ترث أزماتى وتوعكاتى ، وإنما ترث منى كل قدرة فى الحركة .. كل الذى أطالب به الآن أن نعطى للأجيال القادمة حق أن تتحرك بمنظورها ، ولا نضع لها مخططا سابقا ، يضيع فى شرانقه جيلان أو ثلاثة فى كيفية التخلص من هذه المخططات التى وضعت فى غيبتها .. نعطى لهذه الأجيال القادمة حق أن تضع هى بنفسها مخططاتها ، وأنا على يقين من أن الإنسان العربى المسلم الذى استطاع رغم تسلط الامبراطوريات الاستعمارية الكبرى أن يتخلص من هذا الاستعمار ، ممكن أيضاً بدوره وقد عاد إليه مرة أخرى مقنعا فى أسواق أخرى أن يتخلص منه مع مزيد من

الممارسة لدى الأجيال القادمة بطريقتها هى .. لأننا لا يمكن أن نحارب كل العصور التاريخية بنفس السلاح .. فكل عصر تاريخى له سلاحه الذى يحارب به ، فإذا كنا قد استعملنا السلاح مع الاستعمار وهو سلاح المواجهة اليائسة ، أو النهائية أو المصيرية ، فلنعط للجيل القادم قدرة التفكير الذهنى ومراوغة الخصم بنفس وسائله ومكره ودهائه ، ولا أحاول أن أرد على دهائه القاتل بالكذب الأبيض ولكن بالتعمق فى إدراك متناقضات العصر والرد عليه بالأسلوب الذى سوف أفرضه عليه ، لا الذى يفرضه هو علىَّ انطلاقاً من معرفته بواقعه ، . . . . . ؟

هل أضع نفسى بين المتفائلين أم المتشائمين ؟

.. أضع نفسى بين المتفائلين .. أما عن هذا الجيل فهو بالطبع تفاؤل مع التحفظ ، وعموماً فإننى على يقين أن ما نراه الآن نوع من الكابوس الملىء بالأحلام المزعجة ، ويقينا سوف تأتى أجيال الـ ٣٠٠ مليون والـ ٤٠٠ مليون عربى محزمين بمليار أو أكثر من إخوتهم فى الإسلام ، وسوف تنظر هذه الأجيال لهذه الكوابيس المزعجة على أنها كانت فترات مخاضات كبرى .

* * *

المبحث الرابع

فكر اسلامى موحد .. كيف ؟

● بعيداً عن عموميات الفكر وتجريداته ، هل ثمت توصيات لهذا الجيل الذى تطلب منه أن يعمل على تقليل حجم خسارته حتى يسلم الراية لأجيال اكثر قدرة ؟ ..

.. القيادات صاحبة القرار لها دور هام ودور قيادى وريادى لهذه الأمة ، ولست أنا برجل فى موقف الذى يعطى وصايا ..

● قد ترى لمواجهة الأزمات المصيرية .. الدعوة لفكرة عقد مؤتمر فكرى عربى واسلامى ؟ ..

.. ولم لا ، ولنتفق على حد أدنى من قدرة الفكر .. لتصفية الحسابات والاستبعادات .. والإلغاءات ، وإنما لمواجهات .. لخلق حد أدنى فكرى كما أقول ، دون أن تكون لكل أحد أرضية مبيتة جاء ليدافع عنها !

● هل ترى اهمية أن ترشح كل جامعة عربية او اسلامية ، ثلاثة من مفكريها لعقد المؤتمر الفكرى المصيرى ؟ ..

.. لا أميل مطلقا لكلمة مؤتمر ، ربما من الأفضل أن نبدأ فى البداية بملتقى بين المسئولين تربويا ، ليناقشوا إلى جانب تطوير أدوات ومناهج التمدرس ، ذاتية إنسان هذه الأمة لأنهم هم المسئولون والمشرفون على تربية قيادات هذه الأمة ، وليخرجوا ، لا أقول بميثاق أو بدستور ، وإنما ببنود تقول : إن هذه هى ذاتيتنا التى ينبغى أن تدخل فى أطر التربية من الحضانة حتى الجامعة ..

وفى نفس الوقت لتعقد على هامش هذا الملتقى لرجال التربية والتعليم لقاءات فكرية بين كبار المؤرخين ، وتكثف الحوارات فى الصحف والمجلات ، والإذاعات حول تعميق مبدأ الإدانة وتعميق مبدأ الأزمة ، ودون محرمات ، مع البعد عن الحزازات الشخصية أو المهاجمات ، أو التمسك المبيت بوجهات النظر الشخصية ، ولا أعتقد فى جدية كلمات مثل قلب يقلب ، وقتل

يقتل ، إن الأمة لا تبنى نفسها على القتل والانقلابات ، فربما هذا يفيد المجتمع الصناعى لأن له نوعا معينا من التنظيمات الواسعة العريضة والرأى العام ، وهكذا فيكون لديه نوع من تعبئة الصراع .. أما نحن كعرب لدينا الكثير من فائض صراع تاريخى نصدره للآخرين ولسنا فى حاجة لنقول : نبدأ من جديد لنصارع بعضنا بعضاً ، لأننا بهذا ربما سنحل مشـكلاتنا الديمغرافية « السكانية » فبدلا من أن يكون تعدادنا ١٥٠ مليون عـربى قد يتقلص عددنا إلى عشرة ملايين من الأحياء ، و ١٤٠ من أصحاب القبور .. سنصفى بعضنا بعضاً تصفية جسدية .

لهذا لا ينبغى أن يتجه الفكر لإثارة الفتنة التى لعن الله من أيقظهـا ، وأعتقد أنه لا داعى أبدا ، لأن نوجه صراعنا نحو الماضى ، لنتجه بصراعنـا نحو المستقبل ، لا لتصفية الحسابات مع الآخرين ، حتى يصل الأمـر إلى تصفية كل فرد للحساب مع نفسه هو أيضاً لأنه جزء من هذه الأمة ..

لهـذا أرى أنـه آن الآوان إلى أن نكف عن البحث فى خفـايا الآلام والمعاناة الكامنة فى العديد من القلوب ..

آن الآوان لأن نقول نحن فى مركب واحد وحينما يغرق جزء منـا ، فسوف يهلك الجميع غرقاً معاً .

● ان شعب الصين الذى كان يعيش كابوسا رهيبا من خـلال حـرب الأفيون والهيمنة الاستعمارية والحروب الأهلية استطاع من خلال الجيـل المتازم ان يقود زحفا عارما لتصحيح كل المسارات من خلال معاناة نفسـية وحربيـة واقتصـادية وثقافية رهيبة .. أفرزت فى النهاية شعبا عظيما .. فلماذا تنتظر الأمة الاسلامية الخلاص ؟

.. هذا فعلا مثال ، ولكن الصين كقارة وكإطار تاريخى وعوامل ثقافيـة واجتماعية وجغرافية تختلف عن الأمة العربية والإسلامية ، إن الصين قامت بعملية اختزال للأزمنة ، ولكنى أخشى أنه حينما نقوم بهذه العملية لاختزال الأزمنة المتوعكة ، يدخل الخصم كطرف مختزل ، يعنى يدخل لنا تحت قناع أنه سيختزل الأزمنة معنا ، ويحاول أن يدخل تحت شعارات متعددة لكى

يجعل من تجاوز الأزمنة نهاية الأمة .. هذا ما أخشاه .. بمعنى أننا لو كانت تناقضاتنا الداخلية هى التى نحن بصدد تجاوزها ربما قلت : ولم لا !

ولكن بما أن لدينا أكثر من « مسمار جحا » فى جسد هذه الأمة دقت فى كل مكان ، فأخشى لو بدأنا فى هذه الحالة ، ربما تحركت هذه المسامير على أنها جزء من هذه المنطقة ، من هذه الأمة ..

● **ولماذا لم تتحرك هذه المسامير فى الصين ؟**

.. لأن الصين ، كما أعتقد لها ظروفها الشرطية التاريخية كما قلت التى تختلف عن الظروف الموجودة فى الأمة العربية الآن ..

وربما واتت هذه الظروف أمتنا العربية فى نهاية الأربعينيات من خلال الالتحام المصيرى مع الخصم الذى زرع ليفنى وجودنا ، ولكنى أتحاشى البكاء على الماضى القريب ، ومع ذلك أقول : لو أن هذه الأمة طرحت فى هذه الحقبة مبدأ التضحية لا مبدأ المزايدات ، وضحت بنصف مليون ، أو حتى بمليون عربى ، أو فلنقل بأربعة ملايين عام ١٩٤٨ لضمنت الأمة حياتها وقامت بعملية اختزال الأزمنة ..

ولكن ، وأما وقد أضاعت الأمة فرصة الالتحام العضلى لتدافع عن كيانها ، فلم يبق لها إلا أن تستعمل قدرة الذهن العملاقة ، لا لتنتصر بها ، لأن هذا لن يكون فى عهد هذا الجيل ، إلا إذا بدأنا نتصور وجود عصا موسى السحرية ..

لذلك أكرر القول وأؤكده : ليقلل هذا الجيل ما أمكنه ذلك من خلال القدرة الذهنية من انعكاسات وسلبيات الأزمنة ، ومن آثار التركة التى سترثها الأجيال القادمة ، حتى لا تضيع هذه الأجيال القادمة وقتها فى تسديد ديون جيل لم يضبط دفتر حساباته كما يجب !

❋ ❋ ❋

(١١)

اعادة النســـق التربوى

● **انطلاقا من حديث سابق له عن فكرة عقد ملتقى عربى واسلامى لقادة التربية والتعليم .. كيف يمكن بناء الانسان العربى والمسلم من خلال نسق مدرسى وتربوى جديد ؟**

.. بناء الانسان .. كيف .. هو فى الواقع سؤال يتصدر كل الأسئلة .. هل يمكن ان ابنى هذا الانسان عن طريق تكثيف أكبر قدر ممكن من المصـــانع بجانبه ؟ ..

.. أقول : لا ، وبكل صراحة : لا !

● **هل يمكن أن أكثف له المنشآت والأبنية ؟**

. أقول : لا ، فان ما نشيده اليوم قد يهدمه الإنسان غداً ! ..

● **هل يمكن أن نقوم ببناء الانسان عن طريق تكثيف المعرفة العلمية ، وخلق جهابذة وعباقرة ؟ ..**

.. إن هؤلاء حينما لا يجدوا البيئة المناسبة لهم فى المكان الذى نشأوا فيه ، يهربون إلى بيئات أخرى ، ويقدمون خبراتهم وعلمهم فى خدمة الآخرين ، وبالتالى تفتقدهم الأمة التى أنبتتهم ! .

القضية إذن ليست بتكثيف العلم أو الصناعة ، أو المنشآت ، أو الأراضى الزراعية ، ولكنها فى صياغة الإنسان نفسه .. ولقد آن الآوان لأن نعيـــد النظر فى بناء الإنسان الذى يكثف لنا المصانع ، ويكثف لنا العلم ، والزراعة ، ويحول الرمال إلى شجر وأرض خضراء ..

فى تصورى أن هناك مثال يصلح للاستشهاد به على الساحة الكونيـــة كلها .. وهو : النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

أتساءل : كيف خرج من غار حراء واعتمد على مجموعة من المستضعفين ــ وحاشا لله ــ فهم مستضعفون فى مظاهرهم ، ولكنهم أقوياء بإيمانهم وتعبئتهم وإصرارهم ..

استطاع صلوات الله وتسليماته عليه بهذه القلة ليس فقط أن يواجه مهمة تأصيل القاعدة الأولى للإسلام فى مكة والمدينة ، ولكن هؤلاء المستضعفين شيدوا أعرق حضارة استمرت أكثر من ألف عام بل وتعتبر أطول حضارة فى تاريخ الأمم والإنسانية وهى حضارة الإسلام ، حضارة القيم والمبادىء التى امتدت مشاعلها حتى بحر الصين ، لاحضارة الأشياء .

.. نعود إلى واقعنا المعاصر ، ولننظر للأعوام الثلاثين الماضية فى عمر دولة كمصر ولنعط مجرد أمثلة للمواجهات الدموية مع الأعداء ، كانت الوسائل متوفرة للقتال ، كانت هناك كميات وفيرة من الأسلحة والذخيرة ، ولكن الإنسان كان غائباً ، فكانت النكسات والهزائم ، بينما فى رمضان (سنة ١٩٧٣) أعتقد أن المعركة كانت الإنسان لا الأسلحة .

هذا الجندى العربى المصرى المسلم وبجانبه الجندى العربى فى كل مكان هو الذى عبر القناة ، وخط بارليف الإسرائيلى المهول ، هو الجندى الذى لم يركز على سلاحه بقدر ما ركز على ذاته ومبادئه من منطلق الإيمان ، وهو نفس الجندى الذى انتكس فى سنة ١٩٦٧ مع مقياس آخر ، ففى سنة ١٩٦٧ اعتمد على الأشياء واعتمد على الزخارف ، والمظاهر وعلى الشعارات الجوفاء العائمة ، بينما فى سنة ١٩٧٣ كان يعلم أنه إنسان وأن عليه أن يعيش أو لا يعيش ، وبحمد الله وقدرته عاش وانتصر ..

هذه مزية عظيمة لإنساننا فى عصر ينبغى التركيز عليها واستثمار عطائها ، فحينما تأتى أزمات كبرى لهمة الإنسان ، وتطرح إنسانيته وتتعامل مع عمقه ، مع قاعدته ، وتوقظ فيه تعبئته ، فإن الإنسان نراه فعلا على مستوى المواجهة .

● **ومن هنا نبدأ .. أليس كذلك ؟**

.. أقول : فعلا ، لماذا لا نجعل من هذه المواجهات التى تمنحنا بفضل الله وعونه إعجازات عملية مستمرة ؟ ..

بمعنى أن يصبح الإنسان العربى المسلم إنسان البناء الدائم ، لا إنسان المواسم والفرص والصدف !

هنا أطرح ما يسمى بالنسق (البيداجوجى) أى التربوى .. إن علينا أن نعيد النظر فيه على الساحة العربية الإسـلامية ، لأننى لا أعتقـد مطلقا فى جديته وفى صلاحيته ، بل هو حالياً يفرز لنا أعدادا هائلة من البشر ، وصادف حسن الحظ أن هناك أسواق تشغيل لهم فى أماكن غنية من الوطن العـربى استطاعت أن تستوعب جانباً منهم ، ولكن مع الزمن ، ومع تعدد تكثيف هذا العطاء البشرى الذى لم يرتبط بواقع ، قد يخلق الأزمة الكبرى التى هى تاج الأزمات ، وهى أزمة المثقف ، أو بطالة المثقف ، وهى أقسى بكثير من بطالة العامل الأمى الذى يغطى بالقليل من الاستهلاك ، أما بطالة المثقف فهى محترفة وهى فى حاجـة إلى أن يغطى اسـتهلاكاً متعـدد الجوانب ، لأنه تعود على بعض العادات التى اكتسبها عن طريق التفاعل الحضـارى ، فأصبحت صرخاته ، وأصبح بكاؤه أكثر بكثير من الإنسـان الأمى الذى يتعامل مع الطبيعة ببساطة ، وأقل شىء يرضيه ، وأعنى بذلك الإنسـان البسيط الذى يعيش فى البوادى والقرى ..

● والسؤال : كيف نعيد النظر فى النسق التربوى ؟

أقول : إن المشكلة تكمن فى أن نعيد النظر فى البرامج التعليمية ، فهذا غير مجد ، المهم أن نبدأ بطفل الابتدائى ، لا من طلبة الجامعات ، وحينـما أقول نسق تربوى (بيداجوجى) فهذا يعنى تربية الطفـل ، ولا نرى أن تغيير هذا النسق البادىء من الطفل قد يخلق الارتبـاك فى بنـاء التعليـم الراهن .

والقضية ليست قضـية ترميم وترقيع ، واسـمح لى بأن أضرب مثلا بالصين ، لو أنها سلكت منهج الترميمات والترقيعات لكانت قد حلت مشكلات أربعة ملايين صينى وبقيت مشكلات ٩٠٠ مليون فى انتظار الحلول ..

علينا أن نوقف هذه الإشكالة التى ابتدعها المستعمر ، وهى المركـزية

التربوية المدرسية القائمة على مستوى تلقينى حتى يصبح الواقع أمام التلميذ فى ناحية ، وهو ذاته فى ناحية أخرى ! ..

وبالنسبة لمصر مثلا : علينا أن نعيد النظر فى تقسيم مصر إلى مناطق تربوية ، كل منطقة لها جهازها المستقل ، وتكون وظيفة الوزارة المركزية هى التنسيق بين الأجهزة التربوية ، أى وزارات إقليمية تربوية ، ولو كان الأمر بيدى لجعلت هناك على الأقل ثلاث أو أربع وزارات تربوية فى مصر ، بمعنى وزارة للحضانة ووزارة للتعليم الابتدائى ، ووزارة للتعليم الثانوى ، ووزارة للتعليم الجامعى .. ولتوضيح المناهج بحيث تكون لكل منطقة من مناطق مصر نسق (بيداجوجى) تربوى يتكيف معها .. مع ثروات المنطقة وتقاليدها وأعرافها ، وخلق منافسة تربوية بين مختلف الجهات ، ومن الممكن أن تحل مشكلة الهجرة من الريف إلى المدن عن طريق اللامركزية التربوية ..

● **ولكن ما هو محتوى هذا النسق التربوى البادىء من الطفل ؟ !**

.. أنا فى تصورى كما تحدثت عن الوزارات الأربع أن أصنف المحتوى أيضاً بمراحل أربع :

مرحلة الحضانة والابتدائى والثانوى والجامعى ..

وقد يقول البعض ، كيف تقول حضانة ، ولكنى أعتقد أن العاملين أو الثلاثة عوامل الأولى فى نشأة الطفل مهمة للغاية ، فحينما تعد طفلا يعانى من الكبت والقهر ، ومن بناء الذات فى مراحل نمو النفس الأولى من الصعب أن نستعيده حينما يصل لمرحلة المراهقة أو الشباب ..

وهذا يتطلب أن نعطى نوعا من التوعية المبسطة على مستوى الأمهات بمعنى أن يكون هناك رقابة توجيهية ومرنة للدولة على حضانة الطفل فى كل جهات النسق التربوى ، ونظام الحضانة بجميع بين عنصرين :

الأول البناء الجسدى ، والثانى البناء العقلى ..

البناء الجسدى يأتى عن طريق تزويد الأم والأسرة بأكبر قدر ممكن من الوعى الصحى خصوصاً فى مناطق الريف والبدو والفئات ضعيفة الدخل ،

وتأتى هنا أهمية دور وسائل الإصلاح ودور المرشدات .. وللتكوين الجسدى للطفل ينبغى أن تتضافر كل الجهود من أجل تغذية الطفل بعناصر الغـذاء الحيوية ، فالعقل السليم فعلا فى الجسم السليم ، وطفل اليوم هو جنـدى الغد ..

وثمة قضية هامة ، ونحن نتحدث عن الصـحة العـامة تفجـرها آفـة البلهارسيا ، والأمراض الطفيلية فى مصر والبلاد الإسـلامية عموماً ، فيلزم حماية الطفل من كل هذه الأمراض ، واستئصالها منذ الصغر ، حتى لا نضطر إلى عمليات الترقيع الصحية له عندما يكبر ويلجأ إلى ترميم جسد منهار ..

الشق الثـانى تنمية عقـله ، وهنـا لا ينبغى أن نعتمـد على نسـق (بيداجوجى) مستورد مهما اتسم بالعلميـة والعصرية ، بل نعتمـد على أنسقتنا الإسلامية ..

أقول وأستسمح : إن أوروبا الغربية الآن وهى موغلة فى التقـدم ، وتمجد العلمية ، تعطى دائماً أهمية لتطعيم الطفل فى بدايته بالقيم المسيحية ، وتجعـله يعيش فى إطار نوع من الثقة والعطـاء الملائم ، فلتحـاول الدول الإسلامية التى تقلد أوروبا فى الأزياء ، وقص الشعر ، أن تقلدها أيضـاً فى التربية الدينية بمنهجها الإسلامى طبعاً ، ولنغرس فى الطفل قيـم الدين الحنيف : التسامح ، والإخاء ، والحب ، والبر ، والإحسان ، كما أعطى أهمية مطلقة إلى جانب التربية الدينية المتواصلة للتكوين الرياضى ، بمعنى أكبر قدر ممكن من الترويض الرياضى للجسد لأن هذا هو التكوين العقلى ، وهو مطلوب .. ومع إعطاء أهمية فى نفس الوقت لاكتشاف قدرات الصبى أو الفتى فهناك الشاب الذى يتميز عطاؤه العضلى وآخـر يتمـيز عطاؤه العقلى ، وهنا يبدأ أول توجيه للاختبارات المهنية فيصـبح هناك نوع من الاختبارات (السيكلوجية) التلقائية عن طريق توجيـه وتكثيف وتنقيـة العقول .. ومن ثم تبدأ عملية الانتقاء ، لأننى أعتقد أن مصر ليست فى حاجة إلى تكثيف العقول بقدر ما هى فى حاجة إلى تنقية العقول .. ومن ثم نقول : إنه مع مطالع القرن الحادى والعشرين لم يعد هنـاك مكان لمجـرد تراكم

العقول ، وإنما قدرة الخلق والإبداع العقلى هى التى تسير المجتمعات البشرية ، وهذا لا يمنع من أن نعطى أيضاً الأهمية على مستوى التوجيه المهنى والتدريبى .. وهنا نستطيع أن نخلق إطاراً عريضاً من العمل الجماعى ..

لماذا لا تكون لدينا مدارس ثانوية تركز على ما نسميه بالعمل الجماعى الميدانى بحيث يتفرغ الطلبة ٣ أو ٦ أشهر للعمل والإنتاج للمجتمع ، ولنضرب بعرض الحائط قاعدة ٨ أشهر تعليم ، ٤ أشهر بطالة ، فماذا نفعل لو أن كل الشباب تعلم ولا أحد يعمل !

وحينما يتعلم لا يجد مكتبا يجلس عليه ، وإذا وجد يصبح مكتبى النزعة !

وإذا كانت القضية مجرد تكثيف للخريجين بتكثيف لمسلسلات من الواقفين أمام غرف الانتظار ، ثم بعد هذا كل يتلهف على أن يخرج من أرضه لا أن يبقى فيها .. فهذه مأساة ..

والقاعدة الشاذة أن تقوم بعملية مجانية كاملة فى التعليم ، ليخرج علماء يهاجرون ، أنت حقيقة تبنى لغيرك لا أكثر ولا أقل ، وغيرك حينما يتم بناؤه سيقول لك : اذهب من حيث جئت .

.. كمزيد من التوضيح .. إن هناك أسواق تشغيل محيطة بمصر ، واستطاعت أن تقوم بتخفيف أزمة التوظف والعمالة ولكن بشكل مؤقت ، وإن كنا نقع فى دائرة اللاشعور بها حاليا — ولكن سيأتى الوقت — والغريب أن مصر تواجه داخليا أزمة عمالة ..

إذن أنا شخصيا من أنصار الجامعات الإقليمية ، أو جامعات على مستوى المحافظات تكون لها طبيعة سد الحاجة فى متطلبات المحافظات وبين ما تعطيه جامعة هذه المحافظة ..

وبالتالى يكون هناك نوع من الاكتفاء الذاتى على مستوى كيفية ملء

الفراغ ، ومـلء الأماكن فى البنيـة الإدارية والاقتصـادية والاجتـماعية والتربوية ، والدينية والهندسية والطبية للأقاليم .. ثم تكون لدينا جامعـة أعلى .. يعنى جامعة الجامعات .. وهى لا تنطلق من شهادة الثانوية العامة ، وإنما هى خلاصة العقول النادرة التى استطاعت أن تبرز وتؤكد وجودها على مستوى الجامعات الإقليمية وبالتالى هنا أستطيع أن أخلق شكلا من التنوع فى وحدة النسق ووحدة للنسق فى تنوعه ..

وفى تصورى أن إعداد هذا النسق (البيداجوجى) التربوى يمـكن أن تنجز خلال عشر سنوات ، وعموماً إذا استغرقت جيلا كاملا فنحن الرابحون بلا منازع .. لأننا سنكسب الإنسان المتعلم المؤمن بربه ووطنه ..

وانطلاقا من مفهوم التربية يشير الدكتور رشدى فكار موضوعا يركز عليه ، وهو القدوة فى البطولة ..

.. نحن فى مسيس الحاجة فعلا ، خصوصاً فى مرحلة المواجهات الحاسمة التى تخوضها الأمة الاسلامية ضد أعداء وجودها وعقيدتها ، وحضـارتها ، أن نركز على مفهوم البطولة موضوعيا ، ليجد طريقه الى الذهنية العربيـة المسلمة بدءاً من الطفـل ، بطل الغـد .. الذى يتطلع لنمـاذج من البطـولة الفـذة من أمثـال : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وطارق بن زياد ، وابن تشفين ، ومحمد الخامس ، وصلاح الدين الأيوبى ، وقطز ، وعـرابى ، ومن أمثال : الفـارابى ، وابن سينـا ، وابن رشـد ، وابن خلدون وابن حزم ، وابن الطفيل ، والقاضى عياض ، وابن تيمية ، وابن عبد الوهاب ، وشوقى ، والبارودى ، ومصطفى مشرفة ، وغيرهم الكثير فى مشرق الأمـة ومغربها ..

.. ولابد من إجراء عملية مراجعة تاريخية لاستبعاد البطولات الزائفة ، وانتقاء البطولات الحقيقية الفذة ، على أن يشترك فى هذه العملية التاريخية مختصون فى التاريخ ، والعلوم العسكرية ، وعلوم النفس ، والاجتـماع والسياسة والقانون والشريعة ، والإعلام .

إننا من خلال هذا التحليل العلمى للبطل التاريخى نحاول أن نستشف إطاراً ونموذجا لشخصية البطل نقدمه للطفل كقدوة إلى جانب أن نقدمه له كتاريخ ، وهنا تكتمل الصورة التاريخية مع الصورة النفسية والاجتماعية ،

ونحاول أيضاً التخفيف من الزيف التاريخى للبطولات التى فرضت علينـا فرضا فى التاريخ ، حتى لا يقف الطفل أمام شخصية تتضارب حولها آراء المؤرخين والعلماء ، فيقف حائرا هل هو أمام بطل حقيقى ، أم خائن ! .. لأن مجرد الشك سيفسد كل المعايير ، إن المشكوك فى بطولتهم من الأفضل أن نلحقهم ببقية مجهولى الهوية بدلا من إضافتهم زورا وبهتانا إلى مجموع تراث الأمة ..

لابد من عملية (الغربلة) التاريخية هذه والبعد تماماً من افتعال البطولات خصوصاً فى تاريخنا المعاصر .. لأن التاريخ ليس ملكا لنا ، وينبغى ألا نحمله أكثر مما يحتمل ، ولنضع فى أذهاننـا أجيـالا سـتولد خـلال القـرن الحـادى والعشرين الميلادى سيكون لها منظارها على بطولتنـا ونظرتنـا إليها ..

أنا من أنصار شمولية البطولة ، لابد من أن نوسع من مفهومها لتشمل كل مواقف البطولة التى هى فى مفهومى العطـاء والتضـحية للأمة فى كل المجالات ، ولاشك فى أننا فى هذا العصر الذى يدور فيه الصراع حول العلم وقدرة العقل والذهنية البشرية ، لا نستطيع إلا أن نسلط الضوء على المبتكر والمخترع والمفكر ، والشاعر ، كما نسلطه على المنقذ والمضحى والمستشهد .

● ولكن هل يمكن أن نتطرق لعرض بطولات الشعوب الأخرى أم نقصرها على بطولاتنا العربية والاسلامية ؟

.. أقول نعم لبطولات الغـير ، ولكن بشرط ألا يكونوا فى موقـع الخصومة والعداء ، وإلا سنزرع فى نفس الفتى المسلم نوعا من الإحباط والعقد وقصور الفهم ..

● وهل ترى أن المسلك التربوى لعرض البطولة يبدأ بالترويض العضلى أم العقلى ؟ ..

.. أنا دائماً من دعاة تمرين وتدريب وترويض العضل إلى جانب ترويض العقل ، وما أحوجنا الآن فى مدارسنا ومعاهدنا التربوية إلى أن نركز أيضا

على تكوين الخشونة البدنية التى تعيش جنباً إلى جنب مع قدرة الإنطلاق الفكرى والذهنى والتدريب على السلاح .

وأنا أعطى كمجرد مثال : بلدا مثل سويسرا ، وهى كما هو معلوم عنها دولة محايدة ، وفى قمة الحضارة ، وبرغم حيادها وبعدها عن حلبة الحروب فهى عبارة عن جيش كامل ، كل مواطن بها جندى ، وكل جبالها مخابىء للطعام والبشر والأدوية والسلاح .. مخابىء مجهزة ضد الحروب الذرية ..

إن اهتمامنا بالتربية العسكرية ليس دليلا على حبنا للحروب وسفك الدماء ولكنها ضرورة حياة فى ظل عالم لا يكف عن العدوان ..

● للأسف ان قدوة البطولة امام شبابنا الآن تكاد تتبلور وتتركز فى لاعبى الرياضة وبالذات نوع واحد منها وهى كرة القدم ، فما تعليقكم على هذه الظاهرة ؟ ..

.. إنها فى الواقع مشكلة كبرى ، نعم هى رياضة محببة إلينا جميعاً ، ولكن لا نريدها أن تصبح قضية « ذهانية أو عصابية » هامة تتحرك من أجلها كل الطاقات .. لأن المجتمع بقدر ما يحرك أقدامه ، فى حاجة إلى أن يحرك عقوله وأذرعته .. فإذا ركزنا على القدمين فقط ، ربما لا يحدث نوع من التكامل لبقية الأجهزة .. إنها فعلا ظاهرة مفزعة ، أن نفطر كرة ، ونتغدى كرة ، ونتأمل كرة ، ونحل مشكلاتنا بالكرة .

● فى الطريق الى خلق القدوة فى البطولة امام الاجيال ما هى فى نظركم انسب الوسائل لتحقيق هذه الغاية ؟

.. فى نسق البرنامج التربوى للأطفال ، ما أحوجنا إلى نوع من الإنتاج التليفزيونى المدروس الذى يقدم للتلميذ فى شكل مبسط للغاية بطلا فى بيئته التى تفجرت فيها بطولته ، يعنى : يرى خالد بن الوليد كطفل ، ويراه كقائد لا يغلب أبداً .. ونحاول أن نستدرج الطالب من خلال هذا العمل الفنى الثقافى إلى أن يتكيف معه ويرى فى نفسه أنه يمكنه أن يحذو حذو هذا البطل ويسلك طريقه .. بمعنى أن نبدأ بالوسائل البصرية ، وفى إطار تقديم

البطولات ينبغى أن نبتعد عن برامج التسلية التى تقدم السوبرمان الذى يأتى بأمور خارقة للعادة ، لأنه لو حاول تقمص شخصية السوبرمان سيحدث له نوع من الانفصام فى الشخصية حينما يكبر .. ينبغى أن نزرع فى وجدانه أن البطولة سلوك ممتاز ، وأعمال محسوبة ، بل ومجازفات مفيدة وتضحيات سبق التخطيط لها من أجل العقيدة والوطن ، ومن ثم تدخل فى ذهنه هذه الصورة الواضحة الواقعية لا الخيالية والتى هى قابلة للتكرار بالنسبة لبطل المستقبل .. مع العمل على عدم قمع الطموح لدى الطفل .. فلنفرض أن طالبا شاهد مسلسلا تلفزيونيا لصلاح الدين الأيوبى ، وحاول أن يقلد هذا البطل ، حسنا .. علينا أن نشجعه على المحاكاة ، والتقليد ، ولا نقول له : دعك من هذا العبث واذهب لتأكل أو لتذاكر ، لأن أسلوب دعك من هذا ، قد يقوده فى النهاية إلى سلوك سلبى ، ومفهوم خاطىء يقول : إن كل شيء أصبح مرفوضا بالنسبة له ، وكذلك ينبغى ألا نقمع طموح الطفل ، فإذا حاول أن يقلد خالد بن الوليد ، وكان فى المشهد التليفزيونى طويلا عملاقا ، لا نقول له : أنت يا قصير تتشبه بهذا العملاق ؟ .

ولكن على العكس نقول له : إن العملقة يمكن أن تتأتى فى جسم صغير ، ولنتذكر قول شاعر ألمانيا « جوته » : « لكى تصبح ألمانيا عظيمة .. على كل طفل ألمانى أن يطمع فى أن يكون عظيماً » ..

● فى مجال السلوك التربوى لخلق البطولة : هل نترك الأمور لتسير عشوائية لتعلن البطولات والمواهب عن نفسها ، أم نتصيد من خلال مراقبة الطلاب انتقاء بذور البطولة وننميها ، ونسلط عليها ضوء الشمس ؟

.. أرى أن نأخذ بالأسلوبين التربويين معا .. بمعنى أننى وإن كنت من أنصار الانتقاء فإننى أيضاً إلى جانب إعطاء الفرصة أيضاً لمن يمكن أن يشق طريقه .

لابد أن ننتقى ، ولكن دون أن نقفل الباب أمام الآخرين ..

* * *

(١٢)

نظرة على متاعب مصر الاجتماعية
(المشكلات والحلول)

من المعروف أن الدكتور رشدى فكار ساهم فى العـديد من الأبحاث والتحقيقات العلمية الميدانية للمشـاركة فى وجـود حلول لمشـاكل بعض المجتمعات الغربية المشهورة ، ونال العديد من التقدير والتكريم سـواء فى سويسرا أو فرنسا أو غيرهما ..

وكان أن خطر فى ذهنى السؤال .. طرحته عليه ..

إذا كانت لك وأنت عالم اجتماع اسهاماتك لعـلاج مشـاكل الثروة والترف والتقدم فى بلد اوروبى متخم ، فلماذا لا تدلى بدلوك لعلاج مشكلات التخلف فى وطنك مصر ؟ ..

ما هى اهم وسيلة لعلاجها ..

وبدأ الحوار يدور حول هذا الموضوع .. فماذا قال ابن قرية الكرنك فى صعيد مصر ؟

.. أهم وسيلة فى نظرى ، وقد تبدو غريبة لأول وهلة أن نضارب على نفس عوامل الإعاقة لتتحول إلى عوامل تحفز وتقدم !

كيف ؟ .. إن كل مجتمع له عوامل قد تبدو فى آليتها وديناميكيتها أنهـا عوامل إعاقة ، وفعلا تتحرك على أنها عوامل إعاقة .. ولكن كيف نسـتطيع عن طريق التدخل سواء على مستوى التشريع أو التوعية ، أو التربية المبسطة أن نقوم بعملية امتصاص لكى نحول عوامل الإعاقة إلى عوامل حفز ، وعوامل تقدم ؟ ..

لنضرب بعض الأمثلة : لدينا فى الصعيد ، وبعض المناطق الريفية ، هنا وهناك قضية العصبية التى تحدث عنها ابن خلدون .. والتمسك بالتقاليد والأعراف ، وهذه يمكن أن تؤثر بالسالب وتكون عائقا أمام مخططات التنمية والتقدم العلمى ، واستئناس التكنولوجيا ، ويكفى أن تثور أشاعة معينة بالنسبة لآلة من الآلات ، أو لاختراع جديد ليؤدى ذلك إلى نفور بلدة بأكملها .. لأن هناك نوعا من التضامن الفكرى التلقائى يجعل من السهل خلق تجانس فى الموقف ..

ولكن كيف يمكن أن نخلق تجانسا فى الموقف ونحول هذه القدرات الكامنة فى قلب الريف إلى قدرات دفع ؟

أنا شخصياً لا أعتقد أن الإنسان يستطيع أن يبتكر ، وأن يخلق فى غيبة من حوافز أغوار نفسه ، فلنخاطب الوجدان والمشاعر الكامنة المترسبة فى الإنسان الريفى ، لنجعل منها قوة تحرك لكى يبنى لا لكى يتقوقع ويتجمد .. لأن مثل هذه التقاليد استطاعت أن تعيد صياغة الإنسان اليابانى الذى يتعامل مع أحدث الآلات والاختراعات الدقيقة مع احتفاظه بحياته الأسرية ، وتقاليدها العتيقة فى المآكل والملبس وسماع الموسيقى ، وهذا مما جعل اليابانى يتفوق بعد أن تعرف على سر المهنة والوصفة التكنولوجية ، واستطاع أن ينعكس عليها بوجدانه ، بالصبر الذى أملته عليه عقيدته البوذية ، وعملية التمركز الذهنى الهائل جعلته يخترع أصغر الأجهزة بقدرة تحكم يصعب على من هم أقدر منه وأسبق فى العلم صنع ذلك ..

وأعظم من مثل هذا لدينا نحن العقيدة الإسلامية التى يمكن أن تتحول إلى قدرة إيجابية هائلة بطريقة واعية ، لا سطحية أو تلقينية ، أو تهتم بالقشور ..

إننا حينما نركز على ما فى الإسلام من تمجيد لقدرة الإنسان ، ولعقله ولصبره ، وكيف أن الله أمرنا فى قرآنه الكريم بأن نتواصى بالحق ، وأن نتواصى بالصبر فمن غير صبر وثبات لا يتحقق شرط الدفاع عن كل ما هو

حق وصدق ونبل .. وكم من آيات ، ومن أحاديث شريفة تدعو إلى العمل والإنتاج ، وإصلاح الأرض ، وإتقان العمل ، وتدعو إلى المؤمن القوى لا الضعيف ، وتدعو إلى قوة الأسرة والوعى بحقائق العصر ، هذا هو الوجدان الدينى الذى يمكن أن نطلق من خلاله كل شرارات الإبداع لاجتياز التخلف .

● ويقودنا الحديث عن مشاكل التخلف الى مشكلة الأمية التى تزداد وتنشط برغم كل الحملات والجهود لحصارها .. فكيف ترون خلاصا حاسما لها ؟

.. لى وجهة نظر خاصة ، ربما أطرحها فى مصر لأول مرة وهى أن مفتاح محو الأمية يأتى بقدرة الوجدان لا بعملية التعود على التلقين ، أى أن يتم محوها من خلال القلب والوجدان ، لا من مجرد اللسان ..

أشرح ما أقول .. بصفتنا مجتمعا مسلماً .. هل كانت لدينا أمية فى العصور الإسلامية الأولى ؟ .. لقد لاحظت أن كثيراً من القبائل العربية فى الشمال الإفريقى يندر وجود أمى بها .. وذلك لحرصها على القرآن وحفظه وتدريس علومه ، وفى مصر وكل البلاد العربية كانت الكتاتيب تقوم بهذه المهمة لا لتعلم القراء والكتابة ومحو الأمية .. وبالتالى لابد أن نربط محو الأمية بالوجدان ، نربطها بالقرآن .. نحن لا نحتاج إلى تكاليف وخطط ، بل نحتاج إلى قمة التبسيط ، أن نتعامل مباشرة مع الوجدان ، بأن ننشر الكتاتيب القرآنية على أوسع نطاق .. فى تصورى أنه من الخطأ طرح مشكلة الأمية بطريقة بيروقراطية ، هذه مشكلة تعبوية خاصة بتوعية الوجدان من القلب !

● مشكلة اخرى .. تمثل احد همومنا الآن — او هكذا يتصورون — وهى ما يطلق عليه بمشكلة تنظيم النسل .. ماذا تقولون عنها ؟

.. مشكلة كبرى قتلت بحثا ، ولى فيها رأى من خلال عدة دراسات عن النمو الديموجرافى (السكانى) .. وأرى أنها قد تكون مشكلة فى مصر ، أو لا تمثل لها مشكلة فى ظرف من الظروف .. ففى تصورى ، وهذا ينطبق على كل المجتمعات : إن مشكلة النمو الديمجرافى مشكلة ظرفية أكثر

منها مشكلة استيطانية ، يعنى مسكن لمجتمع حينما يكون فى فترة القـوة والعطاء ، أن يستوعب أى قدر من السكان ، ونفس المجتمع حينما يكون فى فترة هزات وتوعك لا يستوعب أقل قدر ممكن من السكان ، ومن ثم فأنا أطرح دائماً مشكلة النمو الديموجرافى مع الشرطية والظرفية التى توضـع فيها ومع مرحليتها ..

وبالنسبة لمصر هناك سوء توزيع سكانى من قبل أن يكون هناك كثافة سكانية .. هناك سوء توزيع طبيعى بين الصحراء والخضرة ، وبين المـدن والقرى ، وبين المدن فيما بينها ..

هناك تعدد للمدن الكبرى ، والمفروض أن يكون التعدد فى الوسطى والصغرى ، بمعنى تشجيع المدن الصغرى لأن تكون متوسطة ، وتشجيع القرى الكبرى لتتحول إلى مدن ، ومحاولة زجـر المـدن الكـبرى لكى تتواضع ، لا لتقوم بعملية امتصاص هائلة لكل الطاقات ، لتتحول من طاقات عاملة إلى طاقات عاطلة تعيش على حسـاب المدن الكـبرى وتكثف وتخنق خدماتها العامة ، وهذه مشكلة كبرى الآن بالنسبة للقاهرة الكبرى ، والمدن الكبرى فى مصر ..

والسؤال الذى يجب أن يطرح على المسئولين فى قطاع التعمير .. هل القاهرة لها أجل مفروض أن تنتهى فيه ، أم أنها مطالبة بأن تعبر القرون ؟

فى تصورى أن خير البر عاجله ، فبقدر ما نستعجل فى مواجهـة بعض المشكلات بقدر ما تكون الحلول أكثر جدية ، وقد يكون الحل كما فعلت البرازيل بنقل عاصمتها من ريودى جانيرو إلى برازيليا .

● معنى هذا أنك تشجع الاستراتيجية السائدة الآن ، وهو خلق المدن الجديدة مثل (مدينة ١٠ رمضان ، وأكتوبر ، والعامرية ، ومايو ، والعبور ، والأمل) ؟ ..

.. أشجعها ؟ نعم ، ولكنى كنت أتمنى ألا تكون مغلفة للقاهرة ، وأتمنى

للمدن الجديدة أن تكون بعيدة عنها تماما حتى لا نحاول أن نشفى الداء بما هو أكثر داء منه ، وأخشى ما أخشاه أن تتحول القاهرة الكبرى إلى القاهرة العملاقة . وأرى بالنسبة للمدن الجديدة أن تكون هناك أولوية مطلقة للخدمات العامة على كل اعتبار ، وبقدر ما نعطى المواطن إمكانية اختزال المكان بقدر ما نضيق مجال متاعبه ، وذلك بتوفير أحدث وسائل المواصلات .

● يتداعى الحديث تلقائيا عن مشكلة هجرة البشر المكثفة فى مصر من القرى الى المدن .. ما حلولكم لهذه المشكلة ؟

.. هى مشكلة معقدة دخلت فى مسلسل (استلابى) بمعنى أن المواطن يشعر أنه لمجرد العيش فى المدينة تحل مشكلاته كلها ، والحقيقة أن مشكلاته تعقدت من هذه الزاوية ، والعلاج هو نقل التحضر إلى الريف ، فبدلاً من أن يذهب الريف إلى الحضر ، يظل مكانه ، ويأتى الحضر إليه بأن نركز على إعطاء أهمية للوحدات العنصرية فى القرى لتتحول إلى مدن ، والتجمعات الصغيرة لتتحول إلى قرى عن طريق تكثيف الخدمات ، كالمستشفى والمستوصف ، ومكان العمل ، ودور الثقافة والمدارس ، وأنا أشجع الهجرات المحلية داخل المناطق والجهات النائية ، لا منها إلى العاصمة ، بمعنى بدلا من الهجرة طويلة المدى ، نخلق الهجرة قصيرة المدى ، فبدلا من أن يهاجر الريفى أو البدوى ١١ ساعة بالقطار يهاجر نصف ساعة فقط !

● وهل ترونكم فكرة المجتمعات الجديدة التى تأخذ مجراها الآن من خلال مشروعات استصلاح الصحارى بالواحات الغربية وجنوب الوادى والبحر الأحمر ؟

.. لا أستطيع الحكم عليها علمياً إلا برؤيتها بالطبع ، ولكن نظريا لا أنصح على المضاربة على الميئوس منها ، ولا أعتقد فى حرية التعامل مع القاحل وتفريغ الطاقات فيه ، من الأفضل أن أركز على المعطاء لأن هناك قضية الزمن ، وقضية الطاقة ، بمعنى أشترط أن تكون الشروط الأساسية للتعمير متوافرة .. هنا مناطق صناعة ، زراعة ، مياه وفيرة ، وأرض خصبة ، وهكذا ، فالملاحظ الآن أن الدول المتقدمة تشجع الدول النامية على المضاربة على القلق المفتعل ! ..

أما فى الدول المتقدمة فالعكس صحيح ، فقد شاهدت بنفسى فى فرنسا ، وهى دولة فى قمة التكنولوجيا والعلم ، كيف طلبت الحكومة هناك من سكان منطقة السافوا ومناطق كثيرة جبلية مجدبة ، وغير معطاءة ، وثلجية ، بالنزول إلى السفح حيث المدرسة ، والمستشفى والأرض المعطاءة ، وذلك بدلا من المجازفة وتوصيل الخدمات إلى قمم الجبال ، والتمسك بهذه المجتمعات لمجرد أنها مثوى الآباء والأجداد !

● وكيف يمكن أن تتعايش التكنولوجيا مع البيئة فى مجتمعنا بدون حدوث مشكلات بين الواقع الريفى التقليدى والواقع الجديد الصناعى ؟

.. فى تصورى أننا ركزنا أكثر مما يجب على عصا موسى السحرية ، وهى التكنولوجيا للخروج من مأزق التخلف ، برغم أنها لا يمكن أن تلتقى بالإنسان إلا فى بيئة مهيأة .. والبيئة قبل التكنولوجيا ، وأنا أفضل أن تأخذ المجتمعات النامية الفتية بالتقنيات البسيطة كالصناعات الزراعية واليدوية .. فما يصلح لدولة ليس شرطا أن يناسب دولة أخرى ، حتى الأدوية التى يستفيد بها جسم قد يرفضها جسم آخر .. وقد يكون من الأسرع والأنجح لنقل التكنولوجيا أن ألقى بمجموعات كبيرة من العمال فى المجتمعات الصناعية لتدرس وتعيش فى البيئة التكنولوجية ثم يتم استعادتها مرة أخرى ، وعلى أكتافها تقوم التكنولوجيا .

● تشكو مصر ، وكل المجتمعات النامية من ظاهرة سرقة العقول .. عقول علمائها ، فكيف نواجه هذه المشكلة المعقدة ؟

.. مشكلة كبرى حقا .. وأعتقد أن العالم المتقدم استطاع أن يعكس نظرية التقدم ، فهو يحصل من العالم الثالث رغم ثالوث تخلفه (الفقر ـ الجهل ـ المرض) على قدرة إضافية تزيد من قوته ، فهو يحصل على الطاقة ، وعقل العلماء ، وقضية هجرة العقول لا تقل خطورة عن هجرة الطاقة ، فالعقل هو الطاقة الرائدة التى تقوم بعملية الربط بين طاقة الطبيعة ، وطاقة العضل .. أى البشر ..

وكم من المستشفيات والمصانع والمشروعات الاقتصادية والمعامل العلمية

فى دول الغرب عامرة بأبناء العالم الثالث .. ومواجهة المشكلة ليس بالأمــر الهين . فإذا تمكن العالم الثالث من تقديم الحــوافز المادية التى يقــدمها الغرب ، فإنه من العسير أن يفى بالمتطلبات العلميــة ، وتوفير بيئــة البحث والتكنولوجيا ، وبذلك نعود إلى نفس المشــكلة .. نقــل التكنولوجيــا واختزال الزمن !

* * *

(١٣)

حــــول مشـــــــكلات
وتطوير القرى والمدن العربية

● القرية المصرية ، بل وكل قرية من قرى أمتنا الاسلامية عنوان للتخلف الاجتماعى والاقتصادى ..

كيف يمكن للتقنيات الحديثة أن تترك بصماتها عليها ؟

.. من المعروف أن هناك العديد من المؤسسات والمراكز الدولية التى تعمل وتهتم بالبيئات القروية والزراعية ، ومن هــذه المراكز مركز توظيف تقنيات الطاقة فى البيئة الزراعية فى جنيف ، وهذا المركز يحاول عن طريق اقتراح مشروعات أن يسهم فى توظيف واستئناس التقنيات الحديثـة لاســتغلال الطاقة على مختلف مستوياتها فى البيئات الزراعية باعتبار أن البيئة الزراعية تلتقى من ناحية بآفاق الإنسان معبأة زمانياً ومكانياً على أعلى مستوى مستغلة كل الطاقات ، طاقة الطبيعة .. الهواء والشمس ، وعطاء الأرض .. إلى آخره من الأمور المعروفة ، وقد أتيح لنا كمستشار أن نسهم فى نشاط هذا المركز ومشروعاته المستقبلية ، ويكاد أن يكون هناك اتفاق فى أن مجتمعات العالم الثالث أساساً تعانى من مشكلات التخلف .. وعندما نقول مشكلات التخلف نعنى مشكلات أغلبية البيئات الزراعية ، فالمتخلف الحقيقى ليس هو مجتمع نام ، وإنما المتخلف هو الجانب أو القطاع الزراعى الذى يشــكل فى أكثر الأحيان الغالبية ، أى أن أغلبية المجتمع قطاع زراعى أو بيئة زراعية قروية ، وما يتبقى مدن ووحدات حضارية فلو استطعنا أن نقوم بعلاج القــــرية وربطها بالتحضر لتحاشينا بذلك مشكلات بلا حدود أدت فى النهاية إلى كساد القرية ، واختناق المدينة .. فمن ناحية المدن اختنقت على كل المستويات ، بشريا ، ومن حيث الخدمات العامة والمرافق ، أغلب المدن فى العالم الثالث

اختنقت أو فى طريقها للاختناق ، وما نجا منها لن ينجو فى المستقبل لأن المسلسل مستمر ..

ومثل هذه المراكز العلمية تحاول أن تركز لا على مشكلات المدن ، وإنما على امتصاص المشكلات من جذورها ، وهى البيئة الزراعية ..

● كيف تتحول البيئة الزراعية إلى بيئة مستأنسة للتقنيات لا رافضة لها ، مستأنسة للبشر لا طاردة لهم ؟

.. من هذه الزاوية ثمة رؤية تطرح الآن بموضوعية ، وثمة مشروعات متعددة ، منها محاولة خلق روح العمل الجماعى فى القرية ، لأنه من الصعب مع التقنيات الجديدة أن تنمى على مستوى زراعة فردية ، وإنما لاستغلال التقنيات الكبرى لابد من مساحات كبيرة ، ولابد من طاقات متكاملة كما هو الحال الآن فى الشركات متعددة الجنسيات .. إن الشركات نفسها تحل نفسها وتندمج فى بعضها لتصبح قادرة على الإنتاج والاستغلال والمضاربة .. القرية نفس الشيء لابد من عمل جماعى ، لأن اليد الواحدة لا تصفق ، لابد من يد الجماعة ، وعمل جماعى قادر يعمل معا لكى يستوعب القدرات التقنية ، لأن الآلات الكبرى من الصعب على فرد له إمكانيات محدودة أن يشتريها ويستأنسها ويتعود عليها ، لأنها تحتاج إلى مساحة واسعة من الأرض مع عدد كبير من البشر ، ورأسمال متكامل وذلك يساوى استغلال للتقنيات .. ولهذا تتجه هذه المراكز كما أقول لخلق العمل الجماعى .. والمفروض أن هناك مجموعة تدرب خلال ٦ شهور منهم المهندس الزراعى ، والباحث الاجتماعى والموجه التربوى للتعرف على العادات والتقاليد السائدة ، ويعاون الباحث الاجتماعى فى العمل الحقلى الميدانى ، إدارى واقتصادى ، أى مجموعة من ٥ أو ٦ أفراد تشكل الحاجات المتعددة ، ويعملون على استغلال الإنسان فى كل أبعاده وطاقاته وإمكانياته ، والأرض فى كل أبعادها كالشمس والهواء والماء ، وما تعطى الأرض ، واستغلال حتى الحشرات والديدان ، واستخدام العلم فى تحويل حتى البكتريا إلى طاقة ، وكذلك المخلفات الآدمية والحيوانية إلى طاقة ، لهذا ففى تصورى أن هذه المراكز هامة ، وأنا أميل شخصيا إلى نفس المنطق الذى يقول : إن مشكلة المدن تبحث

أساساً من جذورها ، أى القرية ، لأنها لو استطاعت الجهود أن تقيد قــوة الطرد من القرية لبدأت بنجاح عملية تهوية المدينة ، لأنه بقدر ما تتكلس القرية بقدر ما تستقبل المدينة ضيوفا ليست فى حاجة إليهم ، وحينما تستقبلهم كالمعدة التى تأكل أكثر مما تحتاج ، فيبدأ الانتفاخ والأعراض المرضــية .

المدينة مريضة بالقرية ، أو ظاهرة قرونة المدن فى شكل أحيائها الهامشية، فلو استطعنا أن نعالج القرية خصوصا الآن ، ومع الرغبــة فى العــودة إلى القرية ، وإن كانت هذه الرغبة تنطلق من مستوى الرفاهية وليس على مستوى من استئناس قدرات القرية ، وأعنى بذلك هجرة قمم المدينة ، أو مستوى الفئة العليا للمدينة إلى الحياة الريفية عن طريق فيلات أنيقة مرفهة لهم بها .. ويلاحظ فى أوروبا أن كل من له إمكانيات يهاجر إلى الريف والغابات ، ليس للعمل بالطبع ، ولكن للتمتع بهدوء الريف ، وجمال الطبيعة والخضرة الدائمة ..

إذن فالعودة للريف ممكنة ، ولكن من الأفضل أن يحاول أن يجعل من القرية قدرة ديناميكية تجعل منه إنسانا يعيش وهو راض عن القرية لا كاره لها .. كيف ؟ ..

حينما يستغل الإمكانيات والتقنيات الحديثة فى خلق الحياة الكريمة ولا أقول المرفهة ، بل حياة التجاوز للضرورة والحاجة والكفاف ، هذه الناحية ربما تكون مثالية ، ولكنها تشكل محاولة جادة من الهند ، ولديها مشروعات كثيرة فى هذا المجال ، لأنها من الدول الفقيرة ، ومن دول العالم الثالث التى تحاول أن تستفيد من هذه الدراسات العلمية ..

وبالنسبة لمجتمعاتنا العربية ، وخاصة مصر ، التى بدأت قضية إشكالية الحضر ، أو إشكالية المدينة ..

فالمدينة لم تعد مشكلة ، وإنما إشكالية ، يعنى هناك الآن من يتشاءم ، ويقول إن الحل هو لا حل .. هل فعلا أننا حقيقة أمام مدن يشك فى وجود حلول لها لتعدد الحلول .. وتركها لتنمو وتتضــخم بطريقة شــاذة إلى أن تنفجر ؟ ! هذه بالطبع قضية من الصعب قبولهــا فى عصر المنهــج ، وعصر

التكنولوجيا ، وعصر سيطرة الإنسان على الطبيعــة ، يعنى : صعب على الإنسان فى القرن العشرين أن يقبل هذا الذى كان يمكن قبوله فى القرون الوسطى ، صعب عليــه أن ينتحب ويبكى على الأطلال ، ويقــول ضاعت المدينة ، وكل شىء إنتهى ! ..

كيف يتدخل ليوقف هذا المد السلبى الذى هو فى طريقه لخلق مأساوية العمران ، وكارثة المدينة ..

.. فى اعتقادى ، المفروض أن نحارب المدن الكبرى الآن بكل السبل ، صحيح إنه قد يكون حولهــا نوع من الزهو والافتخــار الوطنى ، ولكن المستقبل هو للمدن المتعادلة ، أى المدن الوسطى ، فبقدر تواضع المــدن الكبرى بقدر ما يكون مستقبلها أكثر ضمانا ، أما دفع المدينة إلى العملقــة والتضخم الذى يصبح كتضخم العملة ، فهذه قضــية يجب أن تواجه بكل صرامة وشدة ، وفى الوقت المناسب ، لأن ما أكثر المشكلات التى يمكن أن تحل بنوع من الجدية فى فترة معينة ، وبعد مرور سنوات يستحيل حلها ..

نعم ، من الأفضل مواجهتها أولا بأول ..

ما هو الحل ؟ .. هل من الأفضل البحث عن حلول ترفيهية ، بمعنى أن كل جانب يبدأ من تفتت المدن ، أم اســتخدام الحلول الجــذرية ، وهل الحلول الجذرية تأتى من داخل المدينة أم من خارجها .. هذه القضية يدرسها كثير من علماء العمران ، وإنما من رأيى أن حلول المدينــة من خارجهـــا وليست من داخلها ، المدينة ممر ، بقدر ما تحصر جوانبه ، بقدر ما يمكــن حصره بالتالى ، وحصاره لتخفيف حدته .. وحينما يأتى البشر للمدينة هل يسهل أن نخرجهم منها وإعادتها إلى القرية ، لا .. من الصعب ، لأن الريفى بمجرد أن يتحول إلى أسلوب المدينة يتعالى على أسلوب القرية .

إذن فمن الأولى ألا يدخل فى هــذا الإدمان الحضرى ، ويتعــامل مع قريته ، ولكن ليست القرية المهجــورة ، وإنما القــرية التى بدأت النمــو والتحضر ، وأعتقــد أن القــرية المنعــزلة ، المفروض بدورهــا أن نعيــد النظــر فيهــا ، فبقــدر ما نقــول إن المدينــة الضــخمة مهيبة ومخيفــة

بقدر ما نقول إن القرية الضئيلة لا يمكن أن تستغل فى آخر القرن العشرين ، لا يمكن أن نعطى لمجموعة من البشر ٢٠٠ أو ١٠٠٠ أو ٢٠٠٠ خدمات عامة على مستوى كثافة التكنولوجيا لأن كثافة التكنولوجيا تتطلب دائماً كثافة بشرية .. لهذا المفروض أن نبدأ مسلسل تقليص العملاق والتضخم ، وأيضاً دمج الصغير والمتضائل فى صغره ، أى تجميع القرى لتتحول إلى مدن صغيرة ، والتقليل من المدن الكبرى لتتحول إلى متوسطة ، بمعنى أن المستقبل المأمول هو للمدن الصغيرة والمتوسطة ، وهذا يتطلب النفس الطويل ، والابتعاد عن المجازفة ، إنطلاقاً من القرية المتنقلة (الرحل) مروراً بالقرية النائية والقرية المهمشة للمدينة حتى ظاهرة قرونة المدينة أو الأحياء الهامشية الشعبية المعيقة للخدمات العامة والمرهقة للمرافق ..

إن المدينة فى رأيى مريض .. من الأفضل أن نبذل كل ما فى جهدنا لكى نطهر المكان الذى ينام فيه حتى لا تأتيه الميكروبات ، وحتى لا تحدث مضاعفات ، ثم نسهر على راحته وتوفير الهدوء له ، حتى لا تحدث له مضاعفات ، وحتى يتجاوز الأزمة ، ونخفف أيضاً من الأكل الذى يملأ معدته حتى لا يؤثر فى الدورة الدموية ، أى نضمن له القدرة على المقاومة ، وتقوية المناعة الداخلية ، لنساعده أولا بأول على أن يسترد صحته .. وبالطبع كل ذلك يجب أن نبدأ به قبل أن تتعجل عملية فتح البطن ، وشق القلب وتغيير طبيعة الدم وحركته عن طريق السوائل .. إلى آخره ..

وبنفس المعيار نتساءل : هل المدينة من الأفضل أن تلاحظ ويمنع الوصول إليها والمزيد من تكثيفها ، أم التدخل فى عمقها لإعادة صياغتها .. أنا لا أعتقد فى إمكانية صياغة المدينة من داخلها ، إلا إذا استثنينا التى تبنت ما يعرف فى الدراسات العمرانية بمبدأ ما يسمى بالصيانة الدائمة ، أى استمرار إعادة النظر فى المدينة ، فى أحيائها وشوارعها أولا بأول ، بمعنى أن الصيانة مستمرة .. والشىء الذى لم يلاحظ يتم ملاحظته حتى يتم اكتشافه قبل أن يقع ، وهذا ما يحدث فى أوروبا بالطبع .. أما فى بلادنا فهذا صعب .. حيث لا يسود أسلوب الصياغة الدائمة ، ولكن القضية هى أننا حين تتعرض للمشكلة نقف لنتساءل .. كيف نرقع ؟ ..

وقد تبرز حلول تخفف من حدة الكارثة ، وتقلل من كثافة الضرر ، ولكنه لن ينته ، بل سيظهر حتما .. لهذا فأنا فى دراساتى من أنصـــار تصنيف أى مدينة من المدن إلى مستويات ثلاثة :

ـ الفئة السليمة نسبياً ..

ـ الفئة القابلة للعلاج ..

ـ الفئة التى لا علاج لها : ويجب تغييرها نهائيا بمعنى تقسيم المدينة إلى أقسام ثلاثة :

ـ قسم حديث يتمتع بخدمات عامة ، والتخطيط العمرانى به لم يصل إلى نصف العمر الافتراضى ، وهذا قطاع لا يدخل فى مسلسل إعادة الصياغة .

ـ وهناك القسم الذى اهتز جانب منه ..

ـ وهناك القسم المهلهل ..

ومن الخطأ معالجة الأقسام الثلاثة بنفس الدواء .

فالقسم الأول : يواجه بالعزل ، أى الصيانة المســتمرة ، حتى لا تنتقل إليه العدوى ، وحتى لا يستفحل الأمر ، **اما القسم الثانى** فهذا له علاج مرحلى وليبحث أمره لتقسيمه بدوره إلى قسمين ، جانب منه يلحق بالقطاع الأول السليم ، وجانب آخر منه يلحق بالقطاع المهلهل .

اما القسم الثالث : فهو يقسم إلى مستويات متعددة ، وأحيــاء .. تحتية التحتى ، وسطحية التحتى ، فوقية التحتى ، تحتية الوسطى ، وسطية الوسطى ، فوقية الوسطى ، ثم تحتية الفوقى ، وســطية الفوقى ، فوقيــة الفوقى .

فوقية الفوقى : لا مشكلة فيها ، ووسطية الفوقى تراقب ، وتحتيةالفوقى ينظر إليها بنوع من الصرامة لأنها هى التى ســتصل بداية المشــكلات فى الخدمات العامة ، ثم تأتى مرحلة الوسط ، مرحلة فوقية الوسطى تصــحح لتلحق بما هو أعلى تخفيفاً لميزانية الدولة ، وتبقى تحتية الوسطى وتلحــق بالتحتى ..

والتحتية أقسام ثلاثة . تحتية التحتى ، تهدم نهائيا ، ويخلق لها ما يسمى بالحى المتنقل ، فى أماكن قريبة من المدينة ، تستوعب ١٠٠ ألف نسمة أو أكثر ، وينقل إليها الناس الذين يساهمون فى بناء مساكنهم ، حتى إذا أتموا بناءها ينقلوا إليها ، ويتم نقل وسطية التحتى إليها ، وتدمر بيوتهم ثم يسكنون فى الحى المتنقل حتى يتم بناء مساكنهم ، وكذلك الأمـر بالنسـبة لفوقيـة التحتى ..

● ولكن كيف يمكن تطبيق هذه القواعد على مدينة كالقاهرة الكبرى ؟

.. بالنسبة لمصر عموماً ، فالمشكلة أنها تعانى حالياً من تفريغ القـرى وكساد الطاقة الإنسانية وبالتالى طاقة الطبيعة ، لأنها هى المحركة ، وتبديد هذه الطاقة لصالح المدن مشكلة ..

والمعروف أن مصر تعانى من ظاهرة تضخم القاهرة وأخشى أن تصبح مصر هى القاهرة ، كما تجرى على ألسنة العامة ، وأدت ظاهرة الهجرة وتفريغ القرى لحساب القاهرة ، أن أصبحت القاهرة مدينة مفتعلة تمتص القرى ، ولا تكتفى بذلك ، بل وتمتص ما يفيض من المدن الأخرى ، فهناك سـوء توزيع ديموغرافى (سكانى) فى المدن ، وهناك تفريغ القـرى لصالح خارج المدينة ، وهو ما يعرف الآن بهجرة الأيدى العاملة النادرة على أن تشـكل أرضية الطاقة الإنسانية .

ومشكلة القاهرة الكبرى من المستحيل حلها .. لا لأن هناك اسـتحالة فى حلها بل لأن هناك منطقية عقلية فى التعايش مع المشكلات بالعاصمة أى أن هناك عملية تقبل للمعـاناة ، وصلت إلى نوع معين من التقلص الذهنى ، والتعود على المشكلات ، وذلك يعنى بالتالى تأزيم وإطالة لها ، والوصـول إلى أنه لم يعد هناك شىء مزعج .. رغم كل المتاعب ، أى كما يقولون : إذا عم البلاء هان .. إن عقلية التعايش مع هموم القاهرة جعلت هناك سـكوتا وتقبلا ضمنياً ، ومهما كان هناك أقوى جهاز إدارى فى العالم ، فلا يستطيع أن يغير عقلية بسهولة ، لأن هذه مشكلة المواطن فى حد ذاته ، وقد تتحول كل الأمور إلى نصوص وتوصيات ، ومواعظ ، وإرشادات .. والواقع ،

والمفروض أن يكون فى القاهرة شعور بوجود مشكلة بها لدى القاهريين ، وأنه قد آن الأوان لكى يقفوا بجانب الدولة ولا ينتظروا منها أن تعطى لهم الحلول السحرية .. فليعلن القاهريون أن القاهرة يجب أن تعاد صياغتها ، أما أن يدبج البعض خطبة ترد على خطبة الدولة ، والدولة تقول يجب عليكم ، ويقولون نعم يجب علينا وعليكم ..

لا .. هذا عبث ، والمفروض أن يقول كل فرد : ماذا أستطيع أن أفعل ؟ إن على عاتقى واجب كالزكاة تماماً .. إعطاء جانب من وقتى للقاهرة حتى أستطيع أن أعيش فيها ، وفى هذه الحالة لا يمكن إصلاح القاهرة بنظرة فوقية ، وإنما بنظرة قاعدية . وأنا لا أعتقد فى جدية « تصليح » مدينة بقرار فوقى ، وإلا سنمضى فى رحلة شاقة عبر مئات المكاتب ، ثم تحقيق بعض الاصلاحات ، وفى تصورى لكى تواجه القاهرة مشكلاتها ، فإن عليها أن تجزأ لأكبر قدر ممكن من الوحدات الصغيرة ، أى لا تحول إلى أحياء ، بل إلى جزئيات من أحياء ، ومعنى ذلك أن تصبح كل جزئية مسئولة عن الألف أو الأربعة آلاف الذين يقطنونها ، ويميل إلى هذا الرأى رائد الهندسة المعمارية فى العالم ، وهو « كوربوزييه » — حتى وفاته من سنوات — الذى وضع تخطيط مدينتى « مكسيكو » ، و « برازيليا » ، وهو ينادى بأن نأخذ المدينة ونصورها فى شكل عمارة .. ونتساءل : هل من الأفضل للعمارة أن يأتى إنسان ويقف أمامها ويقول علينا أن نعيد صياغة العمارة ، أم من الأفضل أن كل شقة فى العمارة تهتم بما هو أمامها وما بداخلها .. هذا هو بالطبع المفروض .. وهنا تبدأ قضية العناية بروح المشكلة ..

هذا مع الأخذ فى الاعتبار ما شرحناه آنفا من أن البنية الأساسية تصاغ على مستوى التبويب الثلاثى « الفوقية ، والوسطية ، والتحتية » ، وإلى جانب ذلك يأتى مسلسل الإصلاح الجانبى على مستوى الجزئيات ، أى أن الدولة تنظر إلى القاهرة فتقسمها إلى ثلاث مناطق : القاهرة التى أنقذت ، وهى فى نطاق الأحياء التى قد تصل الخدمات العامة والمرافق بها إلى ثمانين فى المائة ، ثم الفئة الوسطى ، وهى تخص الأحياء القابلة لإعادة الصياغة ، ثم الفئة التحتية ، وهى أحياء القاهرة التى يجب أن تزول نهائياً عن طريق الحى المتنقل ، كما

أشرت .. هذه هى النظرة العامة للقاهرة . ثم يأتى دور الأفراد ، ويبدأ قبل أن نقول «باسم الله» فى التبويب الثلاثى ، ولتغلق القاهرة تماماً .. لأنه مادام هناك « حنفية » البشر تصب ، فمن المستحيل حل المشكلة ..

لابد أن نعلن أن القاهرة لم تعد قابلة للزيادة ، والمدينة لا يمكن أن ينصلح حالها إلا بقدر كثافة الوعى فيها ، أى أنه من الصعب أن تصلح مدينة عن طريق النصائح والمواعظ ، وكتابة المذكرات والتقارير ، ولكن عن طريق إعداد المواطن الذى يصر على أن يصون المدينة ، لذلك فأنا أنادى الآن بأن تدخل القاهرة كمادة أساسية فى المدارس بدءاً بالمرحلة الابتدائية .

* * *

(١٤)

الأسرة

(نظرة فى النشأة والتطور ومسئوليتها أمام عوارض التنميـــة)

● موضوع الأسرة .. ومسئوليتها أمام عوارض التنمية الاقتصـــادية والاجتماعية من الموضوعات التى درست فى إطار لقاءات وندوات دولية متعددة من ندوة المركز الوطنى للبحث العلمى فى فرنسا « الســوسيولوجيا المقـارنة للأسرة المعاصرة » سنة ١٩٥٥ .. الى مؤتمر الرباط عن « الأسرة ومستقبل الشباب فى الحياة » سنة ١٩٦٢ .. الى ندوة بروكسل سنة ١٩٦٥ عن أسرة اليوم .. الى جانب الندوات الهامة التى عقدتها منظمة « الأسرة والعمـــل الاجتماعى الدولية » سواء فى باريس سنة ١٩٦٨ أو لاهاى سنة ١٩٧٠ ، أو تونس ســنة ١٩٧١ أو فى الرباط ســنة ١٩٧٣ .. وقــد شــارك الدكتور رشدى فكار بدراسات بالفرنسية فى هذه الندوات ..

وهذه اطلالة سريعة تستقى بعض الأفكار التى طرحهــا حــول موضوع الأسرة ونشأتها وتطورها ، ومسئوليتها أمام عوارض التنمية الاقتصـــادية والاجتماعية :

● غنى عن التعريف أن موضوع الأسرة ، يعد من الموضــوعات التى حظيت باهتمام المتخصصين على اختلاف انتماءاتهم من مشرعين وتربويين ، إلى إقتصاديين ، وديمغرافيين إلى أنتروبولوجيين ، وسوسيولوجيين ، حتى شكل ما كتب عن الأسرة ، وما حولها نظريات متشعبة ، واتجاهات عريضة مجرد الاستيعاب لها يعتبر تخصصا فى حد ذاته .

كمثــال فقط فى إطار الدراســات الأنتروبولوجيــة خصــوصاً لدى الانجلوسكسون ، ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، تجاوز الإنتاج مئات الدراسات المتخصصة ، والأبحاث المتعمقة ، ونشير للدراسات الأولى فى حقل

البحث الاجتماعى الحديث كدراسات « وستيرماك » عن تاريخ الزواج الإنسانى ــ فى ٣ مجلدات ــ سنة ١٨٩١ ودراسة « ديركايم » عن الأسرة الزوجية سنة ١٩٢١ ، ودراسة « جورج واف » عن الأسرة والقرابة عند ديركايم سنة ١٩٣١ ، وانطباعات « ليفى ستراوس » عن البنيات المبدئية للقرابة سنة ١٩٤٧ ، ونخص بالذكر كمثال من الدراسات التى تمت منذ الخمسينات : الدراسة القيمة « لتالكوت بيرسنس » عن « الأسرة والتنشئة » وعمليات التفاعل الاجتماعى سنة ١٩٥٥ ودراسة « شومباروس لوف » عن الأسرة والإسكان سنة ١٩٥٩ ودراسة « ميشيل » عن وظائف وبنيات الأسرة سنة ١٩٦٠ ، ودراسة « شيلدن » ، و « كلوك » عن الأسرة وتلوث البيئة والانحراف سنة ١٩٦٢ ، ودراسة « جوديميه » عن المجتمعات الأسرية سنة ١٩٦٣ ، وكذا البحث الذى نشر فى إطار « سوسيولوجية الأسرة » سنة ١٩٦٣ ــ ١٩٦٤ كخلاصة لدراسات عملية عن عوارض العمران والصناعة على الأسرة ، ودراسة « ريمى » عن مقاومة الأسرة المنتشرة فى وسط صناعى عمرانى .. سنة ١٩٦٧ .. والقائمة تطول بنا لو توخينا التفصيل والحصر ، وإنطلاقا من هذه الدراسات يمكننا أن نعطى بعض التحديدات الأساسية بالنسبة لمدلول الأسرة أولا ، ولعوارض التنمية الاقتصادية والاجتماعية على مستوى المسئولية .

* * *

المبحث الأول

الأسرة .. نظرة فى النشأة والتطور

من المسلم به ، أنه من بين البنيات الأسرية المتعددة التى عرفها التاريخ الإنسانى فى مسيرته الطويلة ، تغلب الآن — إن لم تسد — بنية الأسرة الزوجية فى مجتمعاتنا المعاصرة . أما كيف نشأت البنيات الأسرية ، وكيف تطورت فى الفترات المختلفة للإنسانية على تعدد مشاربها ، وكيف تطور نظام القرابة والنسب من البداية حتى يومنا هذا .. فقضية أخرى تعتقد أن التطرق لها قد يتجاوز بنا إطار هذا الحديث المحدد ..

ومع هذا .. نشير — حتى لا يؤخذ علينا أننا تعرضنا لقضية الأسرة من خلال عوارض التنمية دون أن نمهد ولو بفكرة موجزة عن تطور الأسرة — إن الدراسات الحالية عن الأسرة ، قد أكدت أنه ليس هناك موقف موحد متفق عليه بين المختصين فى هذا الموضوع ، بالنسبة لنشأة الأسرة ، وكيف تطورت عبر العصور .. أبرز هذا الباحث « موجى » فى دراسته التحليلية عن « التغيرات فى البنيات الأسرية » سنة ١٩٦٢ ، كما نجد ملخصاً مركزاً لأهم الاتجاهات الرئيسية عن نشأة الأسرة وتطورها عند « جود » سنة ١٩٦٤ ، وقد تجاوزت الإثنا عشر اتجاها ومدرسة . كل مدرسة واتجاهها يتحفظ أو يفند اتجاه مدرسة أخرى .

كمجرد أمثلة من هذه الاتجاهات : الاتجاه « الديركايمى » — نسبة لديركايم — الذى اعتمد على الملاحظات الأتنوغرافية ، والأنثروبولوجية ، وهو يرى أن المجتمعات فى بنيتها الأسرية ، انطلقت أساساً من العشيرة الطوطمية ، لتصل إلى الأسرة الزوجية ، وذلك نتيجة لانهيار تدريجى لشيوعية العشيرة ، وعليه فالنمط العشيرى سابق للنمط الأسرى بمدلوله المحدد — وقد تحفظ على هذا الرأى كثير من علماء الاجتماع — بينما يرى

اتجاه آخر ، وهو الاتجاه « الكونتى » — نسبة إلى كونت — اعتماداً على الأناجيل وبعض الوثائق القديمة . أن الأسرة هى الخلية الاجتماعية الأساسية . وقد دافع عن هذا الاتجاه أيضاً « ليبلاى » ، كما تبنته بعد ذلك المدرسة « الأنثروبولوجية » الأمريكية التراثية الثقافية ، خصوصاً « لوى » بل غالت المدرسة « الانثروبولوجية » الأمريكية فى تبنيه إلى حد القول أن الأسرة دون نزاع سابقة بالتالى للعشيرة ، أما الاتجاه الذى يمكن وصفه بالاقتصادى سواء عند « ماركس » ، وما حوله ، أو « أرنست جروس » ، فيرى أن النشأة والتطور للأسرة مرتبط بأنماط الإنتاج وأشكاله الاقتصادية ، ويشرح على ضوئها من نمط الرعاة إلى نمط الصيادين إلى نمط الزراع ، وما تلاه مركزاً — أى هذا الاتجاه — على طبيعة الاستغلال فى بنية النمط خصوصاً بالنسبة للمرأة .

ومثال آخر : الاتجاه الذى دافع عن نظرية الإباحية والاختلاط الجنسى فى النشأة والتطور فى المجتمعات البدائية ، وأسبقية ذلك فى البنية الأسرية ، ومثل هذا الاتجاه « جوهان جاكوب تبشيفون » و « لويس مورجان » .. إلا أن هذه النظرية عدل عنها الآن واستبعدت ..

وهكذا اتجاهات كثيرة كما ذكرنا قد يطول المقام فى عرضها .. إلا أنه يجدر بنا أن نتساءل ، ونحن بصدد مسئوليات الأسرة أمام عوارض التنمية ، خصوصاً فى مجتمعنا العربى الإسلامى ..

وقبل أن نحدد هذه العوارض .. هل الأسرة العربية الإسلامية عرفت فى نشأتها وتطورها خصائص مميزة ، أم يجرى عليها فى نشأتها وتطورها قبل الإسلام على الأقل ما يجرى على غيرها فى بقية المجتمعات آنذاك ؟ ..

لقد حاول « وليم روبرتسن سميث » سواء فى دراسته عن : « الصداقة والزواج فى فجر جزيرة العرب سنة ١٨٨٥ ، أو دراسته عن أديان الساميين سنة ١٨٩٠ أن يبرز خصائص مميزة للبنية الأسرية عند العرب ، كامتداد للساميين ، على أن هذه البنية عرفت اختلاطاً جنسياً ممثلا فى بنية زواج

المشاركة ، وقد كان سائدا فى جزيرة العرب قبل الإسلام ، إلى جانب بنيات أخرى كزواج الاستبضاع ، وزواج الرهط ، وزواج الشغار ، وزواج المؤاجرة ، وزواج الإخوة ، وزواج الميراث .. كما أن البنية الأسرية العربية سواء أسرية رهطية ، أم فصيلية ، هى تتكيف فى إطار العشيرة .. طوطمية أو سكنية أو دموية على مستوى الأفخاذ أو البطون ، أو العمائر .. بمعنى أولوية العشيرة على الأسرة بمفهومها المحدد ، ولاشك أن محاولة سميث رغم اجتهاده استبعد جانب منها بالعدول عن نظرية الإباحة من أساسها علميا ، كما أن العرب كانوا كما هو معروف يمقتون الفحشاء ، ويعتزون بالأنساب ، ويحرصون عليها .

وعلى كل ، مهما كانت طبيعة الاجتهادات فى تقنينها لنشأة الأسرة وتطورها ، فمن المسلم به أن هذا التطور قد وصل بالأسرة نتيجة لعوامل متعددة إلى بنية « الأسرة الزوجية » كبنية غالبة أو سائدة حالياً ..

* * *

المبحث الثانى

المسئولية الأسرية أمام عوارض التنمية

● **هذه الأسرة الزوجية التى تعنينا اذن كيف تواجه عوارض التنمية الاقتصادية ، والاجتماعية على مستوى المسئولية ؟**

.. التنمية الاقتصادية والاجتماعية سواء بدأت من إسعاد الفرد لتنتهى بإسعاد المجتمع تحت شعار ليبرالى ، أو بدأت من إسعاد المجتمع لتنتهى بإسعاد كل فرد تحت شعار إشتراكى تحت شعار موجه ، ترتكز فى إنطلاقها حالياً على دعامات رئيسية هى : العلم كأساس ، والتقنية كمعرفة ، والصناعة كوسيلة ، وتعتمد فى حركيتها على وجدان معين بطريقة ما ، جماعياً ، وفردياً ، فى الاقناع والتعميم والدمج ، أما غايتها فهى تحقيق مستوى أفضل للحياة مغلفا فى مزيد من الرفاهية المادية . ولنا أن نتساءل أين إنسانية الإنسان من كل هذا ، وأين الأسرة بالتالى ؟ ..

هذا الإنسان الذى بدوره تتحكم فيه وتسير قدرات إنطلاقه دعامات أساسية ، وهى ثلاث : العواطف ، والغرائز ، والمنافع .. ومسئولية الإنسان كزوج أو زوجة أو أبناء يكونون أسرة ــ كامنة فى خلق تعادل وتوازن بين الدعامات الثلاث فى داخل كل فرد ، ثم فى داخل الأسرة كشمول وخلق أولوية فى الاختيار حينما يفرض الاختيار بين هذه الدعامات .

جاءت التنمية بمفهومها المعاصر فطرحت أولوية الاختيار لتحقيق التقدم ، وقد كان .. المنافع والمصالح متكاملة مع إشباع الغرائز الاستهلاكية ولكن فى إطار المسئولية سواء بالنسبة للأسرة أو المجتمع ..

أما العواطف ، فبالنسبة لمجتمع العلم والتقنية والصناعة ، وعصره الآلى ، ليس لها من مكان .. اللهم إلا إذا اندمجت مقنعة تحت شعار المصالح أو الغرائز .. أما بالنسبة للأسرة فقد عز الاختيار ــ ونسمح لأنفسنا باستعمال هذا

التعبير « عز الاختيار » الذى تبرره اللقاءات الدولية المتتالية ، وهذه الأبحاث والدراسات العلمية العريضة الواسعة حول الأسرة ..

إن إنسان القرن العشرين بعبقريته الناضجة ، وعقليته الواعية يبحث عن حل ، بفضله لا ترضى المنافع والغرائز على حساب عاطفته كأب راع ، أو كأم حنون ، أو بنت أو ابن بار . ومن هنا كانت الغيرة ، وكان الحرص على بنية الأسرة الزوجية ، ومن هنا يمكن أن يفهم نداء الإنسان من أعلى منبر فى العالم ، حينما أعلنت على لسان هيئة الأمم المتحدة فى ديسمبر سنة ١٩٤٨ أن الأسرة هى العنصر الطبيعى ، وأساس المجتمع والدولة ، الأسرة والزواج أساس المجتمع تحت حماية الدولة ، حقوق الأسرة يصونها القانون ، حماية الأم والطفل والشيخوخة ..

إن التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، بقدر ما تندفع إلى الأمام ، بقدر ما تزيد وتتضاعف مسئولية الأسرة لتحمى نفسها من الاهتزاز والتصدع والانفصام .. فعوارض التنمية تبدو واضحة فى العلاقات بين الزوج والزوجة ، بين البنت أو الابن وأبيه وأمه ، فالأم فى مجتمع التنمية بازدواج دورها الآن ، الأسرى والمجتمعى ، كزوجة وكأم ، ثم كعضوة عاملة فى المجتمع ، بدأت هى كطليعة للمعاناة ، عليها أن تحتفظ بتعادلها رغم ازدواجية دورها ، بل عليها أن تنجح فى كل الأدوار ، ولكل دور خصائصه ومسئولياته ومتاعبه ، والابن والبنت بدورهما لحقهما شرار المعاناة ، وبدأنا نعيش جيل الرفاق لا جيل الأبناء والآباء ، الرفيق الصغير أقرب لرفيقه الذى لازمه وعانى معه من فقدان الحنان فى دور الحضانة ، وفى الداخليات والمخيمات من هذا الأب وهذه الأم . هؤلاء الغرباء . ومن هنا يمكننا أن نقف على علّية الكثير من ظاهرات العصر .. كصراع الأجيال والهيبية ، والتمرد والجنوح والمتهمشين طواعية ، وحتى الرفض ، والزوج والأب بدوره بدأ يجنى الثمار ، ثمار ازدواجية دور الزوجة التى باتت أبعد إليه من رفيقته فى المعمل ، أو سكرتيرته ، وثمار مجتمع الرفاق حينما يشعر بشبح الاغتراب بين أبنائه وفلذات أكباده ، وانعكست ظاهرة الاغتراب ، أو الاستلاب فى جملتها وشمولها على المجتمع ، كل يحاول أن يشعر بوجوده المستلب من خلال شىء يقتنيه ويستهلكه ، يسقط من خلاله ليشبع قدرة كبرى كامنة ومقنعة

فى أعماقه تريد أن تنفجر . هذا الاستلاب وهذا التشيؤ وهذا الإسقاط ، بقدرات تغميضية ، بحث عن العزاء فى مضاعفة الإنتاج ، وبالتالى فى مضاعفة الاستهلاك فى مجتمع التنمية ، ولكن علينا أن نحذر أن تتم هذه التنمية فى إطارها الاستلابى على حساب الإنسان ، وحساب الأسرة . فالتنمية والصانع لها .. الإنسان .. هى من أجل إسعاده فى النهاية ، كأسرة ، كأب وأم ، وأبناء ، لا لاستلابه وضياعه .. وهنا يحق لنا أن نطرح من خلال هذه الانطباعات كيف يحتفظ الإنسان النامى المتقدم بتوازنه كأسرة أمام هذه المواجهة الصارمة ؟

لاشك بفضل التوعية بالمسئولية .. مسئولية الأسرة كأسرة ، وأمام المجتمع ، ومسئولية المجتمع بالنسبة للأسرة ، مسئولية ثنائية ، تربوية ، اقتصادية ، اجتماعية بصفة عامة ، ومسئولية تشريعية .. الأولى تتصدر فى تحملها الأسرة إلى جانب المجتمع ، خصوصاً فى الإطار التربوى ، بينما يتصدر المجتمع فى تحمل مسئوليته فى الإطار الاقتصادى التشريعى ، ويساهم بدور فعال فى تعميم الإطار التربوى للمسئولية . المسئولية التربوية عليها أن تنطلق من التوعية بالمسئولية ذاتها ، ونعنى على مستوى العطاء الأسرى والإجتماعى لا الأخذ .. نخلق ونعبى المواطن المعطاء لأسرته كأب وكأم ، وكابن وبنت ، والعطاء لمجتمعه ، ولا يمكن لتوعية بمسئولية أن تتم دون التزام بمثل غائية ، لا وقتية ، ولا نفعية ، ومن هنا تأتى أهمية الالتزام بالقيم الروحية والدينية المشتركة كقدرة وجدانية جماعية تنطلق منها التعبئة بطريقة واعية ومعطاءة لا منكهفة ومتذمنة ..

وإننا لنعتز بإسلامنا المنطلع الذى هو أساساً دعم الأسرة ، وأكد استقرارها وحمايتها ودعم الوجدان الجماعى ، وعبأه بطريقة واعية ، بفضل اجتهاد خلاق ، ومستمر مكنه وسيمكنه دائماً من أن يلعب دوراً أصيلا فى تثبيت المسئولية التربوية وضمانها فى إطار الأسرة ، وذلك بما فيه من مبادىء سمحة تحقق لنا التعادل والتوازن ، بين العواطف والمنافع والغرائز . ولا يمكن لشعور بالمسئولية التربوية أن يؤتى أكله دون أن ينتشر ويعم ، وهنا يتصدر دور وسائل التوصيل والإعلام من راديو وتلفزة ، وصحف

وسينما ، وحتى اسطوانات وتسجيلات ، وسائل التوصيل المجسدة لما نسميه بثقافة عامة الشعب ، وبها تتميز أيضاً حضارتنا المعاصرة ، بعكس ثقافة النخبة المرتبطة بالتعليم والتهذيب المدرسى .. يمكننا بفضل وسائل التوصيل أن نقدم أبطالاً ونجوما وقيما ، وأفكاراً ووعيا صحيا ونفسيا وإنسانيا أكثر نقاوة وعطاء وإيجابية من أبطال عصابات السطو ونماذج الحقد والرذيلة والاستهلاك ..

إن المسئولية التربوية تطرح علينا فى إطار الأسرة والمجتمع كيفية الاستفادة من أوقات الفراغ والترفيه ، وكيفية دعم المواطن بمثل وقيم تجعل احتكاكه بقيم وأفكار الآخرين متفاعلا بناء وإيجابيا ، وكيفية امتصاص سلبيات عوارض التنمية ، بما فى ذلك سلبيات الاحتكاك الحضارى ، ولا يمكن لمسئولية تربوية فى إطار الأسرة والمجتمع أن تصل إلى هدفها إن لم تصاحب مسئولية تشريعية ، إن كان دور المسئولية التربوية هو دور المعبىء والمقوى فدور المسئولية التشريعية دور الحامى والواقى .. دور دفاعى ، المسئولية التربوية تقف موقف المهاجم لسلبيات عوارض التنمية ، والممتص لها ، بينما المؤسسة التشريعية تلعب دور المعين لإيجابيات التنمية والمدعم لها ، وذلك بفضل سنها لتشريعات وقائية وعلاجية ، تتكيف وتكيف الأسرة مع طبيعة نمو المجتمع وتقدمه ، وتحميها من الاهتزاز والتصدع والانفصام ، لقد سهل لنا الإسلام بقدراته التشريعية هذه المهمة . فأى تشريع فيه وقاية وحماية للأسرة وتدعيم لكيانها . الإسلام كدين اجتهاد متفتح يزكيه ويؤيده . كما لا يمكن لمسئولية تربوية كانت أم تشريعية أن تتحرك فى مجتمع الفاقة والاحتياج ، فاستحالة سد ضروريات الحياة يشل كل مسئولية تربوية وتشريعية ، وهكذا تتصدر المسئولية الإقتصادية فى إطار إمكانيات المجتمع لكى تعطى للأسرة مستوى للحياة كيفى ومهنى ، إن نور التطلع وفلسفة المستوى الأفضل للحياة ، بدأ بفضل وسائل التوصيل ، من خلال ثقافته العامة يدخل إلى غالبية الأسر فى المجتمعات .. ولم يعد خافيا على أحد ما صاحب هذا التطلع من زحف تلقائى فى أى اتجاه كان .. فكان زحف البوادى نحو الحضر ، وكان زحف عامة المواطنين إلى دور التعليم والمعرفة ، وكان زحف التجار والصناع من سوق أبخس إلى سوق أكسب .. تحرك

المجتمع فى اتجاه التنمية ككل وفى حركة .. وفى كل زحف تشعر الأسرة بعوارضها وردود فعلها ، ومسئولية المجتمع إقتصادياً تأتى هنا فى إمكانية توصيله لهذه التحركات ، وهذا الزحف ، ليلعب لصالح الأسرة لا عليها ، وذلك بتوسيع سوق التشغيل وتدعيمها عن طريق تشجيع الاستثمارات والضمان الاجتماعى لضعاف الحال ، وفى إطار الإمكانات ..

وكخلاصة .. إن كان من المسلَّم به أنه نتيجة لعوارض التنمية الاقتصادية والإجتماعية قد زادت المسئولية الأسرية كمًا ، وذلك بتعدد وظائف الأسرة ، وازدواج أدوار بعض أفرادها ، وتنوع أدوار البعض الآخر ، فالمسئولية الأسرية — والحق يقال — قد ضعفت كيفاً نتيجة أيضاً لسلبيات هذه العوارض ..

ولا شك أن مزيداً من الدراسات واللقاءات العلمية يمكن أن تساهم فى توضيح هذه السلبيات وتحديدها لتحاشيها ما أمكن ، وتدعيم إيجابيات التنمية على مستوى الأسرة ، مستفيدة فى ذلك من التجارب المختلفة ، ومن مواجهة الآراء الناضجة ، واثقة من أصالة الهدف السامى .. مزيداً من الاستقرار ، ومزيداً من الحماية ، ومزيدا من التدعيم عن طريق المسئولية الأسرية الواعية .. لنحقق السعادة والرفاهية لا لأسرتنا العربية والإسلامية وحسب ، بل وللأسرة الإنسانية فى كل بقاع الأرض ..

* * *

(١٥)

فلســطين الشــهيدة ..
والاشـــكالة المعقـــدة

● **ماساة فلسطين .. كيف ينظر اليها الدكتور رشدى فكار ؟**

.. فلسطين العزيزة أصبحت مأساة .. اشكالة كبرى ومعضلة فرضت علينا ..

إشكالة معقدة لأن هناك استحالة لإلقاء فلسطين بعيــداً عن الميــدان الإسلامى ، بعد هذا التاريخ العملاق المشترك ، ولأن هناك صعوبة الآن فى التعامل مع الواقع الذى انتصرت فيه أمور كثيرة قد تكون أبعدت القضية عن مجراها الطبيعى .

من حاول أن يغتصب فلسطين فى البداية جاء لها بوجدان دينى أسطورى معبأ . ارتباطات أساسية وهى أن فلسطين ليست مجرد قطعة أرض ، وليست مجرد منطقة للتوسع ، وإنما فلسطين ترمز إلى وجدان دينى راسخ لدى من أطلقوا على أنفسهم « المطالبون بالعودة » ما فعل العرب ؟ .. واجهوا الموقف بأمور قد تبدو فى النظرة السطحية أنها تتمتع بديناميكية تعبوية ، ولكنهــا حين الممارسة اتضح أنها لا تتمتــع بأى قــدر من التعبئــة ، وأعنى بذلك المشاركة فى بعض الشعارات المطروحة فى القرن العشرين ، والتى هى فى الواقع شعارات اشتعلت فى أرض لا علاقة لها بأرض المواجهات الروحية ، وأرض الوجدان الدينى الراسخ ، وأعنى بذلك حركة التحرر الشــعارى ، وحركة المد الثــورى من خلال الغــرف المغلقة والمكيفة فى أغلب الأحيان .

هذه بلا شك أمور قد تبدو جذابة ، فكل إنسان يسعى إلى مزيد من التحرر ، ومزيد من العدالة ، ومزيد من المساواة ، جميل .. ولكن حين ربطنا

مصائرنا بهذه المواقف ذات الطابع الاستراتيجي والتكتيكي ، طابع الانتماء والالتصاق بالأرض ، والاستراتيجية المنتهجة ، كان من المفروض أن تنبنى على أساس أن نتصدى لمن جاءك بوجدان دينى بنفس السلاح .

القضية طرحت مغلوطة منذ البداية إذ وقع فيها خطأ مطبعى ، ودفعنا الثمن ، لأن هذه المخاضات التى تغلفت ببحور من الدم ومن الاستنزاف للطاقات وللعقول ، ابتعدت عن أسلوب التعبئة الذى انتهجه الأجداد من قبل فى المواجهات التى تمت فى العصر الصليبى ، وكانت الدعوة إلى استعادة الأراضى المقدسة تنطلق من الحج ، ومن يراجع ابن جبير يجد الإجابة ، كانت مواسم الحج هى مواسم التعبئة لاستعادة ما اغتصب من ديار الإسلام ، لم توضع لها مؤثرات أو استراتيجيات ، ولا تكتيكات .. كان الناس آنذاك يعتبرون أن نهاية موسم الحج ، المفروض أن تكون بداية حقيقية للجهاد واستعادة الأرض ..

والآن .. الذى حدث أن من جاء إلى فلسطين استطاع عن طريق تعبئة الوجدان الدينى أن يحول العديد من معالم الأساطير إلى معالم تاريخية ، فى الوقت واجهناه بحقائق تاريخية غلفناها فى أساطير من شعارات العصر حتى تحولت أساطيره إلى حقائق تاريخية ، وتحولت حقائقنا التاريخية إلى أساطير .

شىء محزن ، نراه الآن ونجنى ثماره ، ونحزن كمعاصرين لهذه الهزلية التى نراها ، وبالتالى لا يمكن حل هذه القضايا بفرامل سحرية ، فهى لا تحل إلا بما تستحق من مواجهة ، ومن وعى ، ومن تعبئة ، خصوصا إذا ارتبطت بحقيقتها لا بما يفتعل لها ..

الآن القضية الفلسطينية وللأسف دخلت فى إطار الاستراتيجية الكونية ، والتكتيك الكونى والصراع بين القوى العظمى ، لا الالتحام بالأرض والارتباط العضوى بالوجدان الدينى ، وبدأت مأساة نعيشها الآن ثم انعكس الإسقاط إلى الإحباط ، وبدأ الشقيق يقتل شقيقه ، والمناضل يقتل المناضل ، وأى إنسان يتمتع بنوع من النزاهة فى الرؤية ، لا يملك إلا أن

يحزن ، لما يراه ، ويتألم بعمق ، لأنه يكتشف فى النهاية أن هذا كله لا يجدى فى شىء ، كل هذه الدماء التى تذهب فى غيبة الوعى لحركة التاريخ ، وغيبة الوعى بصراحة الانتماء ، والوجدان الروحى الراسخ ، لا يمكن أن تواجه من استطاع أن يحول أساطيره إلى حقائق تاريخيــة ، بتحــويل حقائقك التاريخية إلى أساطير ! .. عليك أولا أن تلتزم بحقائقك التاريخية ، الوجدان وجدان الدين المعبأ القادر ، بوعى موضوعى ، وأن تعى بأن مشكلة فلسطين ليست سوقية ، وليست مضاربات تلقى بها على موائد التسليح التكتيكاتى والجيل الكونية ، هى عبارة عن إنسان صاحب حق ، وصاحب إنتماء تاريخى ، وصاحب استمرارية تاريخية ، وعلى الطرف الآخر أن يفهم ذلك جيداً قبل كل شىء ، يفهم أن القضية ليست قضية مضاربة فى بورصة ، وإنما قضية أرض غذيت بالدماء عبر قرون من التاريخ ، وعبر عصور .. ولا يمكن لهذه الدماء أن تمحى فى إطار جيل متأزم إلا أننى دائماً أقول لا يمكن أن تؤخذ أزمة جيــل على أنها أزمة مصير ، ولا يمكن أن نأخذ أزمة نخبة على أنهــا أزمة أمة ، الآن هناك نخبة متأزمة ، وجيل متأزم ، ولكن لن يكون بحــال هو أزمة الأمة ، ولن يكون بحال هو أزمة المصــير .. لهــذا من واجبنــا أن نعى جيـــداً أن على الأجيــال القــادمة أن تربط هــذه القضــايا الكبرى المصــيرية بمسيرة الأمة لا بمسيرة التكتيكات ، والاستراتيجيات ، وعلى الطرف الآخر ــ الخصم ــ أن يعى أن المطالبــة بالحــق والمطــالبة بالبقاء التاريخى لا تقل عن مطالبته بأى حال ، وأنه لا يمكن إلغاء بقــاء تاريخى واستمرارية قرون وكفاح دموى فى الأرض ، لا يمكن محو كل ذلك ، وعلى الطرف الآخر ــ العدو ــ أن يدرك أنه مهما أوتى من ذكاء ومكر ودهاء ، لا يمكنه أن يلغى عقل شعوب ، قد يخدرها ولكن الخطــأ سيكتشف فى النهاية وستصححه الأجيال القادمة .

□ **وهنا يثور سؤال :**

● **يبدو ان القيادات النضالية الفلسطينية تستنكف رفع شـــعارات الاسلام خوفا من ان تنصرف عنهــا القوى الكبرى التى ليس لها مصــلحة فى الاسلام ..**

ولكن الطرف الآخر منطلقاته كلها دينية اسطورية عنصرية لا تهم القــوى

العظمى ايضاً ولكنهم يفلحون فى التعامل معها بذكاء وجرها الى مساندة مخططاتهم فكيف يمكن ان ينطلق الفلسطينيون وكل المجاهدين من الاسلام وفى نفس الوقت لا ينفروا منهم هذه الدول العظمى كما فعل العدو ؟

.. المشكلة أننا وللأسف نعيش فى وهم ممكن أن نسميه بوهم السوق ، وهو وهم المجاملة أكثر مما يجب والمحاباة على حساب الحق ، إن الدول العظمى لها مصالحها ، وبقدر ما تعطى تأخذ ، وإذا حاولت أن تدخل فى حوار موضوعى حذار أن تبدأ بإلغاء ذاتك ، وإنما بتأكيد الذات .. أنت مسلم ، هذه هى ذاتيتك ، وعلى الآخرين احترامها شاءوا أو لم يشأوا ، وبقدر ما تعطى يعطيك الآخرون . وهذه الدول العظمى تستغل انفعال أو تهور أو اندفاع العقل العربى وتحاول أن تستغل الموقف بأن تلغيه بقدرة عقل آخر فى قمة المكر والدهاء ، والتكيف الجدلى ، وهذا ما نراه الآن ، ونعطى نحن بعض الأضواء المبهرة وتصدر منا بعض الصدمات التى نتصورها انتصارات ، بينما هى مسيرة أو منطلق لوحل أشد وأعنف فى مرحلة تالية ..

فى رأيى .. آن الأوان لأن نعود مرة أخرى إلى صياغة القضية الفلسطينية فى العقل المسلم العربى ، وإعادة الصياغة تتطلب استبعاد ومصادرة كل ما افتعل من دخان وأبخرة ، وألفاظ لا علاقة لها بحقيقة القضية ، لأن المسلسل الخطير الذى نعيشه الآن أننا نتزحلق دون أن نشعر لنصبح فى إطار معمعة المضاربات الكونية ، وأصبحت القضايا المفروضة علينا تشغل حيزا من وقتنا أكبر مما تشغله قضايانا الحقيقية ، بمعنى .. تمت عملية تزحلق وإلغاء لمتطلباتك وطموحاتك أنت حينما ألحقت بطموحات الآخرين ، وحاولوا إقناعك أن تحقيق طموحاتهم هو تحقيق لطموحاتك أنت ، لهذا علينا أن نعطى أيضاً إلى جانب الصراع الدموى المسلح ، أهمية كبرى للصراع الذهنى ، فعلى العقول القادرة أن تعمل ، وأن تتحاور فى هذا الصراع الحضارى البشع الذى يهتف للذهن المكار ، وعلى الإنسان العربى المسلم إعادة صياغة ذاته قبل أن يزعم أنه قادر على أن يتفاهم مع الآخرين .

فلا يبلغ الأعداء من جاهل   قدر ما يبلغ الجاهل من نفسه

وأن يكون الطرح الإسلامى واضح للطرح الإسلامى ، ومحاور متحدى وصريح فى مواقفه .. عودة إلى الأصل ، وإقراراً لحقيقة المواجهة أن من جاءك بنداء لابد أن تواجهه بنفس النداء .. وأعتقد أن قضية الفلسطينيين فى إطارها الحقيقى هو صراع من أجل الرسوخ ، وأنا لا أعتقد مطلقاً أن الدول العظمى تعطى أهمية لانتصارات الهوامش ، هى تحاول أن تستفيد منك فى إطار تهميش له ، ويشغلك فى إطار استراتيجية شاملة له ، وفى وقت من الأوقات يمكن أن يقول لك آن الأوان لأن تتنحى ، أو عليك أن تعيد النظر فى حساباتك ، لأن حساباتك غير مجدية ويقنعك بمنطقه هذا ويلزمك على تصفية حساباتك نهائياً لأن استراتيجيتك ما هى إلا نقطة فى بحر من استراتيجيته ، فمن الأولى أن يكون لنا على الأقل قدرة لتحديد الذات ..

* * *

(١٦)
وفلســـطين الشـــهيدة
(الواقع التاريخى .. والمواجهة)

● عندما نطرح قضية فلسطين ، لا نطرحها من منظار الفضول او منظار التعاطف ، وانما من منظار الشـــعور بالمســـئولية وتحديد الادانة والشـــعور بالمواطنة ، والشعور باننا كلنا يجب ان ندلى بدلائنا فى قضية استشهاد هذه البقعة المباركة من ارض الامة الاسلامية ..

.. فى رأيى أن مأساة فلسطين مرت بمراحل ، فيها أكثر من عنصر من عناصر الإدانة ، ومن عناصر المسئولية ، وهناك بلا شك فلســطين الضحية .. التى ضحى بها من أجل حل مشكلة سابقة ، مشكلة اليهود مع النازية ، دون تحديد الموقع التاريخى ، وتحديد الإدانة ، ومن الذى يدفع الثمن .

وهناك الآن بعض الأصوات اليهودية الواعية بدأت تعى هذه القضية ، وأن هناك برىء يدفع ثمن جناية لم يرتكبها نهائيا ، وأن الجانى إما أنه دخل قبره ، أو أصبح مجهولا بعد أن تقنع ! ..

والناحية الثانية فى القضية الفلسطينية أن فلسطين خلال فترة طـويلة ووجهت بنوع من التشنج والانفعال ، وغاب عمن يقود المواجهة أننا فى عصر قدرة العقل ، وأننا فى عصر التحكم الهائل فى التناقضات الدوليـــة ، وأنه ينبغى لهذه القضية المعقدة أن تطرح فى إطار من منتهى الصرامة والحذر ، وأن نكون على مستوى المسئولية التاريخية ..

وأنا لا يمكن أن أسمح لنفسى أن أدين أحداً ، وأقــول إن فلانا كان خائنا ، وإن فلانا كان مقصراً ، فالتناقضات بالفعل تحاصر القضية من كل جانب ، وللأسف ، الجهود التى بذلت لعلاج جرح أدت إلى جروح ، ولعلاج مأساة خلقت مآسى ..

والقضية الفلسطينية كانت فى أشد الحاجة من البداية إلى أن تقود المعركة عقول على مستوى الأحداث التاريخية ، لأن من أمامنا فى قمة الخطـورة والدهاء والمكر ، وكانت محتاجة إلى عقل يتمشى مع خطورة المأساة ، فهى ليست قضية « فتونة » ، ولكنها قضية رهيبة وقضية مصائر أمم ، وهنـا أتذكر دائماً مأساة الأندلس ، وكثيراً ما أتساءل : لو أن الأندلس فى فترات الأزمة ، حينما بدأ موكب التراجع ، أمسك بزمامها نفس العقل العربى العملاق الذى أخرج لنا العديد من أبطال تاريخ أمتنا ، وبدأ هذا العقل الفذ يتحرك ليقول : الأندلس فى خطر ، دعونا من الحزازات والانفعالات التى لا يمكن أن تنفذ من كارثة ، وهيا بنا إلى التفكير العميق ..

أتساءل : هل كانت الأندلس تقع فى هاوية الضياع وتغرب فوق ربوعها شمس الإسلام ؟ ..

مجـرد تسـاؤل .. يعكس حقيقة أننا اليوم إزاء قضـية فلسـطين فى مسيس الحاجة إلى أن نحترس وأن نستوعب المأساة بعمق . خصـوصاً فى هذه المرحلة من النضال الفلسطينى الذى يتردى فى هاوية الانشقاق بين الأخ وأخيه ، وبذلك يستمر المسلسل المأساوى ، ولا أعتقد أن أبناء مجتمع ما على وجه الأرض فى حاجة إلى التضـامن وإلى التكتل بقـدر ما يحتـاج الفلسـطينيون والعرب معهـم متلاحمين تحاشـيا لمسلسل الاندحار بل والانتحار .

والإنسان العربى حينما يشعر بالإدانة يتحول إلى جهاز انفعالى فى منتهى العنف والقسوة على نفسه ، وهذه قضية سيكلوجية .. وأبناء فلسطين عليهم فى هذه المرحلة المأساوية الدامية أن يتمتعوا بعمق التفكير ، وأن يتجاوزوا هذه الأمور التى إذا قيست بإطار الزمن التاريخى ، لا ترى ، وينظروا إلى أنهم يتحملون مسـئولية تاريخية كبرى ، هى أن يكونوا أو لا يكونوا ، وفلسطين ليست فى حاجة إلى منتصرين من الفلسطينيين على الفلسطينيين ، ولا لمنهزمين من الفلسطينيين أمام فلسطينيين ، بل هى فى أشـد الحاجة إلى الفلسطينيين الواعين لخطورة الواقع التاريخى ، ولخطـورة المواجهـة ، والإنسان عندما يعى بالخطورة فإنه يستنفر كل طاقاته بما فى ذلك السيطرة

على انفعاله وتشنجه ، ويتحول إلى قدرة ذكية تتعـامل لكى تتجاوز حتى المستحيل .. والمعروف حسب نظرية « سبنسر » أن الإنسان لديه طاقات كامنة كبرى ، وهذه الطاقة تبرز فى بعض الأحيان دون أن يشعر فى المواجهات ، فإن بعض الناس يكونون مرضى ، ولكن حينما يسـمعون خبراً خطيراً ، ينتهى المرض لديهم نهائيا ، ولو مؤقتا ، وقد يتحول المريض الواهن فى لحظة الخطر إلى وحش كاسر ، ويمكنه أن يرفع أثقالا أو يعدو لمسافة كيلو مترات ، بينما لا يستطيع قبل ذلك أن يخطو عشر خطوات ! .. هذه الطاقة الكامنة تتوافر لدى الأمم كما تتوافر لدى الأفراد ، واستنفار الطاقات الكامنـة يساوى القدرة على تجاوز التناقضات الظرفية والأمور المفتعلة .

وأعتقد أن على الفلسطينيين أن يواجهوا أنفسهم أولا قبل أن يواجهوا الآخرين ، لأن قدرة المواجهة مع الآخر تنطلق من قدرة المواجهة مع الذات ، بمعنى أن الفلسطينيين عليهم أن ينظروا إلى قضيتهم ، ومعهم كل هذه الأمة التى تعتز بوجودهم وبجهادهم ، وتؤرقها مأسـاتهم ، وإن الزمن التاريخى ليس هو مجرد توقف فى الحاضر ، وإنما هناك مسئولية كبرى للمسـتقبل الفلسطينى ، وبجانبه ومن خلفه ، ومن أمامه العربى والمسلم ، الذى عليـه أن يعى أن المستقبل أيضاً سوف يسأله ، وأن هناك زمناً تاريخيا مقبلا علينا أن نعى جيداً ألا نحمله مأساة هذا الزمن ..

لندع الأجيال القادمة تتصرف فى إطار زمنها التاريخى الذى نعيشـه الآن ، بمعنى أن نخفف ما أمكن من ثقل السلاسل ومن خنق تطلعات الأجيال القادمة ..

دع الأجيال القادمة تفعل شيئا ، لأن أزمة جيل لا تعنى مطلقاً — كمـا أشرنا سلفا — أزمة مصير ، وأزمة فئة ، لا تعنى مطلقاً أزمة أمة ..

فالبعض يحاول دائماً أن يحول أزمة فئة على أنها أزمة أمة ، وأزمـة جيل على أنها أزمة مصير . بل المعروف عبر فلسفة التاريخ أنه فى داخـل الأزمنة المتأزمة تولد الأزمنة المتطلعة ، لذلك أطالب بإعادة الحسابات وإعادة

الصيغ ، وأرى التشاؤم المطروح حالياً بمعيار ظرفى ، ولا أتصور أن يمتد هذا التشاؤم ليصبغ حياة الأجيال القادمة بالقتامة واليأس والقنوط .. ليذهب المتأزم بأزمته إلى قبره ، ولا يورثها للقادمين . والمشكلات عموما ، المفروض أن تحجم فى زمن تاريخى وبقدر ما تورث بقدر ما تستوطن وتأخذ حجماً أكبر من حجمها ! .

وفى مجال المقارنة بين الإنسان الفلسطينى والإنسان الإسرائيلى ، فالفارق الحضارى ليس كبيراً .. إن الأمية منعدمة الآن فى الشعب الفلسطينى ، والإنسان الفلسطينى يتمتع بذكاء حاد ، وكثير جداً من أبناء فلسطين يشغلون مناصب رائعة وكبرى فى الجامعات الأمريكية والأوروبية ، وذلك تم إفرازه رغم ٣٠ عاماً من المحنة ، ومن هذه الزاوية فأنا غير متشائم ، ولكن لابد من أن يكون هناك وعى بحجم المواجهة وإعطاء مكان كبير للعقل والاستيعاب .. نعم ، ما أحوجنا للإنسان العربى المستوعب ، فالملاحظ وللأسف الشديد ، أن الإنسان العربى لا يستفيد كثيراً من تجاربه ، وهنا دائماً ما أسائل نفسى ، هل يرجع ذلك إلى أنه يتمتع « بديناميكية » هائلة تجعله ليس بحاجة إلى تجاربه السابقة ، هل له ثقة بلا حدود فى ديناميكيته الفورية تبعده عن النظر ، إلى استيعاب ماضيه القريب والبعيد ..

إن هذه الديناميكية الفورية تتمثل فى جماعة من الناس يجلسون فى ود، وفى هدوء ، وتكفى كلمة بسيطة تقال لتجعل منهم أعداء يضربون بعضهم البعض ..

وهذا قد يكون رائعاً فى عصر الفروسية ، أما فى القرن العشرين .. فذلك مرفوض تماماً ..

وعلاج ذلك أن نتواصى بالصبر كما علمنا القرآن الكريم ، وبعد الصبر علينا أن نتحلى بالإرادة ، « **فاذا عزمت فتوكل على الله** » (١) ..

---

(١) آل عمران : ١٥٩.

ونظراً للمحتوى العالمى للقضية الفلسطينية فإن العقل المسلم الذى هو مطالب بالتدخل لإنقاذ الأندلس الفلسطينية الجـديدة ، عليـه أن يواجه الترسيبات الفكرية لسموم الصـهاينة والمسـتشرقين ، وأعـداء العـرب والإسلام .

وبكل موضوعية أعتقد أن هناك جانباً ترسيبيا كامنا فى العقل الغربى . وهو ترسيب كثيراً ما يخلط الحاضر بالماضى ، ونلاحظ ذلك إزاء ظاهـرة يقظة الإسلام .. وعلى سبيل المثال فقد أفردت إحدى المجلات الغربية العالمية أخيراً ١٧ صفحة من صفحات عدد واحد منها بعنوان : « اليقظة العدوانية للإسلام ضد الغرب » .. وهذا فى تصورى يمكن تسميته بأوهام الغرب ..

هناك فعلا يقظة ، ولكن لماذا يعطى لها هذا التفسير المسموم ، ولا يمكن أن تتفق على أوهام الغرب فى تصنيف الإسلام .. ومن المذهل أن يتصـور الغرب العملاق الذى وصل إلى قمة القوة والقدرة والعملقة أن يتصور أن أية حركة للإسلام فيها إضعاف له ! ..

وهم يفسرون أى حركة للإسلام على أنها عـدوان برغم أنه من غـير المتصـور وفى حوزتهم القنابل الذرية والهيدروجينية ، وهى على أعتـاب امتلاك مقاليد حروب النجوم ، أن يمثل المسلمون الذين يمتلكون ما يملكون خطراً عليهم ..

نعم الإسلام ينتشر .. خصوصاً فى القارة الإفريقية .. وأنا أتفق مع هذه المجلة عندما قالت : إن القارة الإفريقية فى نهاية هذا القرن ستكون كلهـا إسلامية ، وأيضاً أتفق مع أن قضية المد الإسلامى الهادىء التلقائى فى العالم تسرى كالكهرباء ، فهذا من فضل الله تعالى ، أما أن يتخوفون من أن تزيد الكثافة السكانية الإسـلامية فى الاتحاد السـوفييتى لتقع إحدى القوتين العظميين فى قبضة المارد الإسلامى ، فهذا بالطبع مبالغة القصـد منهـا استئصال حتى الجذور .

وأتساءل لماذا لا تفسر هذه اليقظة بأنها إنسانية بدلا من عدوانية ، إن

الإسلام دين المحبة ، ودين الإنسانية ، وربما ظهور الإسلام على المسرح الكونى سوف يخفف من هذا التحايل الاستراتيجى البشع بين الدول العظمى ، والتنكر لأبسط القيم والمبادىء الكبرى ، حتى أضحى الإنسان البسيط فى عالمنا لا يدرى من الذى على حق ومن الذى على باطل ..

إن وجود تيار روحى خالد فى الإنسانية يخفف من حدة المضاربات على قدرة المنطق فى القرن العشرين ، الذى انقلب إلى أن يحكم بأن الأقوى حجة هو الأقوى تسليحاً ، وليعود العقل إلى صوابه ليقرر بأن الأقوى حجة هو صاحب الحق ، لا عالى الصوت ، وأن الأولى بالاتباع الأقدر على تحقيق العدل لا فرض الظلم ، وبذلك يتم التعادل الكونى بين عصاة وجبابرة الاستراتيجيات القادرة على أن تبرر كل شىء ، بما فى ذلك المستحيل والخطأ بل وتقلب الحقائق رأساً على عقب فتزين الباطل وتمسخ الحق .. وأنا لو كنت من أبناء الدول العظمى المتقدمة فلسوف يسعدنى فعلا أن أرى شعوباً ضعيفة مغلوبة على أمرها تستعيد إنسانيتها .. فكما يقول الإنسانيون : السعادة أن تشع حول الإنسان ، لا لتقتصر عليه فقط ، كما أن سعادته لا يمكن أن تكون على حساب سعادة الآخرين ..

وإذا فكر الغرب بهذا المنهج ، يمكنهم أن يفخروا ويقولوا إن حضارتنا الكبرى فى القرن العشرين قد وسعت إطار التحضر الكونى ، وأصبحت الإنسانية السعيدة كماً وكيفاً تسود كوكبنا الأرضى .

هذا هو المنطق ، ولكنهم يصرون على تفسير اليقظة الإسلامية بالعدوانية ضد الغرب وهماً وزوراً .. وهناك بالطبع من يشعل الفتيل .. لتظل الصراعات والحروب ، وليستمر التحريض والتقاتل ، لتروج صناعات الدبابات والطائرات والقنابل .

* * *

(١٧)

العــــودة الى القدس ..
بين الافتعال الأسطورى ، والواقع التاريخى

● العودة الى القدس ..

هى بلا شك المخاض التاريخى الذى يعيشه المسلمون حالياً .. ويمكـــن لقضية العودة ان تطرح ولكن بوسائل وطرق متعددة ، فمن الصعب ان يطرح الباحث اشكالية من الاشكالات دون ان يطرح الارضية التى جسدت جذور هذه الاشكالة ، والعودة للقدس ليست بالأمر الجــديد .. فالمعروف ان الأمــــة الاسلامية قد عاشت من قبل مثل هذه المواجهات الكبرى الداميـــــة ، ومن يراجع الوثائق .. وثائق المؤرخين المعاصرين للعصر الصليبى يعيش الصــورة الكاملة ..

.. ونعطى مجرد مثال لذلك رحلة « ابن جبير » وفيها تصوير موضوعى .. وقد كان هذا الرحالة كما هو معروف قاض من فالنسيا بالأندلس ، وقد رحل إلى الحج فى ثلاث رحلات ، واكتشفت مخطوطة واحدة لإحــدى هــذه الرحلات ، وتسمى بالرحلة المشرقية ، وعبر فيها الكثير من البلاد الإسلامية ، وظهر فيها جانب كبير من تصوير معاصر لأحــداث فلســطين .. وإن وعت الذاكرة ، فإن ابن جبير نظر إلى المأساة بعين القــاضى المســلم .. ومن ثم وضعها فى إطارها الصحيح ، أو على الأقل الإطار الموضوعى لهذه المأساة ، بل إنه ربط تحرير فلسطين بمناسك الحج ، حيث إن فترة الحج كانت تشكل تعبئة روحية للمسلمين لاسترجاع أراضيهم المقدسة .. لا فرق فى ذلك بين مشرقى ومغربى وأندلسى وفارسى .. الجميع أبناء هذه المواجهة التى لها طابع إيمانى أصيل .

والواقع أن استعادة القدس حاليا تتطلب وضوح الرؤية ، أولا وقبـــل كل شىء ، علينا أن نستعيد القدس فى قلوبنا أولا .. قبل أن نستعيدها كأرض ،

بمعنى أن تكون هناك قناعة موضوعية ، ولنتساءل سويا ، ماذا تعنى القدس بالنسبة للمسلم .. هل هى مجرد مدينة من المدن الموجودة فى منطقة ما وتعنى ما يحيطون بها من بشر .. أم هى قبلة لكل مسلم ، وبالتالى لابد أن يكون له نصيب فى تحريرها ؟

وحينما نقول القدس ــ حاشا لله ــ أن نطرح فقط قضية المواجهات الدموية والصراعات لأن الإسلام ما دعا المسلم أبداً أن يتحول إلى سفاك دماء .. وذلك مع تسليمنا بأن الإسلام دعا المسلم أن يكون قوياً « المسلم القوى خير وأحب إلى الله من المسلم الضعيف ، وفى كل خير » كما قال خير الآنام محمد صلى الله عليه وسلم .

فالمؤمن القوى هو الذى يستطيع أن يسترجع حقه ، أما المؤمن المتكاسل المتهاون المتردد فى قناعاته ، أو حتى فى اختياراته الفكرية ، واختياراته الغائية لما يريد ، من الصعب أن يعبأ ، ومن باب أولى أن يستشهد ، بل وليس لديه الرغبة ، وربما يحول كل قضاياه إلى مبتدأ وخبر ، وإلى جمل مفيدة ، ولا يصل فى النهاية إلى أى هدف موضوعى ، أو تحقيق شىء ملموس ! ..

وهنا نقول أيضاً إن العودة إلى القدس لا تطرح مطلقاً فى جو من الانفعال أو التطرف ، وإنما نطرحها على ضوء تحليل هادىء .. ولذا نتساءل : قدس من ؟ ولمن ؟ ..

وفى القرن العشرين .. عصر العقل والمنهج والتفكير الهادىء ، هل يقبل إنسان واع ، يحتكم إلى ذهنية رشيدة ومستنيرة أن يأتى إنسان بعد غفوة قد تتجاوز آلاف السنين ويقول : هذه الأرض لى !

حينما يذهب أى إنسان إلى ملكيته لشىء ما ، عليه أن يقدم براهين ، لا مجرد أن يتخذ من الأساطير وافتعال المسميات مجرد برهنة ، ويخفى كل هذا وراء مخالب الأسد ، بمعنى يعطى براهين تحتكم فى النهاية إلى الدم والقتل والسفك واستضعاف الأمم .. بالطبع فى ضوء هذا المنطق من الصعب للعقل الهادىء المستنير أن يسلم به ، إلا بأن يوصف بالتهور ، والعودة إلى عصر الهمجية ، واحتكام الذئب للذئب ..

وفى رأيى أن من يقول القدس لنا ويفتعل الأساطير ، عليه أن يقدم البراهين ، والحيثيات ، ولنتكلم بأسلوب هادىء ، هل هناك برهان ؟ .. إنهم يقولون القدس قدسنا لمجرد القدرة على سفك الدماء والاعتداء على الآخرين ، وتقمص أمور لم يعد لها مكان فى القرن العشرين ، عصر الإنسانية ، والكلمة الطيبة والعقل الواعى فى زعم المتحضر ، والمتشدق بالارتقاء والمدنية .

.. لماذا إذن هوجمت النازية ، إذا كانت شريعة الغاب هى أساس القدرة فى القرن العشرين .. لماذا هذا الاستنكار البشرى الجماعى .. للنازية والفاشية .. لأن المعروف أن هذا القرن بفلسفته وعقلانيته وعلمائه رفض الاحتكام غير الموضوعى ، وهذا ما تشهد به الآن المؤسسات الدولية ومحاولة حل النزاعات البشرية ، على مستوى الحلول الواعية السليمة ، بمعنى أن العقل تحضر ، ولم يعد يعيش فى إطار متحجر يقرر : « أنا قوى إذن فكل شىء لى ولا شىء لك » ! .

لم يعد ذلك مطروحا فى القرن العشرين .. على الأقل بصيغة صريحة ومعلنة ! .. ومع هذا نرى أساطير تفتعل ، وإذا ما احتكمنا للأساطير ، فعلينا أن نعيد النظر ليس فقط فى تاريخ الإنسانية ، بل وفى جغرافيتها أيضاً ، لأن كل إنسان له نوع من الترسيب ، ومر عليه عشرة قرون أو عشرون قرنا يمكنه أن يقول : هذه الأرض ملكى ، فقد مر عليها أجدادى !

وإذا ما ساد هذا المنطق ، سنجد على خريطة المعمورة امبراطوريات وهمية تمتد من بحر الصين إلى اسكندافيا دون أن يكون لها أية أرضية إلا أسطورة كنا أو كان ، وهنا نعود إلى قصة الذئب والخروف !

مسلسل غريب ، لا يوافق عليه أحد فى عصر العقل ، والمفروض إذا كان ثمة شعب ذكى ومتفهم وقادر على أن يحتكم للمعايير الموضوعية .. من الصعب أن يعود إلى آلاف السنين ويقول : كنا .. وهذا الذى له الحق من آلاف السنين أيضاً ، وحتى البارحة أليس له أيضاً الحق أن يقول : كنا وأصبحنا !

باسم الواقع التاريخى الملموس واستمراريته ، وباسم هذه الدماء التى أريقت فى القدس واستعادتها فى الحروب الصليبية يجب على الإنسان أن يفكر الآن بعقل متفتح ..

● ولنسأل أنفسنا .. هل كل هؤلاء الشهداء الذين ضحوا بدمائهم وأرواحهم فى العصور الوسيطة لاستعادة القدس ، هل كانوا مغشوشين ؟ ان المسلمين كانوا يدافعون عن القدس ، والمسيحيين يحاولون انتزاعها ، فهل كان المفروض أن تعطى القدس لطرف ثالث غير المسلمين والمسيحيين ؟ ..

.. وللأسف إن الطرفين اللذين أريقت دماؤهما استبعدا الآن من الساحة نهائياً لصالح طرف ثالث لم يترك أى أثر بدمائه أو بحضـوره التاريخى ، ولكنه يظهر على العالم ليقول : فلنحفر فى الأرض علنا نجد شيئاً يدل على وجودنا ، وهذه قضية « حفر يحفر » تقود إلى مأساة لا معقولة !

غريب أن يأتى إنسان ليتنكر لما هو صريح وواضح تحت قبة الشمس ، ثم يبحث عن أدلة فى الخفاء ..

إذا كانت هناك أدلة فلتكن موجودة ، لهذا أعتقد أنه قد آن الأوان لأن يستمع أيضاً لصاحب الحق كما استمع لظالمه ..

بقيت نقطة أخرى أيضاً بالنسبة للعـودة إلى القـدس بين الافتعـال الأسطورى والواقع التاريخى ، وهى قضية : كيف العودة ؟

العودة إلى القدس فى رأيى عودة معاناة ، يعنى لا أعتقد فى الحـلول الأسطورية ، وبما أننا استبعدنا الافتعال الأسطورى .. لا نفتعل أيضاً الحل الأسطورى .. المفروض أن العودة إلى القدس ترتبط بمعطيات موضوعية ..

من يعود إلى القدس .. صاحب الحق فى البداية ، أم المغتصب للحق .. ؟ بلا شك صاحب الحق .. حسناً .. المغتصب حول صاحب الحق إلى متهم واستبعده ، وأصبح هو المستولى على الأرض ..

● هل من الأفضل ان نتحاور معه ، ونحاول ان نقنعه ؟ هذا ما لجأ اليه البعض ..

أم من الأفضل ان نواجهه ببرك من الدماء كما فعل هو ؟
هذا ما فعله البعض الآخر ! ..

أم من الأفضل أن نقوم بتعريف الكون بحقيقة المأساة ، وحقيقة الظلم حتى يكون هناك تأثير كونى ، وبالتالى تعود الأمور إلى نصابها ؟

أنا فى تصورى أن خير احتكام لهذه القضايا هو الاحتكام إلى الواقع ..

لمن كانت القدس حتى منتصف هذا القرن وما بعده من سنوات ؟

ولنتأكد أنه مهما بلغ مدى الافتراء ، والاستيلاء على منزل فسوف يظل دائماً صاحب المنزل هو صاحب الحق ..

لا يمكن لأحد أن ينكر أن العروبة والإسلام كانت ساهرة على القدس كمدينة لكل الأديان ، فهل أخطأت فى حق القدس هذه الفئة التى حملت مسئولية تاريخية ؟ ..

أبداً .. فلماذا إلغاؤها إذن ؟

إن العروبة المسلمة لم تخطىء أبدا فى صياغتها للأراضى المقدسة ، فبأى حق تقوم أنت أيها الغاصب بإلغائها ؟ ..

إنك إذا قررت أنت الإلغاء لمن هو اليوم يعانى من الأزمة ، فهل أنت واثق من أنه قد يعيد الكرة ويلغيك أنت الآخر ؟ !

« وتلك الأيام نداولها بين الناس » (١) ..

إن ما أخشاه فى فترة تاريخية ، وبالطبع بعد أن نرحل من الدنيا ، أن هذه القدس التى مرت عليها قرون تقبل مبدأ التسامح والتعاون والمحبة بين مختلف الأديان الروحانية ، أن تتبنى فى المراحل التاريخية القادمة فلسفة الإلغاء والاستقصاء ، ولا يكون بها مكان للتعايش .

ولا تعود مدينة الحب والسلام ..

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٠

(١٨)

اتجاهـات الفـكر التربوى المعاصر فى الكيان الاسرائيلى

● فى ٢٣ مارس سنة ١٩٨٥ عقد بجامعة الكويت مؤتمر عن الأبعاد التربوية للصراع العربى الاسرائيلى ، وقد تقدم الدكتور رشدى فكار بدراسة عن اتجاهات الفكر التربوى المعاصر فى الكيان الاسرائيلى ، ولأهمية هذا البحث الذى يلقى الضوء على جذور التنشئة فى الكيان الصهيونى ، ارتأى الدكتور رشدى فكار ضمه كما هو لمجموعة احاديثه التى اجريتها معه وحواها هذا الكتاب ..

لماذا اتجاهات الفكر المعاصر فى الكيان الصهيونى ؟ ..

.. تساؤل قد يبدو فى مظهره غير ملفت للنظر ، ولكن فى جوهره يعنى كيف يبنى الكيان الصهيونى رجل المواجهة فى الغد ؟ ..

فالفكر التربوى هو فى الواقع المحور الذى يجسد واقع الصراع المستقبلى بين أمتنا ممثلة فى أطفال اليوم ، وبين ما يحاول الكيان الصهيونى أن يزرعه فى جسد هذه الأمة من طفيليات قادرة على أن تشل حركته وأن تستنزف عطاءه ، وفى النهاية يكون التقبل لهذا الدخيل ..

ومع هذا سوف نتحاشى فى طرحنا لهذا الموضوع الهام المغالاة والتجاهل على حد سواء ، فمن المعروف أن تصوير ما يجرى فى الكيان الصهيونى وتصوره . كثيراً ما يقدم فى إطار من التهويل ، والترهيب ، بل والتخويف ، فنرى الصهيونى ، وكأنه إنسان معجز يتمتع بقدرات أسطورية ، ولا يهزم ، وبلا شك إن هذا الجانب الأسطورى ساعد كثيراً خلال ما يزيد على ثلاثين عاماً فيما نشاهده الآن لدى العربى حين نظرته للصهيونى ، هذه النظرة التى أسهمت فى تزييفها قدرات ذهنية ماكرة ، سواء لدى الدول المتقدمة المتواطئة مع كتلة الضغط الصهيونى أو المنظمات الصهيونية فى حد ذاتها نظراً لما

يتمتعان به من تصدر وريادة على مستوى وسائل التوصيل (Mass Media) مقروءة ومسموعة ومرئية إلى جانب استغلال قصور العربى فى تفهمه للخصم واستيعابه لواقعه ، وأنه كثيراً ما يرى هذا الخصم من خلال المنظور الذى يتمناه ..

وهكذا تقديم الصهيونى كعملاق وأسطورى مستبعد من البداية ، وبنفس الصرامة فى التحليل نستبعد النظرة المناقضة أن الصهيونى هو استمرار لهذا اليهودى التائه المعقد ، خصوصاً عقدة الإنغلاق (Ghetto) وأنه من الممكن إلغاءه بجمل مفيدة ، وخطب رنانة وشعارات من هنا وهناك مكنته فى النهاية من أن يتقوى على حساب جهل خصمه بقوته ، فإن كنا نستبعد العملاق والأسطورى ، ولكن نسلم ببعض المعطيات الموضوعية التى تشكل مكونات صهيونى اليوم ، وتمهد لصهيونى الغد ، ونعنى بذلك ما عرفه اليهودى فى العصر الحديث والمعاصر من تطور إلى حد ما جذرى نتيجة لمشاعر الانغلاق والاستبعاد التى مورست نحوه خلال قرون ، إذ من المسلم به أن شعور الأقلية حين تمكنه من الوعى والتعبئة يصبح قدرة مميزة .. فانطواء اليهودى على ذاته عبر التاريخ مكنه من استيعاب الآخرين واكتشاف مظاهر القوة والضعف لديهم ، فاستطاع أن يستغل العديد من المواقف التاريخية ، ويوظفها لحسابه كمجرد أمثلة الصراع بين الكنيسة والعقلانية فى الغرب ، وكيف أن القرن التاسع عشر قدم لنا نماذج لهذا اليهودى المساهم فى توجيه الضربات للغربى باسم الغربى وتمزيق وجدانه الروحى وإلقائه فى مسلسل التساؤلات ، بل والقنوط واليأس فى الوقت الذى يحيى فيه أساطيره ويمجد خرافات المعبد ليحولها إلى حقائق تاريخية ، فهو بقدر ما يلغى تاريخ الآخرين ، ويحول الحقائق إلى أساطير يسعى إلى تحويل أساطيره إلى حقائق . كذلك استطاع هذا اليهودى التائه أن يركز على بعض القطاعات النشطة والضامنة لرقى المجتمعات بدلا من أن يوزع طاقاته هنا وهناك ، وفى شتى المجالات .

فالقطاع الاقتصادى هو محترف له عبر التاريخ ، ثم أضاف إليه القطاع العلمى ، وخصوصاً القطاع الإعلامى كموجه للرأى العام ، ومعبىء له ،

واستغلال كل هذه القطاعات من خلال وسيلة التقدم والارتقاء ، ونعنى بذلك الصناعة والمعرفة التكنولوجية ، تجاهل هذه الوقائع ، والنظرة إلى اليهودى كما كان فى منغلقه وانطوائه هى بدورها مستبعدة ..

النموذج الصهيونى لليهودى نموذج نشط ومتطلع ، ويسعى إلى الهيمنة . لا إلى الانغلاق ، ويستغل كل مظاهر ضعف خصومه لتقوية ذاته .

بين الموقفين : موقف المغالاة فى تضخيمه والمغالاة فى تحقيره تبنينا لهذا البحث ، لا نقول موقف وإنما نقول استيعاب موضوعى ما أمكن على ضوء ما تيسر لنا من توثيق ومعرفة بالفكر التربوى الصهيونى عبر اتجاهاته المعاصرة لاشك أن طبيعة التوثيق تطرح علينا انتقاء ، وهو أن الهدف من هذا البحث لا يكمن فى تقديم إحصائيات ومعلومات عن الحركة التعليمية بصفة عامة بقدر ما يهدف إلى استغلال المعلومات التى تسهم فى تعرفنا أولا وقبل كل شىء على اتجاه الفكر التربوى كإنعكاس تطبيقى للتنظير الصهيونى ، ومحاولته لبناء رجل الغد من خلال طفل اليوم إنطلاقا من كل ما تيسر للصهيونية كإمكانات وتجارب لدى المتخصصين من الصهاينة ، وخصوصا ما يمليه واقع المواجهة مع الإنسان العربى صاحب الأرض والمشروعية .

ومع هذا ، من يريد التفصيل فى كل أبعاده وأرقامه الإحصائية ووسائله .. إلخ ، يراجع على سبيل المثال لا الحصر بعض المصادر المتداولة فى هذا الموضوع نذكر منها بالانجليزية ما كتبه :

« Avidor » , « Israel » , « Bentwich » , « Braham Randolf » , « Hyman Abraham » , « Robin Sohn » , « Ruth Stanner » .

وغيرهم الكثير .

وبالعربية البحوث القيمة التى سهر عليها مركز الأبحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية : كمثال : دراسات « منير بشور ، وخالد مصطفى ، والشيخ صالح وموفق يس ، وصالح عبد الله سرية ، وغسان كنفانى » ..

والقائمة طويلة ، وقد توخينا الحصر والإحاطة ، وهى مجهودات طيبة وجديرة بأن يشار إليها فى هذا المضمار .

هذا إلى جانب ما لمسناه فى مواجهاتنا الفكرية والعلمية من خلال اللقاءات الدولية فى المؤتمرات والجمعيات المتخصصة ، والأكاديميات حيث يلاحظ من آن لآخر التطلع المضمر للصهيونى الذى يسعى لغاياته وطموحاته اللامشروعة ، نقولها دون مغالاة أو تطرف ، وإنما فعلا روح الهيمنة والتسلط لا تقف بالصهيونى عند حد الأرض التى اغتصبها ، ولكنه يحاول أن يجعل كل الكون فى خدمة هيمنته ، وتسلطه ، واغتصابه للآخرين .

على ضوء هذه المعطيات . ونظرا للإطار المركز والمحدد لبحثنا سوف نجعله يدور حول محاور ثلاثة :

المحور الأول : وفيه نطرح اتجاهات الفكر التربوى فى الكيان الصهيونى من خلال مدى توظيفه واستثماره للفلسفة الصهيونية وتنظيرها حينما واجهت الواقع فى الأرض المغتصبة لكى يؤهلنا لطرح **المحور الثانى :** وهو التحديات التى واجهت هذه الاتجاهات ، ومحاولة التغلب عليها ، واحتوائها لنصل فى **المحور الثالث والأخير :** إلى إمكانات هذه الاتجاهات وحدودها توطئة لاستخلاص أرضية لواقع المواجهة معها باعتبارها القضية الجوهرية لتحديد مآلية الصراع مع هذا الجسد الدخيل التوليفى المصطنع ، لأننا نرى من منظور أمبريقى بحت (واقعى) أن واقع صراع الغد بين الأمة العربية ممثلا أولا فى أقطار المواجهة ثم كل الكيان العربى كشمول ، وبين الكيان الصهيونى ممثلا أولا فى رأس الرمح « إسرائيل » ، ومن خلفه الكتلة الصهيونية الضاغطة فى الكون بشقيه الليبرالى والماركسى على حد سواء بصورة صريحة ، أو مقنعة سوف يدور حول بناء الإنسان ، فهناك من يؤهل نفسه من الآن ليصنع أسسا لبناء إنسان الغد ، وهناك من لا يكتفى باستبعاد إنسان الغد عن رؤياه ، وإنما استبعاد إنسان اليوم ممثلا فى جماهيره العريضة التى تنتظر التعبئة الموضوعية ، والوعى بما ينتظرها فى مستقبل الأيام والسنين .

هذا البحث إذن يمثل إلى حد ما تساؤلات حول مشكلة مصيرية مركزة على جوهر هذه المشكلة ، وهو الفكر التربوى ، وكيف يعمل على بلورة

رجل الغد من خلال طفل اليوم دون أن نستبعد أيضاً شباب اليوم ، ولكن المجهول يظل دائماً هو هذا الطفل الذى يسعى بخطى كلها إصرار نحو غده ، إما لينتصر ويسود فوق أرضه أو — لا قدر الله — ينهزم ويضيع الزمن فى التساؤل فى الإجابة على السؤال المزمن **وهو : من المدان ؟ ومن المسئول ؟**

فإن كان لهذا البحث من هدف فهو إلقاء بعض الأضواء التى تساعد على مزيد من التفهم الوقائى المثمر فى حينه بدلا من العلاج فى زمن تراجع عن زمانه .

* * *

اولا — نظرة فى اتجاهات الفكر التربوى المعاصر للكيان الصهيونى من خلال أبعاده الأساسية :

● إن الهدف من التعليم الرسمى هو إرساء الأسس التربوية على أسس الثقافة اليهودية ومنجزات العلم ، وعلى محبة الوطن ، والولاء للدولة وللشعب اليهودى ، وعلى ممارسة الأعمال الزراعية والحرفية ، وعلى التهيؤ لوجود رائد ، والعمل على تشييد مجتمع تسوده مبادىء الحرية والمساواة .

[قانون التعليم الرسمى ، ١٢ أغسطس سنة ١٩٥٣ ، نقلا عن (Stanner) ص ١٧١ وكما ورد عن التعليم فى اسرائيل ص ٥٨]

إن كان هذا هو الهدف من التعليم الرسمى الذى يحدد الإطار العام لنظام التعليم ، وخصوصاً الابتدائى فى إسرائيل ، فنلاحظ أنه ركز على الثقافة اليهودية ، ومنجزات العلم — الارتباط بالأرض — محبة الوطن — ازدواجية الولاء للدولة والشعب اليهودى — ممارسة الأعمال الزراعية والحرفية أساساً إلى جانب تنمية الروح العسكرية ، وإعطاء الصدارة للغة العبرية كوسيلة للتوحيد ، كما نلاحظ فى شمولية القانون ، وهو يعكس فلسفة الحركة الصهيونية التى ارتكزت أساساً على دعامتين : الدين والاصطفاء

اليهودى روحيا ، والحضارة الغربية فى قمة تطلعها العقلانى والعلمى ، وإعطاء أولوية للعمل المنتج ، فالصهيونية كانت تتجسد عبر فئة الغربيين من اليهود الممثلين للعقلنة والعلمنة ، فهى أيضاً تسعى لاحتواء اليهودى الشرقى الذى يرتكز فى قناعاته على الدين . فالمجموعة الغربية العقل والريادة ، والفئـات الشرقية الجسد والعطاء العضلى على مستوى استغلال الأرض والمواجهات العسكرية ، والأعمال اليدوية ، وحتى نعطى صورة شاملة نضيف إلى هذا التسلسل الطبقى فئتين حكم عليهما بالمعاناة من هذا المغتصب المتهور ، ونعنى بذلك فئة الأبناء الشرعيين للأرض ممن التصقوا بها منذ الاغتصاب ، وأضيف إليهم أبناء الأراضى المحتلة بعد عام ١٩٦٧ .

الكيان الصهيونى فى اتجاهاته التربوية وضع فى حسابه ومن البداية أن يستغل المتناقضات الموضوعية لتلعب لصالح بقائه ، فإن كان النـازح من الغرب هيء له من البداية موقع القيادة ، فالنازح من البـلاد العربيـة ــ خصوصا ــ هيىء للانسياق والتبعية ، وأعطيت كنماذج له حتى لا يفتقد توازنه النفسى أبناء فلسطين بتهميشهم حتى يكون فى ذلك تفريغاً نفسياً لمعاناته ، ويتقبل ليس فقط انطلاقاً من التغميض الدينى هـذا الموقف الذى فرض عليه ، وإنما يتعامل مع واقعه الجديد واجداً السلوان فى معاناته ممن جاءوا بعده فى التدرج الطبقى بعده ، ونعنى بذلك الأبنـاء الشرعيين للأرض أى الفلسطينيين .

استغلت المشاعر الدينيـة وعقـدة القهـر والانطواء لدى اليهـودى التائه ليتقبل هذا الواقع ويقبل سيادة اليهودى الغربى وقيادته له بل وحماسه لكى يضحى فى سبيل مخططاته التوسعية ، بل لوحظ أن « يهوديى الشرق » تعنى المشـارقة ومن عاشـوا فى البلاد العربيـة وما حولها ، وليس الشرق الكتلة الشرقية ، لأن حضارة الغرب بشعبها الليبرالى والماركسى تدعم تفوق النازح من الغرب وتسلطه ..

اتجاهات الفكر التربوى المعاصرة فى الـكيان الصـهيونى حاولت أن ترشد وتعمق هذه المعطيات لما فيه مصـلحة الاندماج والتوحيد . اندماج المتنوع ، وتوحيد المتعدد وانصهاره . فضاربت على كل الموائد باعتبار أن

الكيان الصهيونى يستغل كل ما له من فاعلية وديناميكية بغض النظر عن مدى تمشيه مع المعطيات الموضوعية لاستمرار وحدة بشرية ما .

فمثلا كان المفروض أن الاتجاه الدينى يحد من تطرفه ، والاتجاه العلمانى لعقلانى العلمى يخفف من تطلعاته ليلتقى فى أرضية تفهمية تجعل اليهودى يتساءل عن حقيقته بدلا من هذا الاندفاع ، وهذا التسلط ، وهذا الانجذاب الشبقى بالهيمنة وإذلال كل ما يحيط به .

الاتجاهات الفكرية التربوية شجعت بطريقة ضمنية التطرف الدينى بتدعيم مؤسساته ، وإعطائه الصلاحية والاعتراف السياسى ، بل والسعى وراء تعاطفه وأصواته وفى نفس الوقت كان تشجيع الطرف الآخر فى تعميق العقلنة والمعرفة التكنولوجية والاحتكام للأسس العلمية ، وهكذا نلاحظ أن اتجاهات الفكر التربوى الصهيونى لم تحاول البحث عن التقاء موضوعى لعناصرها المختلفة لأن الالتقاء الموضوعى ستكتشف منه عوراتها ، وإنما حرص على أن يحقق انصهاراً إنفعالياً . مستغلا للعواطف الدينية المقهورة فى داخل وجدان اليهودى المنطوى وذلك ليحتفظ به دائماً فى إطار معبأ تلقائيا ، ويلقى به فى أى مواجهة ، وهو مخدر بالأساطير والنعرات الاصطفائية ، بينما يعطى للتيار الآخر العقلانى كل الإمكانات التى تؤهله من اختزال أزمنة التقدم والتطلع التكنولوجى ، وذلك فى ساحة القهر والحرب وسفك الدماء ..

فإن كان يهود المشرق أو يهود الشعوب العربية احتفظوا بهم ليكونوا وقوداً لأطماع الكيان الصهيونى ، فقد استغلت العقلنة الغربية ممثلة فى الفئات النازحة من الغرب لتحقق أكبر قدر ممكن من الحرائق فى المنطقة بفضل قدراتها العلمية والتكنولوجية عبر ما أطلقوا عليه الحروب الخاطفة .

لقد ارتكزت اتجاهات الفكر التربوى فى تبريراتها على تعميق فلسفة الاضطهاد والقومية اليهودية ومقوماتها ، وربطها بالتعصب الدينى والعدوانية ، كما حاولت أن تنتفع من الغرب البروتستانتى بما يمكن أن

يستغل إيجابيا كمفهوم دينى العمل وقداسة العمـل ، فكما هو معروف : الإدخار والعمل من الأسس التى ارتكز الإصلاح الكلفانى البروتستانتى التحبوى . أما التدبير والاكتناز فشىء تعايش معه اليهودى واستأنسه ، وبقى التطلع والتركيز على العمل .

ويمكننا فى نهاية هذا المبحث الخاص باتجاهات الفكر التربوى المعاصر للكيان الصهيونى من خلال أبعاده الأساسية أن تجملها فيما يلى :

التطلع إلى الاندماج باسم الانصهار فى المجـال التعليمى ، وذلك من خلال مؤسسات تسهم عمليا وتطبيقياً فى ممارسة هذا الاندماج « تجـربة الكيبوتس » استغلال اللغة العبرية والتركيز عليها وإعطائها الأولوية لتوحيد هذه الفئات المشتتة والاتجاه بها نحو الإنسان المتجانس .

استغلال التطرف الدينى بدلا من احتوائه وترشيده فى محاولة للإبقاء دائماً على هذه التعبئة الانفعالية لليهودى التائه ، وإقناعه أخيراً بالاستقرار والعودة إلى الذات ..

تعميق تهميش ابن الأرض الشرعى حتى يكون عظة ومثالاً يخفف من معاناة اليهودى الشرقى الذى نفخ فيه بالأمانى ، وافتعل له المستقبل المشرق لكى يتـــرك موطنـــه الأصـلى ويهـاجر إلى الأراضى المغتصـــبة ، ومحاولة إضعاف قناعات ابن الأرض الشرعية بواقع اليهودى عبر التاريخ ، ولطمس هذه الصورة لديه بصورة الصهيونى الذى يسود ويقهر وينتصر فى كل المواقع ، وفى كل الساحات .

محاولة إذن ليس فقط لتزييف الواقع ، وإنما تتجـاوزها إلى تزييف التاريخ ، وكذلك لم تغفل الاتجاهات التربوية الصهيونية جانب الارتباط بالأرض ، فأعطت أولوية للزراعة ، وماله علاقة بها ، وهذا ما تؤكده المؤسسات المختلفة فى هذا الميدان الممارسة التطبيقية .

وأخيراً تسعى اتجاهات الفكر التربوى المعاصرة للحركة الصـــهيونية

لتوظيف النخبة الغربية من اليهود المهاجرين إلى الأرض المغتصبة ، وتسخير عقولهم لمزيد من الانتقاء ، والارتقاء لا فى ميادين العمران والإنسانية ، وإنما فى ميادين التدمير والقهر ، وذلك ما تشهد به المؤسسات المطورة فى بحوث الفيزياء النووية والتسليح .

فاتجاهات الفكر التربوى المعاصر للحركة الصهيونية لا ترتكز فى مضامينها الأساسية على تأصيل واستمرارية بقدر ما ترتكز على مبدأ المضاربة والاستغلال لكل ما يشجع على بقاء هذا الجسد الغريب من خلال تركيبة توليفية لا ينقصها المكر ، ولا يعوزها الدهاء والانتهازية ..

ولكن هل استطاعت هذه الاتجاهات الفكرية الماكرة والمقنعة ببرمجة مرحلية دقيقة أن تتجاوز التحديات التى واجهتها على الممارسة والتطبيق ؟ .

* * *

ثانياً — التحديات المواجهة للاتجاهات التربوية :

من البداية لابد وأن نضع فى حسابنا قصور المعلومات الدقيقة والإحصاءات الصريحة غير الموجهة حين طرحنا للمواجهة على مستوى الواقع والتطبيق ، فمن المعروف أن إسرائيل تخفى ككيان صهيونى أكثر مما تظهر ، وتوجه ما لديها من معلومات لتعطى للآخر الصورة التى تريدها هى أن يأخذها عنها لا الصورة الموضوعية ، وكما هى . ومن ثم علينا أن نتعامل مع مالدينا من معلومات وإحصاءات ، وتصوير للممارسة التربوية ، دون أن نغفل أن الكيان الصهيونى لم يعرف بكل ما لديه نتيجة للشرطية المفتعلة التى يفرضها على الآخر ، ويتقوقع فى داخلها وينتفخ .

ومع هذا فمن المعروف أن الميدان التربوى فى الكيان الصهيونى عرف التعدد فى الجامعات وتكوين الأطر كما عرف التخصص والتنويع وكمجرد أمثلة — الجامعة العبرية ، جامعة تل أبيب ، جامعة حيفا ، وجامعة بار إيلان .. الخ ، إلى جانب المعاهد النوعية المتخصصة ، وقد ركز فى تطبيقه

لاتجاهاته التطبيقية على محاور مجددة .. محور يتطلع إلى الغد ، ومحور يؤصل الماضى ، ومحور التطلع إلى الغد يعطى أولوية للرياضيات والفيزياء النظرية والتجريبية والبيولوجية ، وبقية العلوم الطبيعية بصـفة عامة مركـزاً على التخصصات ذات الحيوية ، إما فى استغلال الأرض أو الدفاع عن الكليات مع إعطاء أهمية فى المحور الثانى للاهوت اليهـودى والتلمـود ، وتاريخ اليهودية ، وتصدر أيضاً الدراسات الاجتماعية باعتبار أن الجسد الصهيونى من الصعب قبول تناسقه وإنسجامه الإجتماعى ، فهو دائماً فى حاجة للملاحظ ومراقب .

كذلك يلاحظ الى جانب المحورين : محور التطلع إلى الأمام ، وحماية الأرضية والجذور ، هناك اللغة وأولويتهـا فى خلق أرضـية للتجانس ثم الانسجام ، والانصهار ، بفضل الالتقاء فى أرضية المحور الثانى ، وهو تجذير الماضى ، كذلك لم يغفل الكيان الصهيونى فى مواجهته للتحديات أن يركـز على مبدأ نشط . كثيراً ما يغفل وهو خير احتواء لظاهرة هى إعطاؤها القدر الكافى من الإشباع والوصـول بها تلقائيا بعد الإشـباع إلى التعـادل والتجانس ، فبدلا من أن يكبح جماح التطرف والمغالاة فى الالتزام بأسطورة الماضى ، عمّقها وأسهم فى إشباعها .. على عكس ما نفعل نحن .. وأيضاً أعطى للتطلع كل إمكانات اختزال الأزمنة وإجتياز الحـواجز بالنسـبة لعـلوم المسـتقبل ، وعرف كيف يستغل الحزام الخـارجى للكيـان الصـهيونى للتحصين والوقاية دون أن يطـرح مقـولة : من ليس معى ليس بالضرورة علىّ .. وهكذا تدخل مع أقدر الأوساط العلمية فى حضارة الغرب وتركهـا ضمنياً تتداخل معه ، وهو يعلم أنه لن يقدم لها شيئاً يعادل ما تقـدمه له ، واستطاع ، وفى إطار تجاوز التحديات أن يسـتغل جانب الانغـلاق الذى جسده الجيتو : (Getto) . فكـان بخيـلا بحقائقه ، وفضوليا إلى أبعد الحدود للتعرف على حقائق الآخرين ، على عكس تصورنا نحن ..

هذا بالإضافة إلى أن الاتجاهات التربوية فى تطبيقها وممارستها حاولت أيضاً أن تتجاوز التحدى الذى فرضه التاريخ ببرمجة دقيقة تتكيف مع العصر

كى تجعل من هذا الصهيونى المقهور فى تاريخه صهيونياً قاهراً ، فركز على إبراز نظرية الاصطفاء ، وعظمة اليهودية كرمز لشعب مختار حتى يذيب شخصية اليهودى التائه ، ويجعل منه يهودى الاغتصاب المستمر فى أجساد الآخرين ، والمغتصب لأراضيهم ، وحتى يغطى هذه الخصائص التى تبرز وتنشر رائحة العنصرية المقيتة تزيا بشعارات متعددة ، وألبس جسده عباءات الآخرين ، فكان وجود الصهيونية فى الحركات التقدمية والاشتراكيات الدولية والتغنى بالحرية ، والديمقراطية واستغلال وسائل الاتصال التى يتحلى بها حزامه الخارجى على مستوى الغرب لنشر ما يصنعه ويفتعله على أنه هو الواقع الملموس ، لا ليقنع الآخرين فقط وإنما ليقنع ما تبقى من أشلاء اليهودى التائه ليثبته فى موقع حمله إليه . وهنا نتساءل هل يمكن لهذه المحاور ، وما حولها أن تقدم لنا حيثيات موضوعية تبرر نجاح هذه الاتجاهات فيما واجهت من تحديات وتجاوزها لها ؟ ..

موضوعيا ، للإجابة على هذا التساؤل لابد من الإحصاء الدقيق والمعلومات الرصينة التى تعطى لنا مؤشرات نزيهة عما استطاعت الاتجاهات التربوية أن تنجزه فى أرضية التجانس والانسجام والانصهار بين هذا الشتات المتنوع ، وإلى أى حد استطاعت اللغة العبرية أن تلعب دوراً فى تحقيق هذا الإنجاز ، وهل استطاعت المؤسسات التعليمية الابتدائية والثانوية والجامعية أن تسهم فى الوصول إلى الأهداف التى تسعى الاتجاهات التربوية لتحقيقها ؟

الاتجاهات التربوية فى الكيان الصهيونى حاولت أن تتجاوز ما أشرنا إليه من تحديات ، واستطاعت نسبيا وعبر الفترة التاريخية الماضية من اغتصابها للأرض أن تخفف نسبيا على الأقل من حدة وشراسة هذه التحديات التى تتجسد فى اليهودى التائه المنهزم المغترب المشتت الجاهل للآخر من بنى فئته غير قادر على الحديث معه ، المنغلق فى حيه إلى ما نلاحظه عن هذا الصهيونى الذى فرض اللغة العبرية دون أن يضيع نصف قرن فى لقاءات ومؤتمرات ليتساءل عن مدى صلاحيتها لتكون لغة علم ، أو عدم صلاحيتها ، وينشىء الخطب ، ويصيغ الإشكالات ، ويفتعل المشكلات ، وإنما فرضها ولزم بها ، فهى أولا وقبل كل شىء انتماء ، وليست مجرد وسيلة فقط .

هذا الصهيونى حاول أن يفتعل عظمة ليست له ، باحثا عنهــا فى أتربة أساطير التاريخ ، لا حقائق التاريخ فى الوقت الذى يملى على ابن الأرض ومؤسسى العظمة التاريخية الذلة والمسكنة ، ويعمق من تجهيله ليس فقط بتاريخه ، وإنما بقدرات ذاته ، بل ويفــرض على ابن الأرض أن يســتمع إلى تغنيه بعظمة اليهودية ، وأن يتقبلها صاغراً « تعليم الفلسطينيين فى الكيان الصهيونى » وهذا الصهيونى أيضاً لم يجد أى غضاضة فى أن يوفق بين احتفاظه برموزه الأسطورية بعد أن يتصنع منها حقائق تاريخية ، وينطلق فى ميادين التقدم التكنولوجى والعلمى والصناعى ، ويصدر الخبرة والإنتاج المتطور للغير ، فى الوقت الذى يطلب من الآخر أن يحول حقائقه التاريخية إلى أساطير ، ويمنع عنه أى تطلع ..

فلاشك فى أن الجانب التربوى هذا لا يمكن أن يخفى ما فى داخله من تناقضات قد تخفف هذه التعبئة من إبرازها ولكن لا تذيبها بأى حال ، ولهذا كان على الاتجاهات التربوية المعاصرة للكيان الصــهيونى أن تضارب على نموذج تدعيمى يمكنه أن يزكى ما نسعى إليه من تجاوزات للتحديات ، ودون أن يحسب هذا النموذج لصالح اتجاه ، أو اختيار أيديولوجى بعينه ليلاحظ أن كل الاتجاهات والأيديولوجيات اتفقت على أن تسهم فى هذا النموذج الضمانى أو التأمينى ، ونعنى به « نموذج الكيبوتس » كتطبيق للاتجاهات التربوية فى الكيان الصهيونى .

النسق التربوى ــ الكيبوتس ــ باختصار وكما هو معروف يعنى نظاماً تعليميا تعاونيا ، وبهذا يسمى أيضا ، وهو غير منفصــل عن نظــام التعليم الإسرائيلى العام ، غير أنه يمثل صورة متميزة عن إطاره .

إن الكيبوتسات فى فلسطين المحتلة تأسست كما هو معروف أيضاً على يد بعض مجمــوعات من الصــهاينة عرفوا بالرواد ، وكانــوا متعاطفين مع الماركسية ، كما أنهم اتخذوا كشعار أن العمل البدنى ، والعودة إلى الأرض هما قاعدة بناء الوطن ، والنظام التعليمى فى هذه المؤسسات الكيبوتســية يرتكز على الأسس العلمية أكثر مما يترجم التعليم التقليــدى فى طابعــه

السكونى ، كما أنه إلزامى فى كل مراحله الابتدائية والثانوية ، ويلاحظ أن الوليد منذ بداية دخوله إلى الحياة لا يعرف كانتماء إلا الكيبوتس . بعد أسابيع معدودة تتخلى الأم عن دورها الأمومى ليصبح الكيبوتس هو الأم ، والأسرة لا تأخذ المفهوم الضيق ، وإنما ينتمى إلى أسرة الكيبوتس ، وهكذا الأم تتفرغ لعملها كعضوة فى الكيبوتس بنفس الحقوق التى يتمتع بها الرجل ، ونفس الواجبات ، مما يؤهل الرجل والمرأة إلى نوع من التجانس تحت شعار المساواة توطئة للانصهار بالنسبة لجيل الأطفال ، ومن ثم نرى أن عواطف الأمومة والأبوة ، وحتى عواطف الطفل فرغت فى جملتها فى بوتقة عاطفة موحدة هى الكيبوتس ، ومما يسهم فى هذا التوحيد والتجانس وحدة اللغة ، ووحدة النمط اليومى ، ووحدة التعامل القائم على نسق متعادل لا يخلق نفوراً وأ شذوذاً بالنسبة للجماعة ، ولم تقف حواجز التجانس عند هذا الحد ، عوامل تدعيم الانسجام عند موقع وحدة الانتماء تجاوزتها إلى وحدة استعمال الزمن ، وأوقات الفراغ والتسلية والعمل والأكل والنوم ، كذلك محاولة تجاوز الكبت والقهر لدى العناصر غير القادرة على المبادرة والتطلع ، وذلك بإعطائها أكبر قدر ممكن من العناية والرعاية دون اللجوء إلى الرسوب أو السقوط ، وفرض مؤسسة الكيبوتس على أن يمر الطفل فى مراحل نموه النفسى من الروضة إلى الحضانة فى إطار متناسق مجاله الزمانى والمكانى لصالح المؤسسة ولحسابها ..

فالطفل علاقته الأسرية لا تتجاوز إطار الزيارات المحدودة فى نهاية اليوم ، بينما يتولى الكيبوتس توجيهه والإشراف عليه طيلة اليوم بأكمله ، كما أن الدراسة تنقسم إلى قسمين — نظرى وتطبيقى — وعادة تخصص فترات الصباح للجانب النظرى ويلاحظ بالنسبة للمرحلة الثانوية وهى تستمر ٦ سنوات ، وتبدأ من سن الثانية عشرة تتجسد فى شكل مجموعات محددة ومحدودة يتولاها موجه يشرف على تحقيق تطلعاتها ، وحل مشكلاتها ، وتعطى أهمية للدراسات الإنسانية والاجتماعية إلى جانب العلوم الطبيعية والبيولوجية ، وتتصدر اللغة العبرية إلى جانب الإنجليزية والعربية ..

أين مدارسنا الثانوية من اللغة العبرية للتعرف على من يواجهنا فى

الصراع الحضارى المصيرى .. من يسود ؟ .. المتطفل الدخيل أم ابن الدار ؟ .. وما الواجبات العسكرية إلا حلقات تمهيدية ! ..

وتأخذ الكيبوتسات الدينية على عاتقها مهمة السهر على حفظ التراث التوراتى ، والتلمودى ، وتجذيره فى المشاعر ، باعتباره حلقة أساسية من حلقات الوجود المفتعل لهذا الكيان الغريب فى أرضنا ، ولا تقف نشاطات الكيبوتس وبنائه لمواجهة الغد عند حد التعليم الابتدائى والثانوى ، بل يسهم فى إرسال أعضائه إلى دور التعليم العالى ليتخصصوا فى أعلى الدرجات العلمية فى الجامعات والمعاهد التقنية ، وجدير بالإشارة إلى أن أعضاء الكيبوتس ينخرطون بالزراعة والجيش ، وهى رواسى المواجهة : الأرض ، والدفاع عنها ، وهكذا ومن خلال هذه الخطوط الرئيسية ، وباختصار لتجربة الكيبوتس كرأس الرمح بالنسبة للكيان الصهيونى والاتجاهات التربوية يمكننا أن نصل إلى تصوير التحديات التى واجهها الكيان الصهيونى ، وكيف أن التعليم بمفهومه العام أو التعليم الكيبوتسى وظف لتجاوز التحيات ، فإلى أى حد هذا التوظيف حقق ما اتخذه كهدف ، أو بعبارة أدق هل استطاعت التجربة التربوية فى إسرائيل مرتكزة على ما أشرنا إليه من قبل أن تصل إلى الغاية المرجوة ، والتى تفرضها طبيعة المواجهة معنا ، ونعنى بذلك بناء صهيونى متجانس ومؤهل للإندماج والانصهار والثبات فوق الأرض التى اغتصبها والدفاع عنها ، مستغلا فى ذلك من ناحية مشاعر التعبئة الدينية بالنسبة لفئات اليهود النازحين من المجتمعات العربية والنامية لتسهيل واختزال فترة الإندماج والانصهار ، ومستغلة من ناحية أخرى العقلنة والقدرات العلمية الانتقالية لتوظف من خلال فئة اليهود النازحين من دول الغرب ، وشرق أوروبا .. لا عن طريق تخلى كل فئة عن جانب من قناعاتها ، وإنما تعميق القناعات لدى الفئتين .. تعميق المشاعر الدينية والتعبئة الكاملة لتحول الأساطير التى غطاها تراب التاريخ إلى حقائق مجسدة يعترف بها العقل المتطور والتكنولوجيا فى أبهى مراحلها ، ولا يرى فى ذلك تناقضاً أو خروجاً عن نسق التفكير المتعارف عليه .. وهنا نصل ببحثنا المركز إلى المحور الثالث الذى فى الواقع سيكون

بمثابة تقنين لتجربة الاتجاهات التربوية المعاصرة فى الكيان الصهيونى على ضوء ما مارسته وطبقته ، وهل يمكن لهذا التقنين أن يسهم فى التعرف على مايدور فى بطون الكيان الصهيونى ، وخلفياته : ماله ، وما عليه على ضوء الحدود والإمكانيات .

* * *

ثالثا — اتجاهات الفكر التربوى المعاصر فى الكيان الصهيونى على ضـــوء ما انجزت .. مالها وما عليها :

.. دون أن نطيل فى استنتاجنا واستخلاصنا يمكننا على ضوء ما قدمناه كمعالم رئيسية لهذه الاتجاهات أن نشير أولا إلى ما يمكن أن يحسب لهذه الاتجاهات لننتقل إلى ما يحسب عليها ..

١ — يحسب لها أنها حاولت أن تجعل من هذا اليهودى التائه المنغلق الذى يعانى من عقد متعددة فى طليعتها التشتت والقهر والاستكانة والذلة ، بل والغضب ، كما قدم فى تراث الإنسانية يهودياً متطلعا ومغتصبا ، ومستغلا لأخطاء الآخر ليحول شتاته إلى تجانس وانسجام ، ويجعل من أســاطيره ، وخرافاته حقائق تاريخية ملزمة يعترف بهــا ، فى الوقت الذى نحول نحن حقائقنا التاريخية إلى أساطير .. « مثــال الموقف التربوى والعقلانى من الإسلام » .

٢ — يحسب له أيضاً أنه طرح التناقضات فى إطار نشط مزكيا لها لتلعب لصالحه فتعايشت الأساطير لتعبىء الوجدان الدينى وتتعمق وتأخذ طــابع الالتزام مع العقلنة والتقدم العلمى والمعرفة التكنولوجية دون أن تتحول إلى إشكالة تفرغ المشكلات وتملأ ساحة الفكر بالشــعارات بين القــديم والحديث وبالتالى تضيع حقيقة المشكلة بعد التلهى بمشاكل حلول المشاكل ، وهكذا عمق الكيان الصهيونى تربوياً الشعور الدينى وتركه يتجذر مستغلا ماله من فاعلية تلقائية وقدرة نشطة بالنسبة للجماهير كما عمق معطيات التقدم

العلمى والمعرفة التكنولوجية ، وسمح لهما أن يتعايشا فى كل اتجاهاته التربوية دون إلغاء أو مصادرة .

٣ ــ يحسب له أيضاً إعطاء الأولوية لمن يستحقها على مستوى البشر والإمكانات ، فكانت الأولوية للطفل وبنائه للغد « الكيبوتس » كما كانت الأولوية للأرض وحرثها وزراعتها والارتباط بها والدفاع عنها ، بل أعطت لذلك الصدارة « التجنيد قبل التعليم العالى لا بعده » واستغلت المؤسسات المتخصصة والمتنوعة ، بل والمعرفة التكنولوجية لاستغلال هذه الأولويات ليبقى هذا الجسد المفتعل فوق أرض ليست له .

٤ ــ يحسب لهذه الاتجاهات فرض اللغة كوسيلة للتجانس والانصهار فرضاً دون أن تحول بدورها إلى إشكالة كبرى تتوالد منها مشكلات تملأ ساحة الفكر ، وهل اللغة العبرية صالحة أو غير صالحة للعصر ، ويتم الإنزلاق إلى التغنى بالوسيلة على حساب الهدف ، ولكن ما يحسب لهذه الاتجاهات على ضوء إمكاناتها وحدودها لا يمكن أن يحجب الرؤية عن ما يحسب عليها ويعيقها إذ من الخطأ الاعتقاد أن التجربة التربوية فى الكيان الإسرائيلى حققت ما ترجوه من نجاح ، لذا يمكننا أن نستخلص عوائق التجربة فيما يلى بهدف استغلال ذلك فى طبيعة المواجهة مع هذا الكيان المفتعل :

١ ــ لا يمكن بحال أن تؤخذ هذه الأمور التى أحصيناها فيما يحسب لها على أنها نهائية ، بل فى الواقع ما ساعد إبرازها أخطاء المواجهة والإسهام فى إعطائها الجو المناسب لتتنفس ، وهنا نتساءل ــ وبموضوعية ــ ألا يمكن أن ندخل جانب الإدانة العربية فى السماح لهذه التجارب أن تنمو وتستمر مستغلة لما تم فى الفترة الماضية من مواجهة معنا تمت دون تخطيط ووعى ، بل كثيراً ما كان يغلب عليها طابع الارتجال وعدم الإحاطة بطبيعة التناقضات الموضوعية التى أملت واقعا لا علاقة له بالواقع ، هذا اليهودى يهودى الشتات والاستكانة اتخذ من مواجهته مع العرب فى غيبة العرب برهانا ، وحيثيات ليؤكد مصداقية خرافاته وأساطيره ، ويعيد الثقة إلى هذا

« العيران » إذا ما استعملنا لغة ابن ميمون الأندلسى ، ومن ثم فالتجربة التربوية مشروطة فى نجاحها عبر الكيان الصهيونى بمدى استغلال أخطائنا .

٢ ــ إن الدارس بعمق لهذه التجربة يلاحظ أنها رغم ما تزعم من تجذير وتأصيل هى مقرونة بإطار الافتعال للكيان برمته ، فالسعى إلى خلق التجانس والإنصار والجهد الذى يبذل لجمع الشتات فى بوتقة وجدان موحد يرتكز فى أساسه على الأسطورة ، ويعتمد فى تطبيقه على التقدم العلمى والمعرفة التكنولوجية ، ويحصن نفسه بافتعال الانتصارات الفجائية والهروب إلى الأمام لا يمكن بحال أن يعتبر إنجازاً نهائيا ، وإذابة لقرون من الشتات والتنوع فى الانتماء والتكيف ، ومن ثم حينما يتأزم الكيان بفضل وعينا بحقيقته سوف تنكشف العورات وتبرز الخصائص الموضوعية ، وسوف يكتشف الصهيونى أنه جر إلى أرض غير أرضه ، ويعيش مع أهل غير أهله ، وتمارس عليه كجماهير اعتقدت فى أسطورة العودة وسائل الاستغلال والسخرة ، ونعنى بذلك الشرائح العريضة من يهود المشرق والمغرب ومجتمعاتنا النامية .

٣ ــ محاولة الاتجاه اليهودى للتقليل من ثقل ابن الأرض واستلابه وتضليله ، وتعريته ليس فقط من حاضره ، وإنما كذلك من ماضيه هى أطروحة مغلوطة ومغشوشة ، واستمرار ممارستها مرتبط باستمرار أخطائنا ، فعرب فلسطين ممن بقوا بعد الاغتصاب ، وعرب فلسطين ممن أصروا على الارتباط بالأرض بعد النكسة فى الستينات هم فى الواقع يجسدون جسراً صلباً ، ما علينا إلا أن نخفف من هزه واهتزازه من الخارج ، لهذا لا نرى أن الإنجاز فى جملته نهائى ، بل التحديات مغفول عنها بالمسكنات والمغلطات ، وكل يضارب على الغد فماذا أعددنا للغد ؟ ..

❋ ❋ ❋

وكخلاصة : وانطلاقا من المحاور الثلاثة لهذا العرض ودون تطفل أو فضول على ما سوف يعرض للتعريف بالجانب العربى وانجاحاته يمكننا أن نسهم من منطلق الشعور بالمسئولية ، وحتمية المصير ، وبدورنا بما يلى :

١ — أما آن الأوان للاتجاهات التربوية في الوطن العربى أن تعد للغد مصنفة للأولويات وما هو مصيرى بالنسبة للأمة دون أن تتمسح فى المثالية « واليوتوباوية » بمعنى أمتنا وفى واقعها كما هو ، لا كما يجب أن يكون ، ماذا أعدت للغد . لتبقى المؤسسات الجامعية ويبقى التعليم فى مخاضاته ، ويبقى ، ويبقى ، ولكن لم لا نحرص على تقديم نموذج إلى جانب ما يجرى الآن لا نقول مستهلما من الكيبوتس ، ولكن مستلهما من الإسلام ومبادئه فى الوحدة والتضامن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، أى : ليكن . ولو من دولة عربية أن تتبنى تأسيس تعليم يرتبط بتجانس العربى وإندماجه من البـداية إلى النهاية بدلا من تمزقه وتفتته فالخصم يجمع ما فتت ليدمج ، ونحن نمزق ما جمع لنفتت ، لهذا ندعو وبمشاعر صادقة أن تسعى دولة عربية فى مشرق أمتنا أو فى مغربها لتؤسس نموذجاً تربويا كتجربة يرمز إلى الطفل العـربى الموحد من الروضة حتى الجامعة ، والإسلام كفيل بإعطـاء عناصر هـذا الاندماج ، من حيث المبادىء والمشاعر والطموحات واللغة العربية تجسـد وسيلة الاندماج ، والأرض تشكل المحور ، والغاية من هذا الاندماج هـذه المؤسسة للطفل العربى الموحد ، ولا نقول للدولة العربية المتحدة ، ليكن بنسبة ٢٥ ٪ من هذه المؤسسـة من أبنـاء الأرض ، و ٢٥ ٪ من أقطـار المواجهة ، و ٥٠ ٪ من الأقطار العربية والإسلامية الأخرى واختياريا .

٢ — بالنسبة للاتجاه التربوى العربى الإسلامى ، ما أحوجنا أن نعطى أولوية مطلقة . أولا : التربية فى خدمة الأرض وسد الحاجات الضرورية ، وما أكثرها بالنسبة للجماهير ، بمعنى إعطاء أولوية لتطبيق التكنولوجيا فى القطاعات الزراعية واستغلالها وتوسيعها لخلق كفاية ذاتية تجعل الإنسـان العربى يتجاوز الضرورات ، ومن ثم يفكر ويسـعى لتحقيـق ما تبقى من الطموحات ، على أن يركز علميا على استئناس كل الوسائل الممكنة مختزلا للزمن للوصول إلى مستوى الردع لحماية الأرض ، ومن باب أولى استعادة ما سلب منها ، وحينما نقول الردع نعنى وبطريقـة مباشرة الدخـول فى « نادى الذرة » وبأى طريقة كانت :

العقل العربى مؤهل ، والمال العربى بخير ، وما ينقصنا وينتقص منا إلا شىء واحد وهو « الصمت العربى » .

٣ ــ وفى النهاية إن كان المواجــه والمصــارح اســتطاع أن يوفق بين الأساطير والخرافات وبين التقدم العلمى والمعرفة التكنولوجية ليكون طوع تصرف مصيره وتدعيمه وحمايته ــ فلماذا لا نستطيع أن نوفق ــ لا بين أساطيرنا وخرافاتنا ولكن بين حقائقنا التاريخية ، وتراثنا الخالد ، وبين التقدم العلمى والمعرفة التكنولوجية لنعمق الشعور بالانتماء إلى الأمة ونزكيــــه ونجذره بقدر ما تؤصل التطلع إلى الغد ، وإلى المستقبل الأفضل .

ويستمر هذا الحوار المتواصل مع مفكرنا الكبير فى حلقات أخــرى بمشيئة الله .

* * *

(١٩)

دكتور « رشـــدى فــكار »

● **المؤهلات . والعمل . والانتاج .. باختصار :**

ـ من مواليد الكرنك بمحافظة قنا ـ جنوب مصر العربية .

ـ بعد أن التحق بمعهد قنا الدينى ، ثم معهد القاهرة الدينى بالأزهر وتخرج منه وحصوله على البكلوريا الفرنسية أيضاً بالمعادلة ، واصل دراسته فى مصر ، ثم تابعها فى أوروبا بالقسم العلمى للدراسات العليا بالسوربون ، حيث تخرج منه بحصوله على دبلومه فى الدراسات العليا ، كما حصل فى نفس الوقت على ليسانس الآداب « تخصص فلسفة بالمعادلة » من جامعــة جنيف .

ـ حصل على دبلومين فى الدراسات العليــا من باريس أحــدهما فى الإجتماع ، والآخر فى العلاقات الدولية .

ـ حصل على درجة دكتوراة من جامعة باريس مع مرتبة الشرف الأولى سنة ١٩٥٦ .

ـ توجت حياته الدراسية الجامعية بحصوله بعد الدكتوراة السابقة ، على مرتبة الأستاذية مع درجة دكتوراة دولة أخرى من جامعة جنيف عــام ١٩٦٧ .

● **الوظائف الجامعية التى تقلدها .. والعضوية فى الأكاديميات العالمية والجمعيات والمؤتمرات الدولية ، واقرار ترشيحه لجــائزة نوبل فى الآداب منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٦ :**

ـ مكلف بمحاضرات بالسوربون فى القسم العلمى للدراسات العالية بعد تخرجه منه لمدة عام .

ـ محاضر فى جامعة جنيف بمعهد الألسن وكلية الآداب .

ـ عمل أستاذاً محاضراً بمعهد العلوم الإجتماعية بجامعة محمد الخامس التابع لمؤسسة اليونسكو تحت إشراف جامعة نيو شاتل ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ .

ـ أستاذ زائر بجامعة نيوشاتل وجامعة جنيف منذ سنة ١٩٦٤ .

ـ أستاذ بجامعة محمد الخامس منذ سنة ١٩٦٨ .

ـ أستاذ زائر بالعديد من الجامعات الأوروبية والعربية الأخرى .

ـ شارك فى الإشراف على الكثير من الرسائل وأطروحات الدكتوراة المقدمة فى الجامعات الأوروبية والعربية .

ـ ينتسب بالعضوية لأكثر من ٤٢ جمعية دولية ، وأكاديمية ، ومؤتمراً عالمياً مثل :

ـ عضويته لجمعية استرنبرج الاسكندنافية بالسويد .

ـ عضويته بالهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية أدلف (A. D. E. L. F.) باريس.

ـ انتخب عضواً مشاركاً فى الأكاديمية الفرنسية للعلوم بمجامع الخالدين

ـ دائرة ما وراء البحار منذ ١٦ فبراير سنة ١٩٧٣ .

ـ أقر ترشيحه لدى الأكاديمية السويدية « لجائزة نوبل فى الآداب » منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٦ بمساندة هيئات عالمية ، وإسلامية ، وعربية منها :

أكاديمية العلوم الفرنسية ، وجامعة جنيف ، والهيئة العالمية للكتــاب بالفرنسية « أدلف » وتزكية مجمع البحوث الإســلامية بالأزهر الشريف ، ومنظمة الجامعة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الكســو) . والمجالس القومية المتخصصة برئاسة الجمهورية بمصر ..

إلى غير ذلك من الهيئات والمنظمات الفكرية والعلمية العربية الإسلامية والعالمية .

● **الانتــاج العلمى :**

ـ يتجاوز إنتاجه العلمى حاليا ١٤٠ بين مؤلفات ودراســات وأبحاث وترجمات ، وتعليقات باللغة الفرنسية أساسا ، والعربية والإنجليزية .

لمزيد من التفصيل عن هذا الإنتــاج يراجع **« الكتالوج الدولى لجامعة جنيف .. وكتالوج المكتبة الوطنية بباريس » ..**

● **فى الانتاج العالمى بالفرنسية والانجليزية .. على سبيل المثال :**

— السوسيولوجيا (علم الاجتماع) والاشتراكية الدولية ، وأصــول الماركسية فى مجلدين (عدة طبعات فى عدة لغات) عن دار النشر العالميــة دولا شونستليه نيوشاتل وباريس سنة ١٩٦٨ .

— المراهنة الصـــناعية فى خمس مجلدات بالاشـــتراك مع أعضــاء فى الأكاديمية الفرنسية ، وأساتذة من الجامعــات فى دول الكتــلة الشرقيــة خصوصاً المجلد الخامس عن (الصــناعة وأزمة الحضــارة) منشــورات « دى نويل » .. « كوليج دى فرانس » والأكاديمية الفرنسية سنة ١٩٧٢ .

— علم الاجتماع ، وعلم النفس والانثروبولوجيا الاجتماعية ، معجــم موسوعى عالمى ، أربعة أجزاء فى مجلدين ، مصطلحات وأعلام ، بالفرنسية والإنجليزية والعربية ، باريس ، دار النشر العالمية جتنبر ١٩٨٠ — ١٩٨١ .

● **وفى الانتاج بالفرنسية عن العالم العربى والاسلامى :**

— نظرية القلق عبر الفكر الاجتماعى الإسلامى — الفرج بعد الشدة — عن دار النشر العالمية .. أدريان ميزونيف بباريس ١٩٥٥ .

— تأملات فى الإسلام .. فى عدة طبعات عن دار النشر العالمية ميزونيف لاروز بباريس سنة ١٩٧٣

— انعكاسات السوسيولوجية الوضعية وأصول الماركسية فى العــالم العربى .. عــدة طبعات عن دار النشر العالمية جتنبر بباريس ســنة ١٩٧٤ .

— أصول العلاقات الثقافية بين فرنسا والعالم العربى .. عدة طبعــات عن دار النشر العالمية جتنبر باريس ١٩٧٣ .

— الحياة اليومية فى مصر إبان عصر محمد على .. عن دار النشر العالمية ميزونيف سنة ١٩٧٥ .

● فى الانتاج باللغة العربية :

ــ دراسات أنثروبولوجية اجتماعية (السحر وما حوله) دار النجاح ــ بيروت سنة ١٩٧٣

ــ الشباب وحرية الاختيار .. مكتبة المعارف ــ الرباط ١٩٧٤

ــ أوجست كونت عملاق السوسيولوجيا وموقفه من الإسلام (منشورات مركز البحث العلمى) بجامعة الرباط .. حوليات علم الاجتماع سنة ١٩٦٨

ــ وضعية الدراسات السوسيولوجية فى المشرق العربى (منشورات مركز البحث العلمى) الجامعى بالرباط سنة ١٩٧١

ــ الإسلام بين دعاته وأدعيائه ــ الرباط ، المعارف سنة ١٩٧٦

ــ الماركسية والدين ــ الرباط سنة ١٩٧٦ والقاهرة دار التعاون للنشر (الإنتاج العالمى) سنة ١٩٧٩ .

ــ فى البغاء الوحشى ــ القاهرة ــ مكتبة وهبة والرباط . المكتبة الجامعية سنة ١٩٧٩

ــ تأملات إسلامية فى قضايا الإنسان والمجتمع .. فى مجلد موسوعى القاهرة مكتبة وهبة سنة ١٩٨٠

ــ نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع .. فى مجلد ــ القاهرة ــ مكتبة وهبة سنة ١٩٨٠

ــ فى المنهجية والحوار ــ مكتبة وهبة سنة ١٩٨٢
إلى جانب دراسات وأبحاث أخرى باللغات المختلفة .

● ومن احدث مؤلفات د. رشدى فكار . كما اشرنا سلفا :

ــ موسوعة ضخمة فى علوم الإنسان تتكون من أربعة أجزاء بالفرنسية والإنجليزية والعربية حاول فيها أن يعيد النظر فى مضامين هذه العلوم على مستوى يتجاوز المضامين الغربية ، وهذه الموسوعة ــ تعتبر منعرجا هاماً فى التقنين المعرفى « الابتسومولوجى » لمفاهيم علوم الإنسان الأساسية ونظرياتها الرئيسية ..

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

***

اسلاميات

(سلسلة العالم العربى الاسلامى)

للدكتور رشدى فكار (١)

● **عن دور النشر العالمية :**

- **الفرج بعد الشدة عند مفكرى الاسلام** ، لاهاى بخهوف ، باريس ، ادريان ميزونيف مجموعة كارنو ، ١٩٥٥
- **تاملات حول الاسلام : اسس العقيدة والجانب الاجتماعى** ، باريس ، ميزونيف ولاروز ١٩٧٢ وفى عدة طبعات اخرى .
- **اصول العلاقات الثقافية المعاصرة بين فرنسا والعالم العربى** ، باريس ، جتنير ، ١٩٧٢ وفى عدة طبعات .
- **انعكاسات السوسيولوجيا الوضعية فى العالم العربى** ، باريس ، جتنير ، ١٩٧٤ وفى عدة طبعات .
- **الحياة اليومية فى مصر خلال القرن التاسع عشر** ، باريس ، ميزونيف ولاروز ١٩٧٥

● **عن دار الهلال ، القاهرة (بالفرنسية) :**

- **الفكر التقدمى فى اوروبا واثره فى الشرق** ١٩٥٩ .

● **عن دار النجاح للنشر ، بيروت (بالعربية) :**

السحر وما حوله مع ملحق عن انسان القرآن ، دراسة انثرولوجية اجتماعية ١٩٧٣ .

---

(١) لمزيد من التفصيل عن الانتاج الكامل للدكتور رشدى فكار بالفرنسية ، والعربية والانجليزية ، يراجع : **كتالوج مكتبة جامعة جنيف حرف (ف) ، والقائمة الكاملة لاهم المؤلفات والدراسات الرئيسية للدكتور رشدى فكار مع نبذة عن سيرته المودعة « بمؤسسة نوبل » باستكهولم ، السويد ، وكتالوج المكتبة الوطنية بباريس حرف (ف) ...**

ISLAMIATE
(Serie du Monde arabo-musulman)
de D. R. FAKKAR

- **Editions Internationales.**
  - La Délivrance après l' Angoisse, La Haye, Nijhoff, Paris, Adrien Maisonneuve, Collec. Garnot, 1955.
  - Réflexions sur l' Islam, fondement de croyance et aspect social, Paris, Maisonneuve et Larose, 1972 et plusieurs éditions.
  - Aux origines des relations culturelles contemporaines entre la France et le Monde arabe, Paris, Geuthner, 1972 et plusieurs éditons.
  - Reflets de la Sociologie Prémarxiste dans le Monde arabe, Paris, Geuthner, 1974 et plusieurs éditions.
  - Aspects de la vie Quotidienne en Egypte, Paris, Maisonneuve et Larose, 1975.
- **Edition Al-Hilal, Le Caire** (en français).
  - La pensée progressiste en Europe et influence en Orient. (1959).
- **Edition Dar Al Najah, Beyrouth** (en arabe).
  - La Magie et ses alentours avec une annexe relative à l'homme du Coran étude d' Anthropologie sociale. (1973).
- **Edition Wahbah, Le Caire** (en arabe).
  - Reflexions musulmanes sur les problèmes de l'Homme et de la Société. I vol. (1980).
  - Vues musulmanes sur l'Homme et la Société aprés 14 siecles, (1981).
  - Methodologie et dialogue. (1982).
  - Khamis el - Bakry, D. Ruchdi Fakkar en Dialoge Avec les Problèmes de Notre Temps. (1986) .
- **Edition, Maison du Peuple, Le Caire** (en arabe).
  - Long dialogue sur les problèmes idéologiques, contemporains à travers la pensée de Dr. Rouchdi Fakkar, ouvrage sur lui, élaboré par l' écrivan égyptien, bien connu, Ali Dali. (1976).

---

(1) Pour les œuvres completes de D . R. Fakkar : ouvrages principaux et autres travaux, en français, en anglais, et en arabe voire, Catalogue de la Bibliothèque de l' Université de Genève, Lettre F., la Liste de principaux ouvrages et travaux de R. Fakkar publiées Jusqu'a 1981 et déposée à la fondation Nobel, Stockholm, et Catalogue de la Bibliothèque Nationale de Paris, Lettre F.

● **عن مكتبة وهبة للنشر والتوزيع ، القاهرة (بالعربية) :**

- **تاملات اسلامية فى قضايا الانسان والمجتمع** (فى مجلد سنة ١٩٨٠) .
- **نظرات اسلامية للانسان والمجتمع من خلال القرن الرابع عشر الهجرى** ١٩٨١ .
- **لمحات عن المنهجية والحوار ... الطبعة الأولى** ١٩٨٢ .
- **خميس البكرى ، د. رشدى فكار المفكر الاسلامى العالمى** فى حوار متواصل حول مشاكل العصر ١٩٨٦ .

● **عن دار الشعب للنشر ، القاهرة (بالعربية) :**

- **امصريون فقط ؟ حوار مطول حول القضايا الايديولوجية المعاصرة ،** فى كتاب عن الدكتور رشدى فكار وضعه الكاتب المصرى المعروف على الدالى ١٩٧٦ .

* * *

رقم الايداع ٥٥٠٠/٨٦
الترقيم الدولى ٦ - ٠٩١ - ٣٠٧ - ٩٧٧

Premiere édition

1986 — 1407 H.

مطابع المختار الإسلامي

KHAMIS EL BAKRY

Dr. ROUCHDI FAKKAR EN DIALOGUE AVEC LES PROBLÈMES DE NOTRE TEMPS

EDITION, WAHBAH LIBRAIRIE.
14 Rue GAMHORIYAH
LE CAIRE 1986